

# عَوْنُ الْحَمِيدِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

وَبَيَانِ مَا فِيهِ مِنَ الْهَدَايَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

تَأَلَّفَ

أ. د. سُلَيْمَانُ بْنُ بَرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الْأَسْتَاذِ فِي قِسْمِ الْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ

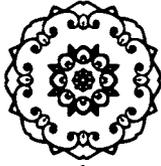
بِكَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَالذَّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ - جَامِعَةِ الْقَصِيمِ

الْمَجْلَدُ الْعِشْرُونَ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّحُرْفِ وَالذُّخَانِ وَالْجَاثِيَةِ وَالْأَحْقَافِ وَمُحَمَّدٍ وَالْفَتْحِ وَالْحُجُرَاتِ

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عَوْنِ الْحَمِيدِ  
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

٢٠



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص.ب. وأصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٢٤٤٩٧٠

جوال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

✉ aljawzi@hotmail.com

☎ +966503897671

📌 aljawzi

📍 eljawzi

🌐 aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ  
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله  
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد  
والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ

٤٠٠ ص؛ ٢٤×١٧ سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

أ. العنوان

١٤٤١/٥٤٤٣

ديوي ٢٢٧,٣

جميع الحقوق محفوظة

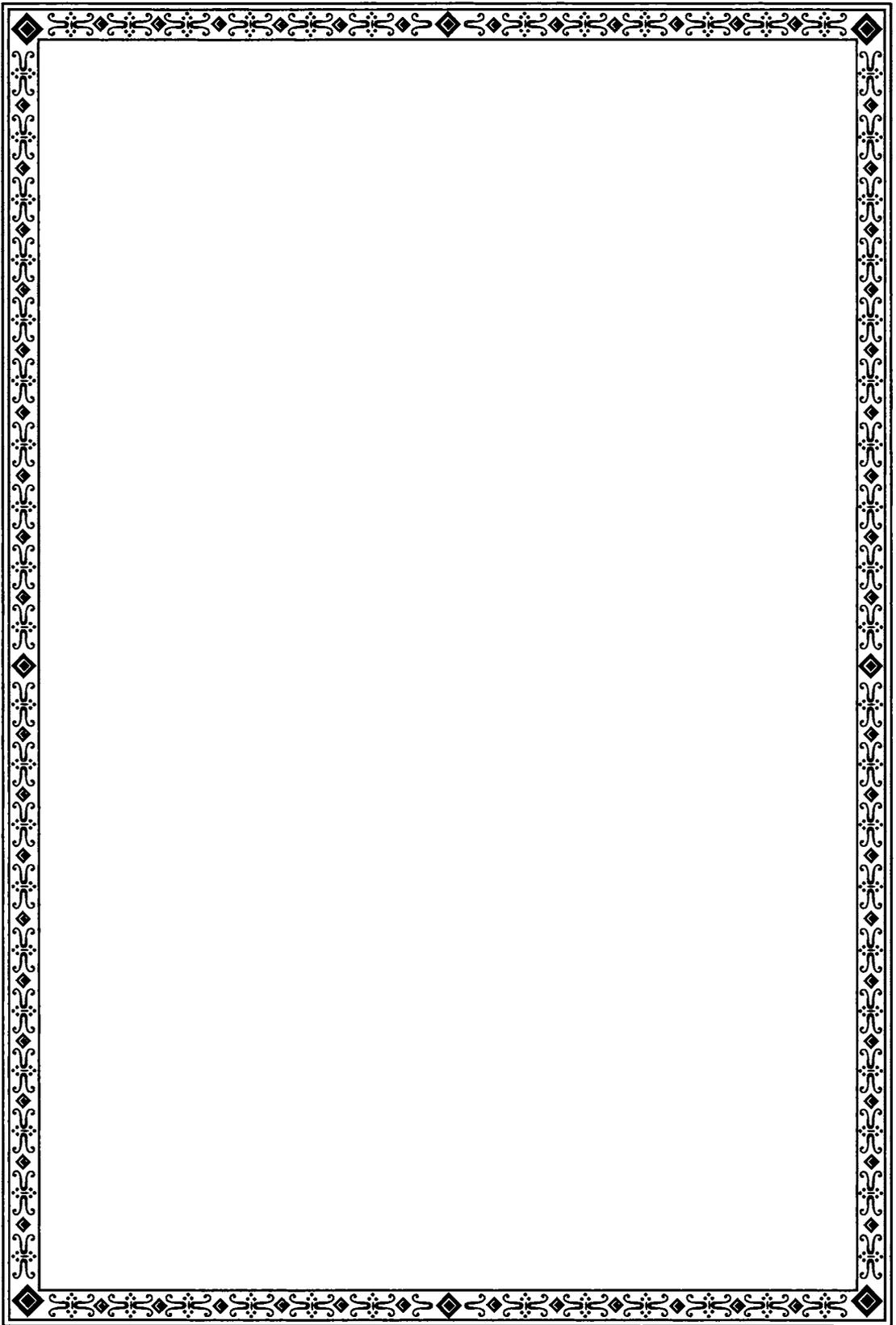
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب  
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام  
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي  
لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّخْرُفِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت: «سورة الزخرف» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَلِيُوتِيَهُمُ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ (٣١) وَزُخْرَفًا ﴿٣٢﴾.

وتسمى. سورة: «حم الزخرف».

## ب- مكان نزولها:

مكية

## ج - موضوعاتها:

١- افتتحت «سورة الزخرف» بقوله تعالى: ﴿حَمِّ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾ بيانا لإعجاز القرآن وتعظيمًا له.

٢- الامتنان بجعل القرآن عربياً ليتعقله العرب، وبيان عظم مكانته عند الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾.

٣- إقامة الحجة على المشركين وإن كانوا مسرفين، كما أرسل عز وجل كثيراً من الرسل في الأولين، مع إطباقهم على الاستهزاء بالرسول، وأهلكهم مع شدة بطشهم ﴿أَفَضْرَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مِثْلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾.

٤- إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وجعل الأرض لهم مهدياً، وسلك لكم فيها السبل، وأنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض إلى غير ذلك: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا

لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴿١٤﴾.

٥- ذم المشركين في نسبتهم الولد لله، وجعل البنات له ولهم البنون، وتشاؤمهم بالأنثى، وجعلهم الملائكة بنات الله، وعبادتهم إياهم، واحتجاجهم بالقدر وتقليدهم آباءهم على جهل، والرد عليهم، وانتقام الله منهم وإهلاكهم: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

٦- التذكير بإبراهيم عليه السلام وبراءته مما يعبده أبوه وقومه، وإخلاصه العبادة لله تعالى وحده: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

٧- نكران المشركين لنعمة الله تعالى عليهم في تمتيعهم وآباءهم، بتكذيبهم الرسول ﷺ وما جاءهم به من الحق، وزعمهم أنه سحر وكفرهم به، وازدراؤهم للرسول ﷺ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَاتِلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٦١﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٦٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٦٣﴾ أَمْ هِيَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ حَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَلَّمُونَ ﴿٦٦﴾ وَزُخْرَفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

٨- معاقبة الله تعالى لمن يعيش عن القرآن وذكر الله تعالى بتسليط الشيطان عليه: ﴿وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّأَلُ الْقَرْيَةَ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٩- تسلية النبي ﷺ، وتهديد المكذبين له، وتقوية جنانه ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ فَمَا نَذَهَبَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أَوْ

نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقَدِّرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَسْكَبَ الَّذِي آوَىٰ إِلَيْكَ إِنَّاكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾.

١٠- ذكر إرساله عز وجل موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه بالآيات العظيمة وتكذيبهم بها وضحكهم منها، وأخذهم بالعقوبات وما لقيه موسى عليه السلام من فرعون من الأذى، واستخفافه قومه وطاعتهم له، وغضب الله عليهم وانتقامه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

١١- ضرب المشركين المثل بعيسى بن مريم في كونه عبد من دون الله، ومعارضتهم بذلك القرآن وإعراضهم بسبب ذلك وخصامهم: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَرْهَيْتَنَا خَيْرًا أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِن هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْآرِضِ يَخْلِفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَعَالِمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُون هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُذِبٌ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْبُرْجِ ﴿٦٥﴾﴾.

١٢- التهديد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ بإتيان الساعة وعداوة بعضهم لبعض والمتقين بالسلامة من الخوف والحزن وبدخول الجنة لهم فيها ألوان النعيم: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَعْبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْإِنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَشْرُ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ

جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَا بِمَلِكِهِمْ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَمْثَلُ أَمْثَرًا إِنَّا مَبْرُؤُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُورُونَ ﴿٨٠﴾

١٣- تنزيه الله عز وجل عن الولد، وإثبات عموم ربوبيته، وتهديد الكافرين ووعيدهم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ مَخُوضًا وَيَلْعَبُونَ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

١٤- إثبات عموم ألوهيته في السماء والأرض، وتام حكمه وحكمته، وواسع علمه وتعالیه، وكثرة بركته، واختصاصه بملك السموات والأرض وما بينهما، ويعلم الساعة، ورجوع الخلائق إليه: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

١٥- بطلان عبادة كل من يدعى من دون الله، لأنهم لا يملكون الشفاعة، وليس لهم من الأمر شيء: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٦﴾

١٦- الإنكار على المشركين والتعجب من عبادتهم غير الله وكفرهم وعدم إيمانهم مع إقرارهم بربوبية الله تعالى لهم: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبَاءِ لَكُنْزٌ ٤ ﴿أَفَنْصَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨ ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠ ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢ ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ١٤﴾

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبَاءِ لَكُنْزٌ ٤ ﴿أَفَنْصَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨﴾

قوله: ﴿حَمَّ ١﴾ ﴿سَبَقَ الْكَلَامَ عَلَيْهِ.

﴿وَالْكِتَابِ﴾ الواو: واو القسم، و«الكتاب»: مقسم به مجرور متعلق بفعل محذوف تقديره: أقسم، والمراد به: «القرآن الكريم»؛ لأنه مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وفي المصاحف بأيدي المؤمنين.

﴿الْمُبِينِ﴾: صفة ل«الكتاب»، أي: البين الواضح الجلي في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، المبين للحق، ولعظمة من أنزله، وصدق من جاء به، ولكل شيء يحتاج إليه العباد، من أمور الدين والدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ جملة جواب القسم، ﴿ قُرْءَانًا ﴾: مفعول به ثانٍ منصوب لـ «جعل»، و﴿ عَرَبِيًّا ﴾: صفة لـ «قرآنًا».

والمعنى: إنا أنزلناه وأوحيناه وصيرناه قرآنًا عربيًّا، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الشورى: ٧].

والمعنى: جعلناه بلغة العرب، التي هي أفصح اللغات وأبينها وأوضحها وأوسعها، وفي هذا ثناء على القرآن، وامتداح له؛ كما قال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وإقامة للحجة على المعاندين له، وهو بلغتهم، وتحذُّ لهم؛ كما في قوله: ﴿ حَمَّ ﴾.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، «لعل»: للتعليل، أي: لعلكم تعقلونه وتفهمونه وتدبرونه، فتنتفعوا بعقولكم.

فامتن عليهم بجعل القرآن عربيًّا بألفاظه ومعانيه وأحكامه؛ ليعقلوه؛ كما قال تعالى: ﴿ كَتَبْنَا فُصِّلَتْ ءآيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣]، وقال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: ٣٧].

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي: هذا الكتاب المبين: «القرآن الكريم» ﴿ فِي أُمَّرٍ أَلْكِتَابِ ﴾، أي: في أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، أي: وإنه في اللوح المحفوظ لدينا، أي: عند الله في الملاء الأعلى، وسمي اللوح المحفوظ: أم الكتاب؛ لأنه مرجع لجميع ما يكتب من بعده.

﴿ لَعَلِّي ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لذو مكانة عالية، وشأن عظيم، وشرف رفيع.

﴿ حَكِيمٌ ﴾، أي: ذو حُكْمٍ وحِكْمَةٍ، مشتمل على الأحكام التامة المحكمة: الشرعية والجزائية والقدرية.

قال ابن القيم: «والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات

والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٨﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٩﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢] وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح المحفوظ أفعاله وكلامه، ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب»<sup>(١)</sup>.

﴿أَفَنصْرِبُ عَنْكُمُ ﴿٢﴾ الهمزة للاستفهام، والمراد به: النفي، ﴿الذِّكْرُ ﴿٣﴾﴾: القرآن الكريم.

﴿صَفْحًا ﴿٤﴾ مفعول مطلق نائب عن المصدر، أو مصدر في موضع الحال، أي: أفنصرف عنكم الذكر، وترك تذكيركم بالقرآن إعراضاً عنكم؟ ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة: «إن» على أنها شرطية.

وقرأ الباقر بفتح الهمزة: ﴿أَنْ ﴿٦﴾﴾ على أنها مصدرية. أي: بسبب كونكم قوماً مسرفين، أي: متجاوزين الحد في الكفر والإعراض عن القرآن.

وفي إقحام ﴿قَوْمًا ﴿٧﴾﴾ في قوله: ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٨﴾﴾ دلالة على أن ذلك كان طبعاً لهم. قال ابن القيم: «أي: نترككم، فلا ننصحكم، ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم»<sup>(٢)</sup>.

والمعنى: أنه عز وجل يقول للمسرفين: لا نترك تذكيركم بالقرآن بسبب كونكم قوماً مسرفين معرضين عنه، بل اقتضت حكمتنا أن نذكركم به؛ رحمة ولطفاً بالعباد؛ ليهتدي من قدر الله هدايته، وتقوم الحججة على من ضل.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٣١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٣١-١٣٢.

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

لما ذكر إسراف المشركين في الإعراض عن القرآن، والتكذيب له ﷺ، أتبع ذلك بذكر ما حصل لكثير من الأنبياء السابقين من الاستهزاء والتكذيب من أقوامهم، وإهلاكهم؛ تسلياً له ﷺ، وتشجيعاً له على الصبر، وتهديداً للمكذبين من قومه.

قوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍِّّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾، «كم»: خبرية تفيد التكرير، أي: وكثيراً من الأنبياء أرسلنا في الأولين، أي: في الأمم السابقة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍِّّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾، «من» لتوكيد عموم النفي.

﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: وما يأتيهم أي نبي إلا كانوا به يستهزئون؛ تكديماً له، وبما جاءهم به من الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: ٧١].

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾، «بطشاً»: تمييز، أي: فأهلكنا المكذبين للرسول بالعذاب وأنواع العقوبات، وهم أشد من المكذبين لك يا محمد قوة وآثاراً في الأرض، فما أغناهم ذلك، ولا دفع عنهم عذاب الله.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩]، وقال تعالى: ﴿﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَحْذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١١﴾﴾﴾ [غافر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَخْفَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾﴾ [ق: ٣٦].

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: مضت سنة الله في إهلاك المكذبين، وجعلهم عبرة

لمن بعدهم من أمثالهم؛ كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمُتْلُكُ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَؤُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «ومضى مثلهم»، مع أنه سبق قوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾؛ ليكون الإخبار عنهم صريحًا، وجاريًا مجرى المثل.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [١] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [١٠] وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ [١١] وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ [١٢] لَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ [١٣] وَإِنَّا لَآرَبُّنَا لَمُنْقَلِبُونَ [١٤].

قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم﴾ الواو: استثنائية، واللام: موطئة للقسم، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: والله لئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين، الذين يعبدون غير الله من الأصنام والأنداد:

﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ﴾، أي: من الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهما على غير مثال سبق؟

﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، والنون للتوكيد، أي: ليقولن: خلقهن العزيز العليم، أي: الله وحده لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ

﴿الله﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨].

فاعترفوا بأن الخالق لهم ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، أي: الله العزيز العليم، وفي قولهم: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى كمال عزته عز وجل، وَسَعَة علمه، وتعريض بنقص أصنامهم، فلا عزة ولا علم.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ الجملة مستأنفة، من كلام الله عز وجل، وليست من كلام المسؤولين عن خلق السموات والأرض.

قرأ عاصم: ﴿مَهْدًا﴾ بدون ألف بعد الهاء، وقرأ الباقون: ﴿مِهَادًا﴾ بالألف بعد الهاء.

أي: هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، أي: فراشًا ممهدة، وقرارًا منبسطة، مذللة، تتمكنون من السكن والبناء عليها، والسير والتصرف فيها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: طرقًا تسلكونها لمعاشكم بين الجبال والأودية، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن تهتدوا وتعرفوا الطرق في أسفاركم من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى قطر، فلا تتيهون الطريق.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، فانتقل من الامتنان عليهم بالسكن، إلى الامتنان عليهم بالرزق، وأعيد الموصول للاهتمام.

أي: والذي نزل شيئًا فشيئًا من السحاب الذي في العلو بين السماء والأرض - كما قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿مَاءً بِقَدَرٍ﴾، أي: مطرًا بتقدير معلوم، وقدر الحاجة؛ لسقي الناس والأنعام، والزرع والثمار، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ﴾، أي: فأحيينا بهذا الماء؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّا نُهُ فَآقْبَرُهُ﴾ [١١] ثُمَّ إِذَا شَاءَ

أَنْشَرُهُ [عبس: ٢١، ٢٢].

﴿بَلَدَةٌ مَيِّتَةٌ﴾، أي: بلدة أرضها مقفرة من النبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهْمٍ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْأَعْيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [يس: ٣٣-٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر: «تُخْرَجُونَ» بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون بالبناء للمفعول: ﴿تُخْرَجُونَ﴾. أي: كما أحيينا بالمطر الأرض بعد موتها، كذلك نخرجكم من قبوركم أحياء يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحِي الْمَوْقِعِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَاطِلٍ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩-١١].

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، «الذي»: معطوف على الموصول الأول في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، أي: والذي خلق الأصناف كلها، من الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَبِيَّةً أَرْسَلْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٣].

ومن النباتات، ومن كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، كالأرض والسماء، والشمس والقمر، والليل والنهار، والحر والبرد، وغير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ﴾، أي: السفن البحرية بأنواعها المختلفة، الشراعية والبخارية، وغير ذلك.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾، أي: وجعل لكم من الأنعام ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي تركيبونه في البحر، وهي السفن، وفي البر الإبل التي تسمى: «سفائن الصحراء». قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ [يس: ٤١، ٤٢].

﴿لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لتستوا على ظهور هذا المركوب من الفلك والأنعام، أو لتستوا على ظهور ما جعله الله لكم من الفلك والأنعام ركوبًا، أي: تعلقوا عليه وتستقروا عليه.

﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: إذا استويتم على ظهر هذا المركوب بالاعتراف له بها بقلوبكم، ونسبتها إلى الله وحده، والشناء على الله بها، وشكره عليها بطاعته بجوارحكم.

﴿وَقُولُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾، أي: وتقولوا بعد ركوبكم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾، أي: تنزيهاً لله تعالى، وتقديساً له وتعظيماً، الذي ذلل لنا هذا المركوب، وذلك لإبعاد الزهو والخيلاء عن النفوس حال الركوب. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، أي: وما كنا لهذا المركوب مطيقين وقادرين على تسخيره، لولا تسخير الله وتذليله لنا ذلك.

﴿وَإِنَّا إِلَيْنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنا إلى ربنا وحده لراجعون وصائرون.

وهذا أيضًا تأكيد لإبعاد الخيلاء والكبر عن النفوس؛ لما فيه من التذکر للآخرة، والاستحضار في هذا السفر الدنيوي السفر الآخروي إلى الله تعالى، وإلى الدار الآخرة، مع بعد الشقة، وقلة الزاد.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَيْنَا

رَبَّنَا لِمَنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل»، وإذا رجعت قافلته، وزاد فيهن: «آيون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون»<sup>(١)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾.
- ٢- إقسام الله عز وجل بالقرآن؛ تعظيماً له، وتنويهاً ببيانه ووضوحه، وتبيينه لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾.
- ٣- الامتنان على العرب وغيرهم بجعل القرآن عربياً بأفصح اللغات، وأوسعها، وأكثرها ألفاظاً، وأوضحها معاني؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ٣﴾.
- ٤- أن الحكمة من جعل القرآن عربياً بأفصح اللغات وأوسعها؛ لأجل أن يتدبر العرب وغيرهم في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره ويفهموه، ويعقلوه، وتقوم عليهم الحجة بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٤﴾.
- ٥- أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ عند الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ فِي أُرْسِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ٥﴾.
- ٦- أن القرآن عند الله عز وجل، وفي الملاء الأعلى ذو مكانة عالية، وشأن عظيم، وشرف رفيع؛ لما اشتمل عليه من أحكام وحكم، وإحكامه في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧﴾ في كتاب مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنذَكْرَةٌ ١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾

(١) أخرجه مسلم في الحج، ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ١٣٤٢، وأبو داود، في الجهاد، ما يقول إذا سافر ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات، ما يقول إذا ركب الدابة ٣٤٤٧، وأحمد ٢/١٤٤.

[عبس: ١١-١٤].

٧- أن الله عز وجل لم يترك تذكير العباد بالقرآن- رحمة منه ولطفاً بهم- وإن أسرفوا في الإعراض عنه؛ ليهدي عز وجل بذلك من كتبت له الهداية، ويُصر من كتبت عليه الشقاوة، وتقوم الحججة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

٨- كثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله في الأولين إقامة للحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾.

٩- استهزاء الأمم السابقة بجميع أنبيائهم، وتكذيبهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

١٠- إهلاك المكذبين من الأمم السابقة، وقد كانوا أشد قوة من كفار قريش، ولم تغن أو تدفع عنهم قوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾.

١١- تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه بذكر ما لقي الأنبياء- مع كثرتهم- من أقوامهم من الاستهزاء بهم، والتكذيب لهم، وإهلاكه عز وجل للمكذبين.

١٢- تهديد ووعيد المكذبين له ﷺ أن يحل بهم ما حل بالمكذبين للرسول من قبلهم؛ مما يوجب عليهم أخذ العظة والعبرة، فهذه سنة الله في المكذبين، والسعيد من وعظ بغيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾.

١٣- إقرار المشركين واعترافهم بربوبية الله تعالى، وأنه الذي خلق السموات والأرض، ومع ذلك يعبدون غيره من الأصنام والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

١٤- إثبات اسمين من أسمائه عز وجل، هما: «العزیز العليم»، وصفة العزة التامة، والعلم الواسع له عز وجل، واعتراف المشركين بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

١٥- إثبات اختصاصه عز وجل بالخلق؛ لكمال عزته وعلمه، والتعريض بنقصان الأصنام والأنداد، فلا عزة لها ولا علم.

١٦- الامتنان بجعل الأرض ممهدة مذلة صالحة للعيش والبناء والسكن عليها، وجعل السبل فيها، يهتدي فيها السائرون والمسافرون، وبيان تمام قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

١٧- أن الله عز وجل لو لم يجعل الأرض ممهدة لم يستطع الإنسان العيش عليها، ولو لم يجعل الله فيها السبل ما استطاع الإنسان الاهتداء فيها، وفي هذا إشارة لما هو أعظم، وهو الاهتداء إلى جنته بما نصبه من الصراط المستقيم.

١٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.  
١٩- بيان تمام قدرته تعالى وسابغ نعمته في تنزيل المطر من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾.

٢٠- حكمة الله تعالى في تقدير كل ما ينزل من السماء من مطر وغيره، فهو ينزل بقدره عز وجل وتقديره، فلا يزيد عن الحاجة فيضر، ولا ينقص عنها فيقل نفعه؛ لقوله تعالى: ﴿مَاءً يَقْدَرُ﴾.

٢١- إثبات البعث بعد الموت، وقدرته عز وجل التامة على ذلك؛ كما أحيا الأرض بعد موتها؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُكَ﴾.

٢٢- كمال عظمته عز وجل وقدرته في خلق الأصناف من الحيوان والنبات ومن كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

٢٣- الامتنان على العباد بجعله وتسخيره لهم من الفلك ما يركبونه في البحر، وهي السفن بأنواعها، ومن الأنعام ما يركبونه في البر، وهي الإبل سفن الصحراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

يضاف إلى ذلك ما هيأه الله لهم، وأنعم به عليهم، وأقدرهم عليه، وعلمهم صنعه، من المراكب؛ كالطائرات والسيارات، وغير ذلك، فكل ذلك بتسخيره وفضله ومنتته ونعمته؛ كما قال عز وجل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا

٢٤- أن ما امتن الله به على العباد من الفلك والأنعام لركوبهم؛ ليتنفعوا بذلك، ويذكروا نعمته عز وجل عليهم بذلك، ويشكروه بنسبة ذلك إليه، وطاعته، بعيداً عن الزهو والفخر، والاغترار بالنعمة؛ لقوله تعالى: ﴿لِئَسْتَوَا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾.

٢٥- الترغيب بذكر الله تعالى عند الاستواء على المركوب، وقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ الحديث (١).

٢٦- الحث على تعظيم الله تعالى وتقديسه، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وطاعته وشكره على تسخير هذه المركوبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾.

٢٧- الإقرار والاعتراف بأنه لولا تسخير الله تعالى لهذه المركوبات، ما استطاع العباد تسخيرها بأنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

٢٨- ضعف الإنسان وقصوره ونقصه أمام كثير من المخلوقات لولا لطف الله تعالى به.

٢٩- إثبات البعث والرجوع إلى الله تعالى، وتذكر الآخرة والرد إليه عز وجل في حال الركوب؛ بُعداً عن الكبر والخيلاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٣٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين.

\* \* \*

(١) سبق قريباً ذكره بتامه وتخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ أَلْخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْجِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكْبُتُ شَهَدَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ وَإِنَّا لَنَازِلِينَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ \* قُلْ أُولُو عِثْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ أَلْخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْجِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكْبُتُ شَهَدَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، أي: وجعل المشركون لله تعالى عز وجل من عباده ومخلوقاته بعضًا ونصيبًا بنسبتهم الولد إليه عز وجل، وقولهم: الملائكة بنات الله؛ كما قال اليهود: عزيز ابن الله، وقال النصارى: المسيح ابن الله. والولد جزء من والده، تعالى الله عن ذلك.

وبجعلهم بعض ما أعطاهم الله من الحروث والأنعام لطواغيتهم، وبعضها لله بزعمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَأَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾، أي: جنس الإنسان، ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لجحود بين الكفر والجحود لربه، أو لنعمه، إلا من هداه الله.

﴿أَمْ أُتَّخَذَ مِنَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَانِكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١٦)، «أم» في الموضعين: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أتخذ الله، أي: جعل ﴿مِنَّا يَخْلُقُ﴾، أي: من الذي يخلق ﴿بَنَاتٍ﴾؛ يعني: الملائكة؟ لأنهم يقولون: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم.

﴿وَأَصْفَانِكُمْ بِالْبَنِينَ﴾، أي: أخلصكم وخصكم بالبنين الذكور؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) [النجم: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) [النحل: ٥٧].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ﴾ وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين الذين نسبوا لله تعالى الولد وخصوه بالبنات، تعالى الله عن ذلك كله.

﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾، أي: بالذي ضربه للرحمن مثلاً، أي: بالأنثى التي نسبها للرحمن، حين زعم أن الملائكة بنات الله، أي: إذا أخبر بأنه ولد له بنت. ﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: صار وجهه مسوداً.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: كئيب حزين ممتلى غمًا، من شدة الغضب والغيط، والأنفة من كون المولود له أنثى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُّسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) [النحل: ٥٨، ٥٩].

قال ابن القيم: «يعني: أن أحدكم لا يرضى أن يكون له بنت، فكيف تجعلون لله ما لا ترضونه لأنفسكم؟» (١).

﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْغَلِيَةِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بضم الياء، وفتح النون، وتشديد الشين: ﴿يُنشِئُ﴾، وقرأ الباقر: بفتح الياء، وإسكان النون، وتخفيف

(١) «بدائع التفسير» ٤/ ١٣٢.

الشين: «يُنشأ».

والهمزة في قوله: ﴿أَوْ مَن يُنَشِّئُ﴾ للاستفهام الإنكاري، و«مَن»: اسم موصول في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره: يجعلون، أي: يجعلون الذي ينشأ في الحلية، أي: يربي في الزينة، وهي الأنثى التي تربي في الزينة تكميلاً وتجميلاً لها.

﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾، أي: في الخصومة ﴿غَيْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: غير مظهر لحجته ومفصح عنها، وهي الأنثى؛ لأن المرأة غالباً لا تستطيع الإبانة عن حجتها في الخصومة، وعاجزة عن الانتصار لنفسها. قال قتادة: «قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها، إلا تكلمت بالحجة عليها»<sup>(١)</sup>.

والمعنى: يجعلون من ينشأ في الحلية وهو في الخصاص غير مبين، وهي الأنثى، كالذكر الذي ليس كذلك؟

﴿وَجَعَلُوا أَمَلَتِيكَ الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير بنون ساكنة، ودال مفتوحة، من غير ألف: «عند» على أنه ظرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وقرأ الباقون بالباء وألف بعدها، وضم الدال: ﴿عَبْدٌ﴾، جمع: «عبد». والواو استثنائية، أي: وجعل المشركون الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاء، أي: اعتقدوا فيهم أنهم إناث، وقالوا: إنهم بنات الله. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بهمزتين، الأولى مفتوحة، والثانية مضمومة، مع إسكان الشين: «أَشْهَدُوا».

وقرأ الباقون بهمزة واحدة مفتوحة، مع فتح الشين: ﴿أَشْهَدُوا﴾. والاستفهام للإنكار، أي: أشهد هؤلاء المفترون الذين جعلوا الملائكة إنثاء، وحضروا خلقه عز وجعل الملائكة، وقد خلقهم إنثاء؟ والمعنى: أشهدهم الله خلق الملائكة؟ كما قال تعالى في سورة الصافات:

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٥٦٤/٢٠.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُوكَ ۗ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۗ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الصفات: ١٤٩-١٥٤].

﴿ سَتَكُنَّ شَاهِدَاتُهُمْ ﴾ بأن الملائكة إناث، أي: سيكتبها عليهم الحفظة الكرام الكاتبون؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٨].

﴿ وَيُسْئَلُونَ ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لهم. المراد: أنهم ما شهدوا وما حضروا خلق الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۗ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الصفات: ١٥٠] وقال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُوا الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف: ٥١].

﴿ وَقَالُوا ﴾ وقال المشركون الذين عبدوا الملائكة، وجعلوا لهم أصنامًا يعبدونها، يزعمون أنها على صور الملائكة:

﴿ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾، أي: لو شاء الرحمن وأراد كونًا ما عبدنا الملائكة. فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة والقدر، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلاً وشرعاً؛ كما في قولهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقولهم: ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل: ٣٥].

وقد جمعوا بفعلهم هذا بين عدد من الموبقات؛ الأولى: نسبتهم الولد لله عز وجل، وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

الثانية: عدم إنصافهم في نسبتهم له البنات خاصة؛ حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وآثروا أنفسهم بالبنين، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٦﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

الثالثة: عبادتهم الملائكة بلا حجة، ولا دليل، ولا برهان.  
الرابعة: احتجاجهم بالقدر، وزعمهم أن الله أقرهم على ذلك، ولو شاء لحال بينهم وبين عبادتهم.

والاحتجاج بالقدر باطل، فكونه تعالى قدر ذلك وشاءه لا حجة لهم فيه؛ لأن الله قدر وشاء كلاً من الإيمان والكفر، وأمر شرعاً بالإيمان به، وعبادته وحده، ونهى عن عبادة ما سواه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٤٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ [الزخرف: ٤٥].

﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾، أي: ما لهم بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، «من»: مؤكدة، أي: ما لهم بهذا القول - أي: بالرضا بعبادتهم الملائكة - أي علم؛ لأن العلم بأن الله شاءه لا يحصل لهم إلا بعد وقوع ذلك منهم - فضلاً من أن يكون رضىه - فلماذا لم يتركوا عبادتهم ويقولوا: إن الله شاء ألا نعبدهم؟  
﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، «إن»: نافية، بمعنى «ما»، أي: ما هم إلا يخرسون، أي: يحمنون ويتخرسون بلا علم، وبلا عقل.

قوله تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٣١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُهُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٥﴾

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٣١﴾﴾، لما نفى أن يكون قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ مستنداً إلى علم أو عقل،

انتقل إلى نفي أن يكون مستندًا إلى نقل.

قوله: ﴿أَمْ ءَأْتَيْنَتْكُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾، أي: بل آتيناكم كتابًا ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾، أي: من قبل القرآن، أو من قبل شركهم، يدعوهم إلى عبادة الملائكة وغيرها من المعبودات من دون الله.

﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾، أي: فهم بهذا الكتاب مستمسكون؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].  
أي: ليس الأمر كذلك، فلم يأتهم كتاب قبل القرآن، وقبل إشراكهم بالله يستمسكون به فيما هم عليه من الشرك، أي: فلم يعتمدوا في ذلك لا على عقل ولا نقل؛ ولهذا قال:

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ ءَأْتِيَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَأْتِرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [٢٢]، «بل»: للإضراب الانتقالي، فاحتجوا أولاً بالقدر، ثم انتقلوا للاحتجاج بالقدوة، فقالوا في تبريرهم لشركهم، وذكر ما اعتمدوا عليه في ذلك:

﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ ءَأْتِيَةٍ﴾، أي: على دين وملة وطريقة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِن هَذِهِ ءَأْتِيَتُكُمْ ءَأْتِيَةٌ وَءَأْتِيَتُكُمْ فَاَعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، أي: ملتكم ملة واحدة، وهي دين الإسلام.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ءَأْتِرِهِمْ﴾، أي: على خطاهم وعلى أثرهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، أي: متبعون ومقلدون لهم.

فليس لهم مستند فيما هم عليه من الشرك سوى التقليد الأعمى لأبائهم وأجدادهم، والتعصب لهم، ولو كان آباؤهم هم الآخرون لا مستند ولا دليل لهم لا من علم ولا من عقل ولا من نقل فيما هم عليه من الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولُو كُفْرٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولُو كُفْرٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ

إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ ﴿١٥﴾ [هود: ١٠٩].

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

في هذا تسلية له ﷺ، وبيان لإطباق المكذبين قبل قومه على هذا المسلك، وترديد هذه المقالة؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣].  
وفيه تهديد للمكذبين من قومه بالانتقام منهم.

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾، أي: مثل هذا الذي قيل لك يا محمد قيل لمن قبلك، أي: مثل ما قال المشركون من قومك من تقليدهم لأبائهم.

﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾، أي: منعموها وأهل الثراء فيها:

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾، أي: متبعون مقلدون.

أي: فالمشركون من قومك يا محمد ليسوا ببدع من هؤلاء، وليسوا بأول من قال هذه المقالة، بل كل القرى التي أرسلنا إليهم النذر قال مترفوها هذه المقالة.

﴿قُلْ أَوْلُو جِحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن

عاصم: ﴿قُلْ﴾ على الخبر، وقرأ الباقون: «قُلْ» على الأمر.

وقرأ أبو جعفر: «جِحْتَكُمْ» بنون وألف على الجمع، وقرأ الباقون: ﴿جِحْتِكُمْ﴾

بالتاء مضمومة على الإفراد.

والاستفهام في قوله: ﴿أَوْلُو جِحْتِكُمْ﴾ تقرير مشوب بالإنكار، أي: قال الرسول للمشركين

من قومه: أتقلدون آباءكم ولو جحيتكم بأهدى من الذي وجدتم عليه آباءكم؟!!

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾، أي: إنا بالذي أرسلتم به أنت ومن قبلك كافرون،

أي: جاحدون له، غير مؤمنين به- وهذا دليل على إثارهم للباطل والهوى، على الحق

والهدى، وعلى شدة عنادهم ومكابرتهم للحق، ولمن جاء به، وشدة تعصبهم وتقليدهم لما

عليه آباؤهم، ولو كان آباؤهم على ضلال، لا يعقلون شيئاً، ولا يعلمون، ولا يهتدون.

وفي قوله: ﴿أُولَئِكَ جَحَّتْ كُرْهُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَهُمْ﴾ تنزل معهم؛ إذ لا شك أن ما جاءهم به هو عين الهدى، وليس فقط أهدي مما كان عليه آباؤهم؛ لأن آباءهم ليسوا على هدى بل على باطل وضلال، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَٰكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

﴿فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، أي: فعاقبناهم بأنواع العقوبات بسبب تكذيبهم وكفرهم.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: فانظر أيها المخاطب كيف كانت عاقبة تكذيبهم وكفرهم، وكيف كانت نهايتهم المؤلمة وهي إهلاكهم بأنواع العقوبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَفْنَا وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

### الفوائد والأحكام:

١- ذم المشركين في نسبتهم الولد إلى الله تعالى، وجعلهم له نصيباً من عبادة ومخلوقاته، وكفرهم البين بالله تعالى، وجحودهم لنعمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

٢- إثبات عبودية الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.

٣- أن الولد جزء من والده؛ ولهذا قُدِّم الولد على الوالد في التعصيب في الميراث، فإذا هلك هالك عن أبيه وابنه فلا يبيعه السدس فرضاً، والباقي للابن تعصيباً، فسهم الأب واحد من ستة والباقي خمسة أسهم للابن؛ كما أنه يجوز للأب أن يملك من مال ابنه ما لا يضره، وهذا وذاك؛ لأن الولد جزء من والده.

٤- أن من طبيعة الإنسان إلا من هدى الله الكفر بربه وجحود نعمه؛ مما يوجب الحذر من ذلك.

٥- الإنكار على المشركين جورهم في القسمة بعد أن نسبوا الولد لله - تعالى الله عن

ذلك - بجعل البنات له، وتخصيص أنفسهم بالبنيان؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَلْخَذَ مِنَّا يَخْلُقُ

بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾.

٦- شدة امتعاض واستياء من وُلدت له أنثى من هؤلاء الذين ينسبوننا لله تعالى، واسوداد وجهه، وامتلاء قلبه حزنًا وغمًا من شدة الغضب والغيط، والأنفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

٧- تأثر ظاهر جسم الإنسان وبشرته بما يعتلج في قلبه من فرح وسرور، وضد ذلك.

٨- إثبات اسم الله «الرحمن»، وأنه سبحانه ذو الرحمة الذاتية الثابتة له عز وجل، وذو الرحمة الفعلية التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ﴾، وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ﴾.

٩- حكمة الله تعالى في المفاضلة بين الجنسين الذكر والأنثى في القدرات البدنية، والعقلية، والمشاعر، وغير ذلك، وجعل الذكر من حيث العموم أكمل الجنسين في كثير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْهَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

وكما قالت امرأة عمران: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

١٠- إباحة التحلي بأنواع الحلي كلها للمرأة من الذهب والفضة وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْهَلِيَّةِ﴾.

١١- أن المرأة من حيث العموم قد لا تستطيع الإبانة عن حجتها في الخصومة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. وهذا لا يمنع أن يكون من بين النساء من هي أفصح من كثير من الرجال؛ كما هو مشاهد.

١٢- إبطال دعوى المساواة بين الرجل والمرأة، وما جبل عليه كل منهما، ولو جعلها الله على السوية في القدرات كلها ما التأما ولا انقاد كل منهما للآخر وأنس به، فلا يجتمع سيفان في غمد، ولا أميران في بلد واحد، وهذا من السنن الكونية.

١٣- زعم المشركين واعتقادهم ودعواهم أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً﴾.

١٤- إنكاره تعالى عليهم هذا الزعم الكاذب، وأنهم لم يشهدوا ولم يحضروا خلق الملائكة، فكيف يزعمون هذا الزعم الباطل؟ لقوله تعالى: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾.

١٥- تهديدهم بكتابة شهاداتهم، وسؤالهم عنها، ومعاقبتهم عليها؛ لقوله تعالى:

﴿سَتَكُنُّبُ شَهَدَتُهُمْ وَسُئِلُونَ﴾.

١٦- إثبات كتابة أعمال العباد.

١٧- إثبات البعث والمعاد والحساب، والجزاء على الأعمال.

١٨- احتجاجهم بالقدر، وأن الله لو شاء ما عبدوا الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا

لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾.

١٩- بطلان حجتهم هذه؛ لأنه لا حجة لأحد بالمشيئة والقدر، فكل ما يجري في

الكون هو مما شاءه الله وقدره، بما في ذلك الشرك والتوحيد، والكفر والإيمان، وغير ذلك، فلماذا لم يتركوا عبادة الملائكة وغيرها من المعبودات، ويقولوا: لو شاء الله ما

تركنا عبادتهم، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

٢٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وتقديره مقادير كل شيء.

٢١- أن هؤلاء المحتجين بالقدر لا علم عندهم؛ لأنهم احتجوا بالمشيئة على ما حصل

منهم بعد وقوعه، فعلمهم لاحق، وليس سابق، وإنما يعتمدون على الكذب والتخمين.

٢٢- الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يشاء أفعال العباد، وإنهم

مستقلون بخلق أفعالهم ومشيئتها.

٢٣- أن الله لم يؤتهم كتاباً قبل القرآن، وقبل شركهم يدل على جواز ما هم عليه

من الشرك، فيدعوا أنهم به مستمسكون، ولم ينزل على العرب كتاباً سوى القرآن؛ لقوله

تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

فلا حجة لهم فيما هم عليه لا من علم، ولا عقل، ولا نقل.

٢٤- أن قصارى ما لديهم هو التعصب لأبائهم، والتقليد الأعمى لهم فيما هم

عليه من الشرك والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ

ءَاثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٢٥- تسليته ﷺ ببيان أن هذا هو ديدن المكذبين للرسول: التعصب لأبائهم،

وتقليدهم فيما هم عليه من الجهل والضلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي

قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

٢٦- ذم الترف، ووجوب الحذر منه؛ لأنه يحمل أصحابه على رد الحق، وعلى الأشر والبطر والكفر.

٢٧- خطر التعصب للأباء، وتحريم التقليد لهم أو لغيرهم على جهل وضلال؛ لأنه كان سبب ضلال كثير من الخلق.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «أن المنافق أو المرتاب عندما يسأل في قبره يقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»<sup>(١)</sup>.

٢٨- الإنكار على هؤلاء المقلدين لأبائهم: كيف يتركون ما جاءهم من الحق على لسان الرسول ﷺ، ويتبعون آباءهم على جهل وضلال؟ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَوْلَوْا جِحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ ﴾.

٢٩- جواز المفاضلة بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل، والتنزل مع الخصم؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَوْلَوْا جِحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ ﴾. ومعلوم أنه ليس فيما هم عليه شيء من الفضل البتة.

٣٠- شدة ما هم عليه من العناد والمكابرة للحق، ولمن جاء به، وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾.

٣١- إقرارهم برسالة الرسل مع مخالفتهم لهم؛ لقولهم: ﴿ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾.

٣٢- انتقام الله عز وجل من الأمم السابقة، بسبب تكذيبهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، وفي هذا تهديد ووعيد للمكذبين للنبي ﷺ أن يصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم.

٣٣- وجوب النظر والتأمل فيما حل بالمكذبين السابقين من العقوبات، وأخذ العظة والعبرة من ذلك، والحذر مما حل بهم، فالسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾.

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٧١﴾ أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتِ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُفُفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٧٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِفُونَ ﴿٧٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٧٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾.

لما ذكر ما عليه المشركون من التعصب لأبائهم، والتقليد لهم على جهل وضلال؛ كحال المكذبين قبلهم، أتبع ذلك بذكر من ينبغي أن يتخذ أسوة، وهو إبراهيم عليه السلام في براءته من أبيه وقومه لما أصروا على الاستمرار على الشرك.

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى: «حين»، متعلق بفعل محذوف، أي: واذكر إذ قال إبراهيم خليل الرحمن، وإمام الحنفاء، لأبيه آزر، وقومه المشركين.

﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، أي: إنني بريء على الدوام من الذي تعبدونه من دون الله من الأصنام التي تنحتونها وتعبدونها؛ كما قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

فلم يقلد أباه وقومه على ما هم عليه من الشرك والضلال، بل أعلن لهم البراءة مما هم عليه من الشرك، بل منهم ما داموا على الشرك؛ كما قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن

دُونَ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴿٤﴾ [المتحنة: ٤].

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا الذي خلقني، وهو ربي عز وجل الذي يستحق العبادة دون سواه، فإني أعبده وحده وأتولاه.

﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِين﴾ الفاء: تعليلية، والسين: للاستقبال، أي: فإنه يأذنه وتوفيقه سيهديني إلى العلم بالحق، والعمل به.

﴿وَجَعَلَهَا﴾، أي: وجعل عز وجل شرعاً كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وعبادته تعالى وحده لا شريك له، وموالاته وحده، والبراءة مما سواه:

﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾، أي: دائمة ﴿فِي عَقِيهِ﴾، أي: في ذرية إبراهيم عليه السلام.

أي: عهد عز وجل إليهم بها، يقتدي به عليه السلام فيها، ويسير عليها من هداه الله من ذريته عليه السلام، ويتوارثها الأنبياء من ذريته وأتباعهم، بعضهم عن بعض، إلى يوم القيامة؛ أسوة به؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، ودعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقيل: الضمير المستتر في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعود إلى إبراهيم، بمعنى أنه عليه السلام وصى بها بنيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢] والأظهر القول الأول.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الضمير يرجع إلى عقبه، أي: لأجل أن يرجعوا إليها، ويتمسكوا بها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾﴾ ولَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَّكُونَ ﴿٢٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُنَّا لَمَّا مَتَّعُ

الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل تمتعت هؤلاء المشركين وآبائهم بأنواع النعم، وأمهلتهم ولم أعاجلهم بالعقوبة - مع ما هم عليه من الشرك والكفر - فتطاول عليهم العمر، فتمادوا في طغيانهم وضلالهم.

﴿حَقَّقْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾، أي: إلى غاية أن جاءهم الحق؛ يعني: القرآن الكريم، ووصف القرآن بـ«الحق»؛ لأنه أنزل ملابسًا للحق في طريق وصوله إلى النبي ﷺ، وجاء مشتملاً على الحق في أحكامه، وعلى الصدق في أخباره؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأحكام.

﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ورسول بين الرسالة، وهو محمد ﷺ، مبین للقرآن بما أوحاه إليه من السنة، ومبين الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

ومبين الأحكام الشرعية؛ من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الواو: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين»، متضمن معنى الشرط، والمراد بـ«الحق»: القرآن.

﴿قَالُوا﴾ مكابرة وعنادًا، وبغيًا وعدوانًا: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾؛ كما قال الوليد بن المغيرة لما قرأ عليه الرسول ﷺ القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

﴿وَأَنَابَهُ كُفْرُونَ﴾، أي: جاحدون منكرون له.

﴿وَقَالُوا﴾ معطوف على ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾، أي: وقالوا أيضًا معترضين على الله في اصطفائه محمدًا ﷺ للرسالة، ومقترحين على الله بعقولهم الفاسدة:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾، أي: هلاً نزل هذا القرآن ﴿عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ﴾؛ يعنون: مكة والطائف، ﴿عَظِيمٍ﴾، أي: ذي مكانة عظيمة، أي: لكننا قبلناه، ولكنه لم ينزل على رجل من القريتين عظيم، فلا نقبله.

قيل: أرادوا بالرجلين: الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفي، وقيل غير ذلك. وفي هذا سوء أدب منهم مع الله تعالى، واعتراض على اختياره وحكمه، واحتقار

للنبي ﷺ، وتنقص له - بأبي وأمي - وهو أفضل الخلق على الإطلاق، وسيد ولد آدم. وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

كما أن في هذا إبطالاً لقولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾؛ لأنهم هنا أقرروا بأنه قرآن، وإنما اعترضوا على المنزل عليه، وهو النبي ﷺ.

﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الاستفهام: للإنكار، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: أهم يقسمون رحمة ربك يا محمد؟ يعني: النبوة؛ لأنها أعظم رحمة رحم الله بها العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والمعنى: ليسوا هم الخزنة لرحمة ربك يقسمونها على ما يريدون، فيعطوا النبوة لمن شاؤوا، ويمنعوها عن من شاؤوا.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: أرزاقهم وما فيه عيشهم في الحياة الدنيا.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾، أي: فضلنا بعضهم على بعض.

﴿وَدَرَجَاتٍ﴾، أي: منازل ورتب متفاوتة؛ في أرزاقهم، وأحوالهم، وقدراتهم، وغير ذلك.

فهذا غني وهذا فقير، وهذا قوي وهذا ضعيف، وهذا صحيح وهذا مريض، وهذا عالم وهذا جاهل، ونحو ذلك.

﴿لِيَسْخَرُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، أي: لحكمة عظيمة، وهي أن يجعل بعضهم بعضاً سخرياً، أي: ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال، والحرف والصنائع؛ لاحتياج بعضهم إلى بعض؛ كما قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة      بعض لبعض وإن لم يشعروا خدام<sup>(١)</sup>

ولو لم يجعل الله بعضهم فوق بعض، ويسخر بعضهم لبعض؛ لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

(١) البيت لأبي العلاء المعري. انظر: «ديوانه» (ص ١٢٠٣)، «السحر الحلال» (ص ١٠٢).

وإذا كان الله عز وجل قسم بينهم معيشتهم وأرزاقهم الدنيوية، وفاوت بحكمته بينهم في ذلك، فكيف يتناولون بالاعتراض على الله في قسمة رحمته التي هي النبوة، واصطفائه من خيرة عباده من يعلم أنه أهل لها، أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأفضلهم خلقاً، ظاهراً وباطناً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً ومنبتاً.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ بالتوفيق للإيمان به، وطاعته، والفوز بجنته.

﴿خَيْرٌ﴾ خيرية مطلقة من جميع الوجوه.

﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: خير من جمعهم، أو من الذي يجمعونه من حطام الدنيا الفاني؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ﴾، «لولا»: حرف شرط غير جازم، و«أن» والفعل «يكون» في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ بحذف مضاف، أي: لولا كراهة كون الناس.

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: جماعة واحدة على الكفر، أي: لولا كراهة أن يجتمع الناس كلهم على الكفر حباً للمال والدنيا، أو اعتقاداً أن إعطاءنا المال والدنيا دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر.

﴿لَجَعَلْنَا﴾ اللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لجعلنا كوننا، وصيرنا.

﴿لَمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾، «من»: موصولة، أي: للذي يكفر بالرحمن.

﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح السين وسكون القاف: «سُقْفًا»، وقرأ الباقون بضمهما: ﴿سُقْفًا﴾، واللام: رابطة لجواب «لولا».

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾: بدل من قوله: ﴿لَمَنْ﴾، أي: لبيوت من يكفر بالرحمن.

﴿سُقْفًا﴾: مفعول أول لـ «جعل»، وهو جمع: «سُقْف»، وهو أعلى البيت وغطاؤه.

﴿مِّنْ فِضَّةٍ﴾، أي: مبنية من فضة، وهي المعدن الثمين المعروف، وأحد النقيدين:

الذهب والفضة.

﴿وَمَعَارِجَ﴾ معطوف على «سُقْفًا»، أي: ومعارج من فضة، أي: ومساعد وسلام ودرجًا من فضة.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي: يصعدون ويعلون إلى أعلى بيوتهم وسطوحها؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَطْنَعُوهَا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: يعلوه.

﴿وَلِئُيُوتِيَهُمُ أَبْوَابًا﴾ معطوفة على ﴿لِئُيُوتِيَهُمُ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ﴾، أي: ولجعلنا لبيوتهم أبوابًا من فضة، أي: مداخل وأغلاقًا لبيوتهم مصنوعة من فضة.

﴿وَسُرْرًا﴾ معطوف على ﴿أَبْوَابًا﴾، أي: وسررًا من فضة. ويجوز أن يكون «سررًا» مفعول به لفعل محذوف تقديره: «جعلنا»، فتكون الجملة معطوفة على «جعلنا» الأولى.

﴿عَلَيْهَا يَتَكُونُ﴾ نعت لـ«سررًا».

﴿وَزُخْرَفًا﴾ الواو: عاطفة، و«زخرفًا»: مفعول به لفعل محذوف، تقديره: «جعلنا»، معطوف على جواب الشرط: «جعل»، أي: وجعلنا زخرفًا، أي: ذهبًا، أو أنواع الزخارف الدنيوية.

أي: لولا لطفه عز وجل ورحمته بعباده، وكراهية أن يتسارعوا إلى الكفر والمعاصي، ويجتمعوا على ذلك إثارة للحظوظ الدنيوية، أو اعتقادًا أن ذلك دليل رضا الله، لولا ذلك لأعطيناهم كل ما ذكر، ووسعنا عليهم الدنيا توسيعًا عظيمًا.

﴿وَإِنْ كُنَّ دَلِيلًا﴾ الواو: استثنائية، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: وما كل ذلك، والإشارة لكل ما ذكر من السقف، والمعارج، والأبواب، والسرر من الفضة، والزخرف.

﴿لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قرأ عاصم وحزرة وهشام عن ابن عامر: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم، وهي للحصر، أي: وإن كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا.

وقرأ الباقر بتخفيف الميم: «لَمَّا»، فتكون «إن» مخففة من «إن» المشددة التي للتوكيد، وتكون اللام الداخلة على «لَمَّا»: للتوكيد، و«ما»: زائدة للتوكيد أيضًا، أي: وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا.

والمعنى: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية الحقيرة عند الله تعالى، يُتمتع به ثم يزول، وهو من تعجيل حسناتهم بما وسع عليهم في الدنيا؛ ليوافوا الله وليس لهم عنده حسنة.

قال ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له. أي: والآخرة والجنة ونعيمها عند ربك للمتقين خاصة، الذين اتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

عن عمر رضي الله عنه؛ أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على رمال<sup>(٣)</sup> حصير قد أثر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان ﷺ متكئاً فجلس، وقال: «أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟!» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا». وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»<sup>(٤)</sup>.

وقال ﷺ: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها؛ فإنها لهم في

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر ٢٨٠٨، وأحمد ٣/١٢٣، ١٢٥، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، ما جاء في هوان الدنيا على الله ٢٣٢٠، وابن ماجه، باب مثل الدنيا ٤١١٠، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

(٣) أي: نسج.

(٤) أخرجه البخاري في المظالم ٢٤٦٨، وفي تفسير سورة التحريم ٤٩١٣، ومسلم في الطلاق، الإيلاء واعتزال النساء ١٤٧٩، والترمذي في التفسير ٣٣١٨.

الدنيا، ولنا في الآخرة»<sup>(١)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

- ١- فضيلة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وثناء الله تعالى عليه، وامتداحه له في براءته من أبيه وقومه ومعبوداتهم لما أصروا على الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾<sup>(٢٦)</sup>.
- ٢- شدة إخلاصه عليه السلام لربه، وعبادته له وحده لا شريك له؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾.
- ٣- وجوب البراءة من الشرك وأهله، وأن الشرك والتوحيد لا يجتمعان أبدًا.
- ٤- إثبات أنه عز وجل هو الخالق وحده؛ لقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾.
- ٥- أن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية.
- ٦- قوة رجاء إبراهيم عليه السلام، وحسن ظنه بربه وهدايته له؛ لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾<sup>(٢٧)</sup>.
- ٧- أن الهداية والتوفيق بيد الله تعالى، فينبغي اللجوء إليه وحده، وسؤاله الهداية والتوفيق، ورجاؤه، وحسن الظن به عز وجل.
- ٨- فضل الله تعالى على إبراهيم عليه السلام وذريته، في جعله كلمة التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى، والبراءة من الشرك وأهله كلمة باقية فيهم إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾.
- ٩- أن الله عز وجل جعل كلمة التوحيد في ذرية إبراهيم عليه السلام؛ لأجل أن يرجعوا ويتوبوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة، الأكل في إناء مفضض ٥٤٢٦، ومسلم في اللباس والزينة، تحريم استعمال إناء الذهب والفضة ٢٠٦٧، وأبو داود في الأشربة ٣٧٢٣، والنسائي في الزينة ٥٣٠١، والترمذي في الأشربة ١٨٧٨، وابن ماجه في الأشربة ٣٤١٤، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

١٠- وصية إبراهيم عليه السلام بكلمة التوحيد بنيه، ودعاؤه لهم بالتمسك بها، ومجانبة الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨)، وقوله عليه السلام: ﴿وَأَجْبُنِي وَيَتَى أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

١١- اغترار المشركين المكذبين بما متعهم الله به من النعم، وما أغدق عليهم من الخيرات والمنن، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، وتماديهم في الغي والطغيان والضلال حتى جاءهم الحق، بإنزال القرآن، وبعثه النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (٣١).

١٢- أن القرآن الكريم حق، وجاء ملابسًا للحق، ومشتملًا على الحق.

١٣- أن الرسول ﷺ بيّن الرسالة، مبين للقرآن، ومبين للحق من الباطل، والهدى من الضلال، وللأحكام الشرعية.

١٤- شدة مكابرة المشركين وعنادهم، وبغيهم وعدوانهم؛ لوصفهم القرآن بالسحر، وكفرهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٠).

١٥- سوء أدبهم مع الله، واعتراضهم عليه سبحانه باصطفائه محمدًا ﷺ، واقتراحهم على الله عز وجل بعقولهم الفاسدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١).

١٦- أن القرية تطلق على المدينة الكبيرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣].

١٧- تناقضهم؛ فمرة يصفون القرآن بالسحر، ومرة يعترضون على من أنزل عليه القرآن، وفحوى هذا: أنهم يعترفون بأنه قرآن وليس بسحر.

١٨- عظم جهلهم وسفاههم، وحسدهم وحقدهم؛ حيث اعتراضوا على إنزال القرآن على محمد ﷺ احتقارًا وتنقصًا له ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأفضل الخلق وأزكاهم على الإطلاق من جميع الوجوه؛ في أخلاقه وصفاته، وشأله الخلقية والخلقية، الظاهرة والباطنة، وفضلوا عليه من لا وزن له عند الله، من الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

قال السعدي<sup>(١)</sup>: «وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه إلا من ضل وكابر، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟».

١٩- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته فوق خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ

هَذَا الْقُرْآنُ﴾.

٢٠- إثبات أن القرآن منزل غير مخلوق، والرد على القدرية.

٢١- إنكاره عز وجل على المشركين اعتراضهم على اصطفاؤه عز وجل محمداً ﷺ

لِلرَّسَالَةِ، وإنزال القرآن عليه، واقتراحهم من ليس أهلاً لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

٢٢- التعجب من تطاولهم في الاعتراض على قسمته عز وجل النبوة، وهم

عاجزون عن قسمة معيشتهم وجلبها؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَمَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية.

٢٣- أن القرآن الكريم رحمة من الله تعالى، أنزله على رسوله ﷺ وعلى عباده، بل

هو أعظم الرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷻ، وتشريفه بإضافة اسم الرب أو وصفه

إلى ضميره ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

٢٥- أن الرحمة كلها بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بفضله وعدله وحكمته.

٢٦- أن الأرزاق كلها من الله، وهو الذي قسم بين العباد معيشتهم في الدنيا،

بحكمته وعدله وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٢٧- حكمة الله تعالى في المفاضلة بين العباد في أرزاقهم ومعاشهم وأحوالهم؛

ليجعل بعضهم بعضاً سخرياً في الأعمال والصناعات، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى:

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/ ٦٤٤.

٢٨- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيَّةً﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا﴾ الآية.

٢٩- أن الناس لو كانوا كلهم طبقة واحدة، وعلى مستوى واحد من الغنى أو الفقر، ما سخر بعضهم بعضاً، وما خدم بعضهم بعضاً، ولما استقام أمرهم، وانتظمت أحوالهم، ولما عمر الكون.

٣٠- أن رحمة الله تعالى بالتوفيق للإيمان به وطاعته، والفوز بجنته، خير مطلقاً من جميع ما يجمعه الناس من حطام الدنيا الفاني، وأن النعمة الدينية خير من النعمة الدنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٣١- أن الجنة رحمة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْتَيَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، أي: في جنته.

وفي الحديث القدسي: قوله عز وجل للجنة: «أنت الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء»<sup>(١)</sup>.

٣٢- حقارة الدنيا، وكل ما يجمع منها، وأنها لا تعدل شيئاً بالنسبة للآخرة وما عند الله من الرحمة والجنة.

٣٣- أن إعطاء الله الدنيا والمال ليس دليلاً على رضاه، ولولا لطفه بعباده ورحمته بهم لثلا يجتمعوا على الكفر؛ حباً للدنيا، أو اعتقاداً بأن إعطاء الله المال دليل محبته، لزداد في زخرفها لكل من يكفر به؛ لهوانها وهوانهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [٣٣] وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَلَّمُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا﴾.

٣٤- أن الله لو وسع الدنيا على الناس، وأغدق عليهم من ملذاتها وشهواتها وزينتها وزخارفها أكثر من حاجتهم، لطفوا وبغوا وتكالبوا على الكفر، وتسارعوا إليه،

(١) سبق تخرجه.

- واجتمعوا عليه؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ مُسْتَقْبِرًا ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].
- ٣٥- إثبات اسم الله «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة لله تعالى، رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من عباده.
- ٣٦- أن كل ما يعطاه الناس من زينة الدنيا وزخارفها وملذاتها ونحو ذلك، ما هو إلا متاع الحياة الدنيا يزول بزوالها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ دَلِيلٍ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.
- ٣٧- أن الدار الآخرة وما فيها من الجنان والنعيم، إنما هي للمتقين خاصة دون غيرهم، الذين اتقوا الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.
- ٣٨- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.
- ٣٩- الترغيب بتقوى الله تعالى، والحث عليها.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنُ الْقُرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرًا فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْتَهُمْ مُنْقِضُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَسِيكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّا كَلَّمْنَا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجْمَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ءِالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾، لما ذكر خطر الدنيا وزخارفها، وأن فتنتها قد تؤدي إلى الكفر، حذر وتوعد من ينشغل بها ويعرض عن ذكر الله.

قوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾، أي: يتعمى ويعرض ويصد عن ذكر الله تعالى: القرآن الكريم الذي هو أعظم رحمة أنزلها الله تعالى على العباد، ورحمهم بها، ويعرض ويغفل عن ذكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد هنا: عشا البصيرة».

﴿نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا﴾ قرأ يعقوب: «يُقَيِّضُ» بالياء، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نُفِضَ﴾، أي: نهيى له، ونسلط عليه شيطاناً مريداً.

﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾: جملة جواب الشرط «من»، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية، والضمير في قوله: ﴿فَهُوَ﴾ يعود إلى الشيطان، والضمير في قوله: ﴿لَهُ﴾ يعود إلى المعرض عن ذكر الله.

أي: فهو له مقارن، مصاحب على الدوام، يؤزه إلى المعاصي أزاً؛ كما قال تعالى:

(١) في «تفسيره» ٧/ ٢١٤.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿﴾ وقيل: ﴿﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٥].

﴿وَأِيَّتَهُمْ﴾، أي: وإن هؤلاء القرناء من الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾، اللام: للتوكيد، أي: ليصرفون من سلطوا عليهم ممن تعاموا عن ذكر الله وأعرضوا عنه.

﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾، أي: عن الصراط المستقيم، والطريق القويم.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾، أي: ويظن هؤلاء الذين صُدُّوا عن السبيل بسبب تزوين قرنائهم من الشياطين لهم الباطل وتحسينه، وتزهيدهم بالحق وتشويهه، وبسبب إعراضهم عن ذكر الله.

﴿أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾، أي: ويظنون أنهم على هدى، وأنهم على الحق.

وهذه قاصمة الظهر، والمصيبة الكبرى، والبلية العظمى، أن يكون الإنسان على ضلال، ويظن أنه على هدى، فيستمرئ ما هو عليه من الضلال، ولا يطرق باب الهدى، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وقد أحسن القائل:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم بألف بعد الهمزة على التشنية: «جاءنا»، أي: المعرض عن ذكر الله، وقرينه من الشياطين. وقرأ الباقون بغير ألف على الإفراد: ﴿جاءنا﴾، أي: حتى إذا وافانا يوم القيامة المعرض عن ذكر الله، الذي سلط عليه قرينه من الشياطين بسبب إعراضه.

﴿قَالَ﴾، أي: قال هذا المعرض مخاطباً لقرينه متبرئاً منه، متحسراً متندماً: ﴿يَنْلَيْتَ

بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾.

«يا»: للتنبية، و«ليت»: للتمني، أي: أتمنى أنه كان بيني وبينك أيها القرين.  
﴿بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي: بعد ما بين المشرق والمغرب. وإنما يقال: «المشركان» من باب التغليب؛ كما يقال: «القمران» للشمس والقمر، و«العمران» لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ونحو ذلك.

وقيل: المراد مشرقي الشمس في الشتاء والصيف؛ لأن بينهما مسافة بعيدة جداً.  
والمعنى: ليت أني كنت بعيداً عنك كل البعد؛ حتى أسلم من صدك إياي عن سبيل الحق، وغرورك لي.

﴿فَبئْسَ الْقَرِينُ﴾، أي: فبئس القرين كنت لي في الدنيا؛ صددتنني عن الحق، وأضللتني وأغويتني حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.  
فكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لِيَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، بأن يُخَفَّفَ العذاب عنكم. والخطاب للذين تعاموا عن ذكر الله، ولقرنائهم الذين صدوهم عن السبيل.  
﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ بكفركم وضلالكم أنتم وقرنائكم، ﴿أَتَكْفُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.  
قرأ ابن عامر بكسر الهمزة على الاستئناف: «إِنَّكُمْ»، وقرأ الباقر بفتحها: ﴿أَتَكْفُرُ﴾.

والمصدر المؤول: ﴿أَتَكْفُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ في محل رفع فاعل ﴿يَنْفَعَكُمُ﴾، أي: ولن ينفعكم اشتراككم أنتم وقرنائكم جميعاً في العذاب في النار؛ لأن كلاً منكم له نصيبه من العذاب، ولا يخفف عذاب فريق منكم عذاب الفريق الآخر.  
فأنتم لكم نصيبكم من العذاب بسبب إعراضكم عن ذكر الله، وطاعة قرنائكم في الضلال، وهم لهم نصيبهم من العذاب بسبب ضلالهم وإضلالهم لكم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا

فَعَلَّمُونَ ﴿ [الأعراف: ٣٨].

فلا يتسلى أحد منكم بمشاركة الآخر له بالعذاب؛ كما هو حال أهل المصائب في الدنيا، يتسلى المصاب بمصاب غيره؛ كما قالت الخنساء<sup>(١)</sup>:

ولولا كثرة الباكين حوي على إخوانهم لقتلت نفسي  
وما ييكن مثل أخي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ الاستفهام: للتعجب والنفى، أي: أفأنت يا

محمد تسمع الصم الذين لا يسمعون، ﴿أَوْ تَهْدِي أَعْمَى﴾ الذين لا يبصرون؟

أي: أنك يا محمد لا تستطيع إسراع الصم عن سماع الحق إسراع تدبر وفهم وانتفاع، ولا هداية العمي عن طريق الحق بقلوبهم وبصائرهم، أي: لا تستطيع إسراعهم الحق سماع انتفاع، ولا هدايتهم إليه هداية قبول واتباع.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الواو: عاطفة، و«مَنْ»: اسم موصول في محل نصب معطوف على «العمي»، أي: أو تهدي من كان في ضلال مبين؟ أي: الذي كان في ضلال عن الحق بين ظاهر.

أي: أنك لا تستطيع هداية من هو أصم أعمى لا يسمع الحق، ولا يبصره، ولا يفقهه، ومن كان في ضلال بين ظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتِيٌّ فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتِيٌّ فَهْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وفي هذا تسلية له ﷺ، فلا ييأس ولا يحزن على ضلال من ضل، ممن أصم الله أذنانهم، وأعمى أبصارهم عن الحق، وختم على قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

أي: أن هؤلاء ليس لهم إلا العذاب عاجلاً أو آجلاً؛ ولهذا قال:

﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ

(١) انظر: «ديوانها» (ص ٨٤).



الفاء: استئنافية، و«إن»: شرطية، و«ما»: مؤكدة، والفاء: رابطة لجواب الشرط في الجملتين، و«أو»: عاطفة، أي: ﴿فَمَا نَذَهَبَنَّ بِكَ﴾، أي: نتوفيك قبل تعذيبهم، ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ لا محالة، أي: فلا بد من الانتقام منهم وإن ذهب أنت، وفي هذا تأكيد لعقابهم وإن توفاه الله قبل ذلك.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾، أي: أو نرينك الذي وعدناهم، أي: الذي توعدناهم به من العذاب بالانتقام منهم في حياتك.

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ الاقتدار: شدة القدرة وتمامها، أي: فإننا عليهم قادرون تمام القدرة، فيما أن نأخذهم بالعذاب العاجل، أو بالعذاب الآجل؛ كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وكانه ﷺ والمؤمنون استبطؤوا تأخير الانتقام من المشركين. وقد أراه الله عز وجل في حياته ما أقر عينه، وشفى صدور المؤمنين، وأذهب غيظ قلوبهم، في بدر الكبرى؛ حيث نصرهم الله تعالى، فقتلوا من صناديد المشركين سبعين، وأسروا سبعين، وأظهر الله دينه، وأعلى كلمته، وتوالت الهزائم على المشركين، إلى أن توج ذلك بفتح الله عز وجل له ﷺ مكة، وتمكينه من رقاب المشركين، فمَنَّ عليهم صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم: «اذهبوا؛ فأنتم الطلقاء»<sup>(١)</sup>.

وليس في قوله ﷺ في الحديث: «أنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون»<sup>(٢)</sup>، ما يدل على أن الله لم ير نبيه ﷺ ما وعده من الانتقام من المشركين في حياته؛ لأن هذا الحديث فيه: «أنه ﷺ أمانة لأصحابه»، أي: أمانة لهم من الفتن. والآية إنما هي في المشركين المستحقين للانتقام والعذاب، وقد انتقم الله منهم في

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٠/٩) (١٨٢٧٦)، وفي «معرفة السنن والآثار» (٢٩٣/١٣).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣١، وأحمد ٤/٣٩٨-٣٩٩، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

بدر وغيرها، وأراه ذلك.

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾  
الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«استمسك»: أبلغ من «أمسك»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى - غالبًا.

أي: فاستمسك بالذي أوحى إليك من القرآن والسنة، وخذ به واتبعه، عملاً به، ودعوة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [الأحزاب: ٢].

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ الجملة: تعليلية؛ لتثبته ﷺ، أي: لأنك على صراط مستقيم، أي: على طريق عدل قويم، لا اعوجاج فيه، موصل إلى الله، وإلى دار كرامته؛ كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩].

﴿ وَإِنَّهُ ﴾؛ يعني: القرآن الكريم ﴿ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنه لتذكير لك ولقومك، أي: عظة وعبرة لكم، وتذكير لكم بالأحكام والأوامر والنواهي؛ كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠) [الأنبياء: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وأيضاً شرف لك ولقومك؛ لأنه أنزل بلغتكم التي هي أفصح اللغات وأوسعها، فكان به شرفها وخلودها، وشرفكم.

﴿ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ عن هذا القرآن، وعن الاستجابة له، والعمل به، والدعوة إليه، فالمسؤولية عليكم أعظم من غيركم.

﴿ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي بتخفيف الهمزة: «وَسَلِّ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ وَسَلِّ ﴾.

أي: واسأل جميع الذين أرسلنا قبلك من رسلنا؛ لتقوم الحجة على المشركين، أي: استقرئ شرائع من أرسلنا من قبلك من رسلنا.

﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ الاستفهام للنفي، أي: أجعلنا غير الرحمن آلهة يعبدون؟

أي: أن جميع الرسل لم يقرؤا الشرك بالله، بل دعوا إلى ما دعوت إليه من توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ونهوا عن الشرك وعبادة الأصنام والأنداد.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فقد قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وهكذا قال هود وصالح وشعيب عليهم السلام لأقوامهم، وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

فلا مستند للمشركين في إشراكهم من دون الله، لا من عقل، ولا نقل.

#### الفوائد والأحكام:

١- عقوبة الله تعالى لمن تعامى عن القرآن الكريم وأعرض عنه؛ بتسليطه عز وجل عليه شيطاناً يقارنه ويلازمه، ويضله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ، شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [٣٦]؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [١٢٤] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا [١٢٥] قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَتَسِينَاهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي [١٢٦] وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَعَلَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [١٢٧] [طه: ١٢٤-١٢٧].

٢- وجوب الحذر من الغفلة والإعراض عن القرآن، وعن ذكر الله تعالى.

٣- إثبات اسم الله «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾، وقوله: ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾.

٤- صد هؤلاء القراء من الشياطين وصرفهم لمن سلطوا عليه عن الصراط المستقيم، والطريق القويم، وتضليلهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَأْتَهُمْ لِيُصَدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٥- عظم مصيبة الذين أعرضوا عن ذكر الله، وصددهم قرناؤهم من الشياطين عن السبيل، حيث تعمي قلوبهم، ويظنون أنهم على هدى، وهذه والله قاصمة الظهر: أن يكون الإنسان ضالاً ويظن أنه على هدى، فيركن إلى ما هو عليه من الضلال، ولا

يبحث عن طريق الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

٦- الحذر من قرناء السوء، وتزيينهم الباطل، وصداهم عن الحق.

٧- إثبات البعث والمعاد، ولقاء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾.

٨- تبرؤ المعرض عن ذكر الله يوم القيامة من قرينه، وتحسره وندامته على مصاحبتة له، وتمنيه أن لو كان بينهما بُعد ما بين المشرق والمغرب، وذمه له، وهيهات أن ينفعه ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَاءَلُ الْقَرِينَ﴾.

٩- أنه لا ينفع المعذيين من الضالين والمضلين، والأتباع والمتبعين، اشتراكهم في العذاب بأن يخفف عذاب فريق منهم عذاب الفريق الآخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ يَوْمَئِذٍ الْيَوْمِ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

وفي هذا تهديد بشدة عذابهم، دون أي تخفيف، ولو بالتسلي بمن هو أشد منهم عذاباً، أو بمن هو مثلهم؛ كما هو الحال في مصائب الدنيا.

١٠- أن المعذيين في النار يعلمون أنهم مشتركون في العذاب، ولكن ذلك لا يسليهم، ولا يهون عليهم المصاب.

١١- أن مصير الظالمين بالكفر والشرك واحد هو العذاب في النار، واشتراكهم في ذلك، على اختلاف منازلهم في دركات النار.

١٢- تسليته ﷺ؛ لثلا بياس ويجزن على ضلال من ضل ممن أصم الله سمعه، وأعمى بصره وبصيرته عن الحق، فضل الضلال المبين، فمهمته ﷺ البلاغ فقط، والهداية والإضلال بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

١٣- أنه لا سبيل إلى هداية من أضله الله، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، ومن كان في ضلال مبين؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍو وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

[الجانية: ٢٣].

١٤- تشریفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَأَنْتَ ﴾، وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ وما بعد ذلك.

١٥- وعد الله تعالى له ﷺ بالانتقام من أعدائه المشركين لا محالة، إما عاجلاً في حياته، وإما آجلاً بعد مماته؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ ﴾.

وقد أراه عز وجل في بدر من الانتقام منهم والنصر عليهم ما أقر عينه، وشفى صدور المؤمنين، وكذا ما بعدها، إلى أن فتح الله له مكة، ودانت له رقاب العرب قاطبة.

١٦- أن الوعد كما يكون في الخير يكون في الشر أحياناً.

١٧- أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وليس له من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

١٨- أنه لا ضير على الرسول ﷺ في تأخير الانتقام من أعدائه إلى ما بعد وفاته، بل ولا في تأخير النصر أيضاً؛ لأن الله تعالى وحده الحكمة في ذلك كله.

وهكذا ينبغي للدعاة إلى الله تعالى والمصلحين أن يعملوا، ويدعوا أمر النتائج إلى الله تعالى.

١٩- الوعيد للمكذبين بالانتقام منهم إما في الدنيا أو في الآخرة، وبيان تمام قدرة الله تعالى.

٢٠- قدرة الله تعالى التامة على الانتقام منهم عاجلاً أو آجلاً؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾.

٢١- تثبيت الله تعالى له ﷺ؛ بأمره بالتمسك بوحيه إليه، والثناء عليه وعلى هديه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤٢) وغيره من أتباعه المؤمنين مأمورون من باب أولى.

٢٢- إثبات وحيه تعالى إليه ﷺ، وإثبات رسالته، واستقامة طريقه.

٢٣- أن القرآن الكريم تذكير وعظة وعبرة له ﷺ ولقومه، ولكل من اتبعه؛ فهو

بيان الأحكام والأوامر والنواهي، وغير ذلك؛ كما أنه شرف له ﷺ ولقومه؛ لأنه أنزل بلغتهم أفصح اللغات وأوسعها، فكان به شرفها وخلودها.

٢٤- مسؤولية الأمة عن الاستجابة لهذا القرآن، والعمل به، والدعوة إليه، ونشره، ومسؤولية العرب أشد وأعظم، الذين أنزل القرآن بلغتهم، وشرفهم الله به؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

٢٥- إفحام المشركين، وإقامة الحجة عليهم في بطلان ما هم عليه من الشرك، الذي لم تقره جميع الرسالات والشرائع السابقة، بل أكدت كلها على النهي عنه، وعلى بطلانه، وعلى وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾.

٢٦- إثبات الرسل والرسالات السابقة، واتفاقها على التوحيد، وأنه ﷺ هو خاتم الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّعِ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَا هُمُ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّعِ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾، أي: ولقد ابتعثنا موسى بآياتنا الكونية العظيمة الدالة على صدقه، من الآيات التسع؛ كاليد، والعصا، والطوفان، والجراد، وغير ذلك.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾، أي: إلى فرعون وأشراف قومه.

﴿فَقَالَ﴾ موسى عليه السلام لهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: أرسلني رب العالمين إليكم، أدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له دون سواه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الفاء: عاطفة، و«لما»: ظرف بمعنى: «حين»، مضمن معنى الشرط، و«إذا»: فجائية، أي: إذا هم منها يضحكون استهزاءً وتكديهاً بها، وجحوداً لها؛ ظلماً وعلواً؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وما نريهم أي آية.

﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا هي أكبر من الآية التي قبلها؛ تدرجاً في تأكيد صحة دعوته؛ لإقامة الحجة عليهم.

﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾، أي: عاقبناهم بالعذاب؛ من تسليط الجراد والقمل والضفادع والدم عليهم، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا ويتوبوا عن تكذيب آيات الله وجحودها، والاستهزاء بها، وعن الشرك، ويسلموا وينقادوا للحق.

﴿وَقَالُوا﴾ لموسى عليه السلام لما نزل بهم العذاب:

﴿يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ﴾ هذا إما على سبيل الظم لموسى والتنقص له، والتهمك به، وتشويه دعوته، وأنه ساحر، وما جاء به سحر.

وإما على سبيل المدح والتعظيم له، أي: يا أيها العالم بالسحر؛ لأن السحر عندهم لم يكن مذموماً، وكانوا يسمون الساحر ب«العالم»، ويقوي هذا: أن الحال حال ضرورة وتضرع منهم لدفع العذاب عنهم.

﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لم يقولوا: ربنا، أو: ربنا وربك؛ لأنهم لا يؤمنون برب موسى، وهو الله عز وجل، وإنما يؤمنون بربوبية فرعون لهم وألوهيته.

﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ الباء: سببية، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: بسبب عهده عندك، أو بسبب الذي عهده عندك.

أي: بما عهده إليك، وخصك به من الفضائل والمناقب.

﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إننا إن كشف عنا العذاب لمهتدون ومؤمنون.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فلما أزلنا عنهم العذاب ورفعناه.

﴿إِذَا هُمْ يَنْكُشُونَ﴾، «إذا»: فجائية، أي: إذا هم يتقضون عهدهم وقولهم: ﴿إِنَّا

لَمُهْتَدُونَ﴾ ويستمرون على ما هم عليه من الاستهزاء بآيات الله، والكفر بها، وجحودها؛

كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ

ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾ [الآيات: ١٣٣-١٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُفْتَرِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾، أي: جمعهم ونادى فيهم مستعليًا بباطله، مغترًا بملكه وسلطانه قائلاً:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: ألسنت المالك لذلك، المتصرف فيه؟ ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾؛ يعني: نهر النيل والترع المتفرعة منه في وسط القصور والبساتين. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، أي: في مملكتي وتحت تصرفي، أو تجري بأمرني وتسخيري لها. وهذا لا يستبعد؛ لأنه ادعى الربوبية؛ كما ادعى الألوهية، قال تعالى: ﴿فَحَثَرَ فَنَادَىٰ ﴿١٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفلا تبصرون ما أنا فيه من القوة والملك العظيم.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾، «أم»: هي المنقطعة، التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام، أي: بل أنا خير، وقيل: «أم» عاطفة، والجملة معطوفة على جملة: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿مِّنْ هَذَا﴾ يشير إلى موسى عليه السلام، وأشار إليه بإشارة القريب «هذا» احتقارًا له وتقليلًا من شأنه.

﴿الَّذِي هُوَ مُهَيَّنٌ﴾، أي: حقير ذليل ضعيف؛ لا عز له، ولا ملك، ولا سلطان.  
 ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، أي: ولا يكاد يفصح عما في ضميره من الكلام، أي: ليس  
 بفصيح اللسان.

وكذَّبَ عدو الله، وإنما حمله على هذا الكفر والعتو والعدا والحقد والحسد لموسى  
 عليه السلام والتخوف على ملكه وأُبهته منه، فموسى عليه السلام كليم الرحمن، الوجيه  
 عند الله تعالى، ثالث أولي العزم من الرسل، وقد بلغ رسالته أتم بلاغ، وما ضره في ذلك  
 ما أصاب لسانه من أثر تلك الجمرة التي تناولها في صغره، وقد سأل الله تعالى فقال:  
 ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٧-٢٨] وقد استجاب الله له فقال:  
 ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦].

﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

هذا من بقية كلام فرعون.

قرأ يعقوب وحفص: ﴿آسُورَةٌ﴾ بإسكان السين من غير ألف.

وقرأ الباقر بفتح السين وألف بعدها: «آسَاوِرَةٌ».

قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«لولا»: حرف تضيض،

أي: فهلا، ﴿أَلْقَى عَلَيْهِ﴾، أي: على موسى عليه السلام.

﴿آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ الأسورة: ما يجعل في الأيدي من الحلي.

﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، أي: مقرونين معه يحفون به ويكتنفونه،

يخدمونه ويصدقونه.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ الفاء: عاطفة في الموضعين، أي: فاستخف عقول قومه

بترويح هذه الشبه، وتكذيب موسى، ودعوتهم إلى الضلال.

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾، أي: فاستجابوا له فكذبوا موسى.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ الجملة تعليلية، أي: لأنهم كانوا قوماً فاسقين، أي:

خارجين عن طاعة الله تعالى، فقيض الله لهم فرعون، فاستخفهم بهذه الشبه، فأطاعوه،

فصدهم عن الحق، فضلوا الضلال المبين.

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾، أي: أغضبونا وأسخطونا بكفرهم وضلالهم وتكذيبهم بآياتنا.  
 ﴿ أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، أي: عاقبناهم ﴿ فَأَعْرَفْنَاهُمْ ﴾ في اليم وأهلكناهم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾،  
 فلم ينج منهم أحد، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق.  
 كما قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ  
 فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [٤٦: غافر].

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [٥٦] قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام:  
 «سُلْفًا»، وقرأ الباقون بفتحهما: «سَلْفًا».  
 أي: فجعلناهم عظة وعبرة لمن يعمل مثل عملهم ممن جاؤوا بعدهم، والسعيد من  
 وعظ بغيره.

### الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إرساله عز وجل موسى بآياته إلى فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ  
 أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾.
- ٢- تبليغ موسى عليه السلام فرعون وملأه أنه مرسل إليهم من رب العالمين،  
 وإقامته الحججة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.
- ٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.
- ٤- استهزاء فرعون وملئه بآيات الله، وجحودهم وتكذيبهم بها؛ لقوله تعالى:  
 ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [٤٧].
- ٥- تتابع الآيات عليهم، كل آية أكبر من التي قبلها؛ تدرجاً في إقامة الحججة  
 عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾.
- ٦- أخذهم بالعقوبات والعذاب؛ من تسليط الجراد والضفادع والدم وغير ذلك؛  
 لأجل أن يرجعوا ويتوبوا عما هم عليه من الجحود لآيات الله، والاستهزاء بها،  
 ويسلموا وينقادوا للحق؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.
- ٧- إثبات العلة والحكمة في أحكام الله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٦﴾

٨- توسلهم إلى موسى أن يدعو ربه بما عهد إليه وفضّله به أن يكشف عنهم العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا تَأْتِيهِ السَّحَابُ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾  
٩- وعدهم وتأكيدهم له أنهم لمهتدون إن دعاهم وكشف العذاب عنهم؛ لقولهم:  
﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾

١٠- كذبهم ونقضهم ما وعدوا به من الاهتداء، واستمرارهم- بعد كشف العذاب عنهم- على الكفر والشرك والتكذيب بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾

١١- استعلاء فرعون بباطله، واغتراره وافتخاره بملكه وسلطانه؛ لقوله تعالى:  
﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

١٢- افتخاره بما ليس له فيه يد بقوله: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾  
والذي أجرى هذه الأنهار هو الله عز وجل، فكيف يفتخر بجريانها من تحته، أو يدعي تسخيرها لها؟!

١٣- ادعاؤه الخيرية لنفسه، واحتقاره لموسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾

١٤- لمزه موسى بأنه لا يكاد يفصح عما في ضميره؛ لقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾  
وهذا باطل؛ لأن ما كان في لسانه عليه السلام من عقدة دعا الله عز وجل فحلها، فبلغ رسالة ربه على أكمل وجه، ولا يعاب في الأشياء الخلقية التي ليست من فعل الإنسان، ولا يذم بها.

١٥- طعنه في رسالة موسى، وانتقاصه لما جاء به من الآيات، وقوله عناداً ومكابرة: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾

١٦- استخفافه بعقول قومه بهذه الشبهات، وطاعتهم له، وإضلاله إياهم بسبب فسقهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

١٧- أن الفسق والمعاصي سبب لما هو أعظم منها؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال تعالى: ﴿وَنَقَلْبُ أَعْدَتِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ۗ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

١٨- أن الكفر والمعاصي سببان لسخط الله وغضبه، وأن غضبه عز وجل سبب لانتقامه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

١٩- إثبات صفة الغضب لله تعالى على ما يليق بجلاله؛ لقوله تعالى: ﴿آسَفُونَا﴾.

٢٠- إهلاكهم جميعاً بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٢١- جعلهم عبرة وعظة لمن فعل مثل فعلهم ممن جاء بعدهم؛ لقوله تعالى:

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [٥٦].

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا  
 يَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ  
 وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ لَأْتِيكُمْ فِي الْأَرْضِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ  
 لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ  
 مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ  
 فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ  
 الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْبُرْجِ ﴿٦٥﴾ .

### سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير». فقالوا: ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، وقد عبده النصارى؟ فإن كنت صادقاً، فإنه كآلهتهم. فأنزل الله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ قال: يضحجون. ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ ﴾ قال: «هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية: «قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير» فقالوا له: ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً، وعبداً من عباد الله صالحاً؟ فقد كان يعبد من دون الله. فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾»<sup>(٢)</sup>.

قوله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾، «ابن»: نائب فاعل، «مثلاً»: مفعول به منصوب بتضمين «ضرب» معنى «جعل»، أي: ولما ضرب المشركون عيسى بن مريم مثلاً في كونه عبداً من دون الله، وعارضوا به قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

(١) أخرجه أحمد ١/٣١٨، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٢٨٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٢٨٤.

قال ابن تيمية: «ضاربه هو الذي عارض به قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

فلما قال ابن الزبيري: لأخصمن محمداً، فعارضه بالمسيح، وناقضه به، كان قد ضربه مثلاً قاس الآلهة عليه، ويرجح هذا قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾. فعلم أنهم هم الذين ضربوه - يعني: المشركين - لا النصارى»<sup>(١)</sup>.

﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم وحمة بكسر الصاد: ﴿يَصِدُّونَ﴾، وقرأ الباقون بضمها: ﴿يَصِدُّونَ﴾.

﴿إذا﴾ فجائية، أي: إذا قومك يا محمد ﴿مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، «من» سببية، أي: بسبب هذا المثل الذي ضربوه يُلجئون في خصومتهم ويضجون ويضحكون فرحاً وجدلاً؛ اعتقاداً منهم أنهم غلبوا وأفلحوا في حجبتهم، ويعرضون بسبب ذلك عن القرآن.

﴿وَقَالُوا أَلَهْتْنَا خَيْرٌ﴾ الهمة: للاستفهام التقريري.

أي: وقال المشركون: آلهتنا من الأصنام والأوثان خير.

﴿أَمْ هُوَ؟﴾ الهمة للاستفهام، «أم»: حرف عطف، أي: أم عيسى بن مريم؟

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾، أي: ما ضرب المشركون هذا المثل لك يا محمد وعارضوا به.

﴿إِلَّا جَدَلًا﴾؛ إلا: أداة حصر، «جدلاً»: مفعول لأجله، أي: إلا لأجل الجدل، أو

مصدر في موضع الحال منصوب، أي: إلا مجادلين، أي: ما ضربوا لك هذا المثل إلا وراء وخصاماً بالباطل؛ لأن عيسى عليه السلام وكل من عبد من العقلاء وهو غير راضٍ أن يعبد من دون الله؛ كالعزير والملائكة والصالحين، فهو غير داخل قطعاً في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

[الأنبياء: ١٠١].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، ﴿خَصِمُونَ﴾ جمع: «خصم»،

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/٤/٥٢٢.

أي: شديدو الخصومة بالباطل.

عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي رواية عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضباً شديداً، حتى كأنها صب على وجهه الخل، ثم قال ﷺ: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؛ فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، أي: ما هو، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما عيسى بن مريم إلا عبد من عبادنا أنعمنا ومننا عليه بالنبوة والرسالة، وليس كما زعمت النصارى أنه هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: وجعلناه عظة وعبرة وآية ودلالة على تمام قدرتنا لبني إسرائيل في خلقه من أم بلا أب.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾، أي: بدلكم، ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْتَفُونَ﴾، أي: يخلفونكم فيها، ويخلف بعضهم بعضاً، ولو فعلنا ذلك، لأرسلنا إليهم ملائكة منهم رحمة بهم؛ ليتمكنوا من الأخذ منهم؛ كما أرسلنا رسلاً منكم رحمة بكم؛ لكي تتمكنوا من الأخذ منهم.

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ الضمير يعود إلى عيسى عليه السلام، واللام: للتوكيد، أي: وإن نزول عيسى عليه السلام علامة وآية وأمارة ودليل على قرب قيام الساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ. قَبْلَ مَوْتِهِ. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾<sup>(١٥٩)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الزخرف ٣٢٥٣، وابن ماجه في المقدمة ٤٨، وأحمد ٢٥٢/٥، ٢٥٦،

وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه الطبري ٦٢٨/٢٠.

[النساء: ١٥٩].

وقد ثبت وتواتر عن النبي ﷺ الخبر بنزول عيسى بن مريم قبل يوم القيامة إماماً عدلاً، وحكماً مقسطاً<sup>(١)</sup>.

﴿فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا﴾، أي: فلا تشكُنَّ بها؛ فإنها واقعة وكائنة لا محالة.

﴿وَأَطِيعُونَ﴾ بفعل ما أمركم به، وترك ما أنهاكم عنه، تنجوا وتفوزوا.

﴿هَذَا﴾، أي: الإيذان بقيام الساعة، وما أمركم باتباعي عليه وسلوكه ﴿صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: طريق عدل قويم، لا اعوجاج فيه، موصل إلى مرضاة الله تعالى وجنته.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن اتباعي وسلوك الطريق المستقيم.

﴿إِنَّهُ﴾، أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: عدو ظاهر العداوة، حريص على

صدكم عن الحق وإغوائكم؛ كما أخرج أبويعقوب من الجنة.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ﴾ لبني إسرائيل ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالآيات البينات الدالة على

صدقه وصحة نبوته؛ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾، «قد»: حرف تحقيق، أي: قد جئتكم بالنبوة والعلم

والهدى.

﴿وَلَا يُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي:

ولأجل أن أبين لكم بعض الذي تختلفون فيه من أمر دينكم، أي: لأبين لكم الحق

والصواب في ذلك؛ لأنه عليه السلام جاء مكملاً ومتمماً لشرعية موسى عليه

السلام، ولأحكام التوراة، وجاء ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما

جاء به.

﴿فَأَنصُرُوا اللَّهَ﴾ بترك ما أنهاكم عنه من الشرك بالله، ﴿وَأَطِيعُونَ﴾ بفعل ما أمركم به من

طاعته عز وجل.

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢٢٢٢، ومسلم في الإيذان ١٥٥، والترمذي في الفتن ٢٢٣٣، وابن ماجه في

الفتن ٤٠٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾: تعليل لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، يفيد الحصر والتوكيد، أي: إن الله وحده ربي وربكم، الذي يجب أن نعبده وحده دون سواه.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له، وأخلصوا له، فلا رب غيره، ولا معبود بحق سواه.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: ما أمرتكم به من تقوى الله وطاعته، والإقرار بربوبيته وعبادته وحده لا شريك له: طريق عدل مستقيم، ومنهج قويم، يجب اتباعه وسلوكه، ولا ينبغي العدول عنه.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾، «الأحزاب» جمع: حزب، أي: الفرق.

﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، أي: من بين بني إسرائيل الذين جاءهم عيسى عليه السلام بالبينات، أي: اختلفت مواقفهم منه، ومقالاتهم فيه، فمنهم من أقر بأنه عبد الله ورسوله، وشهدوا له بذلك، وصدقوا ما جاء به.

ومنهم من غلا فيه وعبده من دون الله، وهم ثلاث فرق من النصارى: منهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة.

ومن بني إسرائيل من كذبه، وهم اليهود لعنهم الله.

﴿فَوَيْلٌ﴾ الفاء: عاطفة، «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، أي: خسار وهلاك ودمار

﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: بالإشراك بالله وتكذيب رسوله.

وأظهر في مقام الإضرار، فلم يقل: فويل لهم؛ لتسجيل وصفهم بالظلم، وأنه سبب هلاكهم وخسارهم ودمارهم، وليشملهم هذا الوعيد هم وغيرهم من الظالمين.

﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾، أي: من عذاب يوم القيامة المؤلم الموجه، حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب.

### الفوائد والأحكام:

١- ضرب بعض المشركين مثلاً بعيسى بن مريم، ومعارضتهم ما توعدهم الله به من أنهم ومعبوداتهم حسب جهنم، بقياسهم آلهتهم على عيسى بن مريم الذي عُبد من

دون الله، وفرحهم بذلك، وصددهم وإعراضهم بسبب هذا المثل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾.

٢- دعواهم الباطلة أن آلهتهم من الأصنام والأوثان خير من عيسى عليه السلام؛ لقولهم: ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾.

٣- أنهم ما ضربوا هذا المثل له ﷺ إلا مجادلة ومخاصمة بالباطل؛ لأنهم أهل خصومة وجدال بالباطل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾.

٤- أن عيسى عليه السلام ما هو إلا عبد من عباد الله، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، وجعله عبرة وعظة ودلالة على تمام قدرة الله تعالى في خلقه من أم بلا أب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿٥٩﴾.

٥- الرد على المشركين الذين استدلوا بعبادة من عبد عيسى بجواز عبادة الأصنام، وعلى النصراني الذين قالوا: هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، وعلى اليهود الذين أنكروا رسالته وكذبوه، ببيان أنه عبد من عباد الله لا يعبد، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة.

٦- بيان أنه عز وجل لو شاء لجعل بدل بني آدم ملائكة في الأرض يخلفونهم، ويخلف بعضها بعضاً، وأرسل إليهم رسلاً منهم، وفي هذا رد على من يطعنون بكون الرسل من البشر، وتهديد للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ ﴿٦٠﴾.

٧- إثبات مشيئة الله تعالى، وتمام قدرته، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٨- إثبات وجود الملائكة، وأنهم في العالم العلوي.

٩- أن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان علامة وآية ودلالة على قرب قيام الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾.

١٠- وجوب الإيمان بقيام الساعة، والمعاد والبعث والحساب والجزاء؛ لقوله

تعالى: ﴿فَلَا تَمُرُّنَّ بِهَا﴾.

١١- وجوب اتباع الرسول ﷺ بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه؛ لقوله:

﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾.

١٢- أن الإيذان بقيام الساعة، واتباع الرسول ﷺ هو الصراط العدل القويم؛

لقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

١٣- تحذير العباد من أن يصددهم الشيطان عن اتباع الرسول، وسلوك الصراط

المستقيم، وبيان شدة عداوته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٤- إثبات رسالة عيسى عليه السلام، وإتيانه لبني إسرائيل بالآيات البينات

الشرعية والكونية الدالة على صدقه، وبالحكمة والعلم، وبيان بعض الذي يختلفون فيه؛

لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي

تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

١٥- أن عيسى عليه السلام جاء مكملًا وتمامًا لشرعة موسى ولأحكام التوراة؛

لقوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

١٦- أمره لقومه بتقوى الله تعالى، وطاعته؛ لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

١٧- إثباته وتأكيده ربوبية الله له ولهم، ووجوب عبادته وحده؛ لأن من لازم

الإقرار بربوبيته عز وجل الإقرار بألوهيته، وعبادته وحده لا شريك له؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ

هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لعيسى عليه السلام وللمؤمنين، وربوبيته

العامة لجميع خلقه.

١٩- بيانه عليه السلام أن ما أمرهم به من تقوى الله وطاعته، والإقرار بربوبيته

وعبادته وحده لا شريك له طريق عدل مستقيم يجب سلوكه، ولا ينبغي العدول عنه؛

لقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

٢٠- اختلاف الأحزاب من بني إسرائيل في مقالاتهم في عيسى؛ فمن النصارى من

قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة. وكذبه اليهود

وأنكروا رسالته، وأقر المؤمنون برسالته، وآمنوا به وهم قليل؛ منهم: زكريا ومريم أمه

عليهما السلام، ومنهم الحواريون؛ لقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾.

- ٢٢- التهديد والوعيد بالعذاب للظالمين بالشرك بالله، وتكذيب رسله، بعذاب يوم القيامة الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلِيمٍ﴾.
- ٢١- شدة عذاب يوم القيامة، وأنه مؤلم موجه حسيّاً للأبدان، ومعنوياً للقلوب.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾  
 الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَتَعَبَّدُونَ لِمَا هُمْ لَا يَشْعُرُونَ  
 وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ  
 تُحْبَبُونَ ﴿٦٩﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ  
 الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٠﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَكُمْ  
 فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٧٣﴾ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ  
 مُبْلِسُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ وَنَادُوا يَنْدِيكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ  
 مَلَائِكَةٌ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٧﴾ أَمْ أَمْرًا مَرَّةً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ  
 يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ۞

قوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾ الاستفهام بمعنى النفي، و«إلا»: أداة حصر،  
 أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا الساعة، أي: إلا قيام الساعة؛ فإنها قريبة  
 وواقعة لا محالة؛ كما قال تعالى: ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [القمر: ٤٦].

﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من  
 «الساعة»، أي: أن تأتيهم فجأة، وعلى غرة، ومن غير ترقب.

﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، أي: وهم غافلون، غير مستعدين لها؛ كما قال تعالى:

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١].

﴿ الْأَخْلَاءَ ﴾، أي: الأصدقاء والأصحاب والأحباب، ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾، أي: يوم قيام

الساعة والقيامة.

﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾؛ لأن خلتهم لغير الله؛ إما لأهداف دنيوية، أو لمقاصد

سيئة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَمَا  
 لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾

يَتَوَلَّىٰ لِيَتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ

الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ  
بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْفَرِيقُ ﴿٣٨﴾ [الزخرف: ٣٨].

﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، «إلا»: أداة استثناء، أي: إلا المتقين الذين كانت خلعتهم في الله،  
ولله؛ فإن خلعتهم تدوم وتبقى ولا تنقطع، ويلتقون عليها في الجنة.

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ قرأ حفص والكسائي:  
﴿يَعْبَادِ﴾ بحذف ياء المتكلم، وقرأ الباقر بن يثباتها على الأصل: «يَا عِبَادِي».

أي: يقول الله لهم، بشارة وتكريماً لهم: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ  
تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾، أي: لا خوف عليكم اليوم مما تستقبلون، ولا أنتم تحزنون على ما  
مضى.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، «الذين»: في محل نصب نعت  
لـ«عبادي»، أي: يا عبادي الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وكانوا مسلمين منقادين  
لشرع الله بجوارحهم الظاهرة.

وإذا انتفى المكروه من كل وجه بانتفاء الخوف والحزن ثبت المحبوب؛ ولهذا قال:

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾، أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة.

﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، أي: أنتم ونظراؤكم وقرناؤكم، من الزوجات والأولاد  
والأصحاب وغيرهم ممن عمل مثل عملكم.

﴿تُحْبَرُونَ﴾، أي: تُنعمون وتكرمون، وتسعدون وتسرون.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: يطاف على أهل الجنة ﴿بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾، «صحاف»: جمع  
«صحفة»، وهي: أواني الطعام، أي: يدار عليهم بأوان من ذهب، فيها أنواع الطعام  
وألوانه.

﴿وَأَكْوَابٍ﴾: معطوف على «صحاف»، أي: وأكواب من ذهب.

و«الأكواب»: جمع «كوب»، وهي: أواني الشراب، فيها أنواع الشراب من ماء  
ولبن وخمر، وغير ذلك.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا

نَقِيرًا ﴿٦٦﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما...» الحديث<sup>(١)</sup>. وفضل الله واسع. وقد جاء في رواية عن أبي موسى - قال حماد: «لا أعلمه إلا قد رفعه» - في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٦٦﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَمَنْ دُونَهُمَا جَنَّاتٍ ﴿٦٦﴾﴾، قال: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحفص: ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ بزيادة هاء ضمير مذكر بعد الياء، وقرأ الباقون بحذف الهاء «تَشْتَهِي». أي: وفي الجنة كل الذي تشتهيهِ وتحبهُ الأنفس من أنواع المآكل والمشارب والمناجح، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يس: ٥٧].

﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾: معطوف على «تشتهي»، أي: وفيها كل الذي تلتذ به الأعين، وتبتهج به ويعجبها؛ من المناظر الحسنة الخلاصة الجميلة؛ من القصور والأنهار، والأشجار والخضرة، والمجالس والسرر المزخرفة المزينة، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»<sup>(٣)</sup>. ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾، أي: في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾، أي: مقيمون فيها، ماثون أبد الأباد، لا تُخرجون منها، ولا تبغون عنها حولا، وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، وهو الاطمئنان إلى دوامه وعدم انقطاعه، نسأل الله من فضله.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات وأعظمها.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن ٤٨٧٨، ومسلم في الإيوان، رؤية المؤمنين في الآخرة ربه سبحانه وتعالى ١٨٠، والترمذي في صفة الجنة ٢٦٤٨، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/٢٣٨، والبيهقي في «البعث والنشور» ص ٢٤٢.

(٣) سبق تخريجه.

﴿الَّتِي أَوْرِثْتُمُوهَا﴾، أي: التي أورثكم الله إياها، وجعلها داراً لنعيمكم وخلودكم. وفي قوله: ﴿أَوْرِثْتُمُوهَا﴾ إشارة إلى أن دخولهم الجنة ليس عوضاً عن عملهم؛ لأن الميراث ينتقل إلى الوارث بدون عوض، وإنما العمل سبب لدخول الجنة، وهو ما بينه بقوله:

﴿يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء: سببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملونه، أو بسبب عملكم الصالح.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣).

لما ذكر أنه يطاف عليهم في الجنة بصحاف من ذهب فيها ما يشتهونه من الطعام، وبأكواب من فضة فيها ما يشتهونه من الشراب، ذكر تفكههم بعد ذلك بأكلهم من أنواع الفواكه؛ لتتم النعمة والغبطة.

قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ من جميع أنواع الفواكه؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ (٥٢) [الرحمن: ٥٢].

﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: من جميع أنواع هذه الفواكه تأكلون، حسب اختياركم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُّخْتَلِفُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَتَادُوا بِعَذَابِكُمْ لِيَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ جَزَاءُ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَادِحُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُّبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠).

لما ذكر ما أعد للمؤمنين في الجنة من النعيم، أتبع ذلك بذكر ما أعد للمجرمين في جهنم من العذاب الأليم.

قوله: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ بكفرهم وتكذيبهم، ﴿فِي عَذَابٍ مُّخْتَلِفٍ﴾، أي: مغمورون في عذاب جهنم، محيط بهم عذابها من كل جانب.

﴿مُخْتَلِفٍ﴾ في عذابها، لا يخرجون منها.

﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ عذابها؛ لا بانقطاعه ساعة، ولا بتخفيفه.

﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ الواو: عاطفة، أو حالية، أي: وهم في العذاب.

﴿مُبَلِّسُونَ﴾، أي: آيسون من رحمة الله، ومن الفرج، ومن كل خير، ينادون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فيناديهم بقوله: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ في تعذيبهم في جهنم وتخليدهم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾، «هم»: ضمير فصل؛ لتأكيد القصر في «لكن»، أي: ولكن كانوا هم الظالمين بإجرامهم وكفرهم وتكذيبهم، فظلموا باختيارهم الكفر والإجرام على الإيثار والإسلام، وظلموا أنفسهم فأوبقوها بالكفر، وأوقعوها في عذاب جهنم.

﴿وَنَادُوا﴾ وهم في النار: ﴿يَمْلِكُ﴾ وهو خازن النار.

﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾، أي: ليقبض أرواحنا ويمتنا، ويرحنا مما نحن فيه من العذاب الأليم، والكرب الشديد.

﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار تبيسًا لهم: ﴿إِنَّكُمْ مَنكُوثُونَ﴾، أي: مقيمون فيها، لا تحيون ولا تموتون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْنَاهَا أَن أَسْفَىٰ﴾ [الأعلى: ١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ﴾، أي: لقد أتيناكم بالحق وبيناه لكم وأظهرناه؛ لتتبعوه فتسعدوا وتفوزوا.

﴿وَلَكِن أَكْثَرُكُمْ لَاحِقُونَ﴾ ولهذا لم تقبلوه، ولم تنقادوا له، وأعرضتم عنه، وآثرتم عليه الباطل وانقدتم له، فكان هذا جزاؤكم.

وفي هذا توبيخ لهم، أي: فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾، «أم» في الموضوعين هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام.

أي: أم أبرم هؤلاء المكذبون بالحق المعاندون له أمراً، أي: أحكموا ودبروا كيداً ومكرًا للنبي ﷺ ولما جاء به من الحق.

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾، أي: فإننا مُحْكِمون ومدبرون كيداً ومكرًا يبطل كيدهم ومكرهم. وفي هذا تهديد ووعيد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوْبًا﴾ [الطارق: ١٥-١٧].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾، أي: بل أيجسبون، أي: أيطنون بجهلهم وظلمهم.

﴿أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾، أي: ما يسرونه في أنفسهم، ولم يتكلموا به.

﴿وَيَخْتَوْنَهُمْ﴾، أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به بينهم، فأقدموا على إضمار الشر والكيد، وفعل المعاصي.

﴿بَلَى﴾: حرف جواب، أي: بلى نسمع سرهم ونجواهم، ونعلم أحوالهم وما هم عليه، وسنحاسبهم ونجازيهم على ذلك، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

﴿وَوَسَّلْنَا لَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: وملائكتنا الحفظة الكرام البررة.

﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي: عندهم يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها، دقيقتها وجليلها؛ كما قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْمَلُونَ مَا نَقَعَلُونَ﴾ [الأنفال: ١٠-١١].

﴿وَمَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وسيحاسبون على ذلك كله ويجازون؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

### الفوائد والأحكام:

١- تهديد المشركين المكذبين بقرب قيام الساعة، وإتيانها بغتة وهم لا يشعرون،

وما فيها من الأهوال والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٦).

٢- إثبات القيامة وقربها وما فيها من الحساب والجزاء، وأنها تأتي بغتة، ولا يعلم متى قيامها إلا الله عز وجل.

٣- انقطاع كل خلة وصدقة يوم القيامة، وانقلابها إلى عداوة، إلا ما كان بين المتقين، أي: في الله، والله؛ لقوله تعالى: ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧).

٤- فضيلة الخلة والمحبة في الله، وأن آثارها وثمارها تظهر يوم القيامة.

٥- نداء الله تعالى لعباده المؤمنين المسلمين، وبشارته لهم يوم القيامة بانتفاء الخوف والحزن عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَنْعَبِدُونَ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (٦٩).

٦- إثبات عبودية المؤمنين المسلمين لله تعالى عبودية خاصة.

٧- فضيلة الإيمان بآيات الله والإسلام، وأن من أعظم نعيم المؤمنين المسلمين: أمنهم وسلامتهم من الخوف والحزن؛ لأنها يكدران كل نعيم.

٨- تكريم الله تعالى المؤمنين بأمرهم بدخول الجنة هم وأزواجهم، وتهنئته لهم بما لهم فيها من النعيم والتكريم؛ لقوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (٧٠) الآية.

٩- عظم ما أعد للمؤمنين في الجنة من أصناف النعيم من الخبرة والسرور، وأنواع الطعام والشراب، وما تشتهيه نفوسهم، وتلذذ عيونهم، مع خلودهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٧١).

١٠- امتداح الله تعالى وتعظيمه للجنة التي أورثها لعباده بسبب أعمالهم الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٢).

١١- الترغيب في الإيمان والأعمال الصالحة، وأنها سبب لتوريث الجنة والخلود

- فيها، وليست عوضاً لها؛ كما يقول المعتزلة.
- ١٢- أن من تمام نعيم أهل الجنة- بعد طعامهم وشرابهم: تفكُّهُم بأنواع الفواكه الكثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُرِّ فِيهَا فَكَّهُةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٣).
- ١٣- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للمجرمين بعذاب جهنم، خالدين فيه أبداً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤).
- ١٤- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن بين الرجاء والخوف.
- ١٥- أن العذاب لا يفتر عن أهل النار بانقطاع أو تخفيف ولو لحظة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ﴾.
- ١٦- يأسهم أشد اليأس من رحمة الله، ومن الفرج، ومن كل خير؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾.
- ١٧- عدل الله تعالى فيهم، وأنه سبحانه لم يظلمهم، لكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم، فأوبقوها في العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٦).
- ١٨- نداءهم لمالك خازن النار؛ ليدعو الله بأن يميتهم ويريحهم مما هم فيه من العذاب؛ لشدته وقسوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَدَاؤُنَا بِمَنَّاكِ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.
- ١٩- أن أهل النار يتكلمون فيها ويستغيثون؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].
- ٢٠- أن من ملائكة العذاب «مالك»، وهو من أعظم الملائكة؛ فهو خازن النار.
- ٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق.
- ٢٢- تبيس مالك لهم من الخروج من النار؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَنكُوثُونَ﴾.
- ٢٣- توبيخهم بتذكيرهم بقيام الحجة عليهم بمجيء الرسل إليهم بالحق، وكرهاتهم له، وإعراضهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (٧٨).
- ٢٤- أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه، وبيان الحق له.
- ٢٥- مكر المكذبين وكيدهم للنبي ﷺ، ولما جاء به من الحق؛ وتهديدهم بالكيد

لهم، والمكر بهم، وإبطال كيدهم ومكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَدْرِمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٦).  
 ٢٦- ظنهم الباطل أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم؛ ولهذا أقدموا على ما أقدموا عليه من المكر والكيد للرسول ﷺ، وللحق، ومن الأعمال السيئة؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾.

٢٧- إثبات سماعه عز وجل لسرهم ونجواهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾.  
 ٢٨- إثبات كتابة أعمال العباد كلها باطنها وظاهرها، وسرها وجهرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

٢٩- إثبات رسل الله تعالى من الملائكة المكلفين بكتابة أعمال الخلائق.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين ينسبون الولد لله، تعالى الله عن قولهم:

﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾، أي: لو فرض هذا جدلاً كما تزعمون كذباً أن الملائكة بنات الله، وأن له ولداً.

﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ لله تعالى؛ لأنني عبد من عبيده، منقاد له.

أو: فأنا أول العابدين لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، ولم تسبقوني إلى عبادته.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «أي: لو فرض هذا لعبده على ذلك؛ لأنني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار، ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع، ولا الجواز أيضاً؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].»

وقال السعدي<sup>(٢)</sup>: «﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ (٨١) لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، وأنا أول الخلق انقياداً للأوامر المحبوبة لله، ولكنني أول المنكرين لذلك، وأشدّهم له نفياً. فعلم بذلك بطلانه.

قال: فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل - إلى أن قال: فلو كان للرحمن ولد حقاً لكان محمد بن عبد الله أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه

(١) في «تفسيره» ٧/٢٢٨.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦/٦٦٤.

المشركون».

قال: «ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله إثبات ما أثبتته ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا لو كان حقاً لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين، وفسادها عقلاً ونقلاً».

وعن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾، يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين<sup>(١)</sup>.

وهذا على اعتبار «إن» نافية، والأقرب: أنها شرطية، فهو شرط وجزاء، لكنه ممتنع في حق الله عز وجل؛ كما اختار هذا الطبري وابن كثير<sup>(٢)</sup>، وغيرهما.

﴿فَأَنِّي يُؤَفِّكُونَ﴾، «الفاء»: رابطة لجواب شرط مقدر، «أنى»: اسم استفهام، أي: فكيف يُصرفون عن عبادة الله تعالى، وإفراده بالألوهية، مع إقرارهم بأنه الخالق المتفرد بالربوبية؟ فإن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿وَقِيلَهُ يَنْرِبٌ﴾ قرأ حمزة وعاصم بكسر اللام والهاء: ﴿وَقِيلَهُ﴾، وهو على هذه القراءة مجرور عطفاً على «الساعة» في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، أي: وعنده علم قيله، والضمير للنبي ﷺ، أي: وعنده علم قيله ﷺ شاكياً إلى ربه قومه الذين كذبوه. وقرأ الباقر بفتح اللام، وضم الهاء: «وَقِيلَهُ»، وهو منصوب بفعل مقدر، أي: وقال قيله، وقيل غير ذلك.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٨٨)</sup>، أي: يا رب، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَنْرِبِ إِنْ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ﴾، أي: قال الله تعالى له: ﴿فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ﴾، أي: أعرض عن أذاهم لك، واصبر على ذلك.

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٦٥٦-٦٥٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٠/٦٥٧-٦٥٨، «تفسير ابن كثير» ٧/٢٢٩.

﴿وَقُلْ سَلِّمُوا﴾، أي: سالمهم وتاركهم وتألفهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلِّمُوا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وهذا قبل الأمر بالجهاد.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالخطاب: «تَعْلَمُونَ».

وقرأ الباقر بالغيب: ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وهذا تهديد ووعيد لهم، أي: وسوف يعلمون مستقبلاً عاقبة كفرهم وإجرامهم.

وقد شرع الله الجهاد، وأحل بهم بأسه ونقمته في بدر الكبرى وغيرها من الوقائع، مع ما لهم في الآخرة من عذاب النار.

### الفوائد والأحكام:

١- إبطال نسبة المشركين الولد لله تعالى، وإنكار ذلك أشد الإنكار؛ لقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ (٨١).

٢- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

٣- تقديسه عز وجل وتعظيمه؛ فهو رب السموات والأرض، ورب العرش، ورب جميع المخلوقات، وتنزيهه عما يصفه به المشركون من الشريك والصاحبة والولد، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢).

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق.

٥- إثبات العرش الذي هو أكبر المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾.

٦- تسليته ﷺ، وتهديد المشركين المكذابين بعذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى:

﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتِيَهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣).

٧- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥).

٨- تفرده عز وجل بالإلهية في السماء والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ

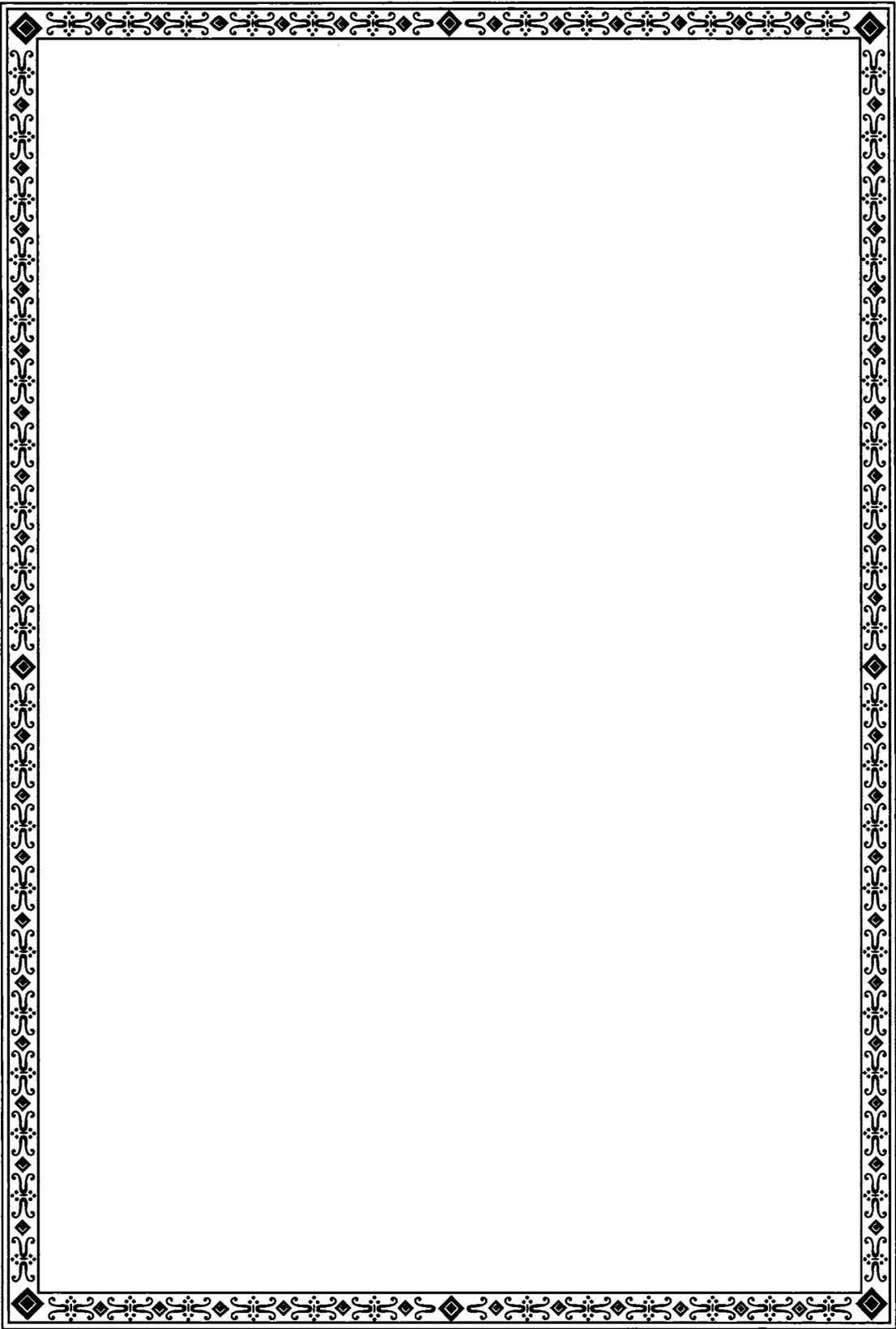
إِلَهُهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُهُ﴾.

- ٩- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم»، وصفة الحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾.
- ١٠- إثبات اسم الله تعالى: «العليم»، وصفة العلم الواسع له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَلِيمُ﴾.
- ١١- تعاليه عز وجل وتعاضمه، وكثرة بركته وخيره وإحسانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.
- ١٢- تفرده عز وجل بملك السموات والأرض وسعة ملكه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ١٣- اختصاصه وحده عز وجل بملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.
- ١٤- إثبات معاد الخلائق ورجوعهم إليه تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمَ تُرْجَعُونَ﴾.
- ١٥- كمال عظمته، وعموم ربوبيته وإلهيته، وعظيم ملكه، وواسع علمه، وعموم سلطانه وتدييره لأمر الدنيا والآخرة، فبداية الخلق منه، ونهايتهم إليه.
- ١٦- تسفيه عقول المشركين، وبيان ضعف وحقارة كل ما يدعون من دون الله من الأصنام والأنداد، وأنهم لا يملكون الشفاعة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾.
- ١٧- أنه إنما يملك الشفاعة- بعد إذن الله ورضاه- من شهد بالحق، فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأقر بتوحيد الله، وبنبوة محمد ﷺ عن علم ومعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.
- ١٨- فضيلة الإيثار بالله ورسوله، والشهادة بالحق عن علم ومعرفة؛ لأن الله خص أهل ذلك بالشفاعة.
- ١٩- إقرار المشركين بأن الله هو الخالق، واعترافهم بتوحيد الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

- ٢٠- الإنكار عليهم في تكذيبهم بتوحيد الألوهية، وإشراكهم مع الله غيره، مع إقرارهم بالربوبية التي تستلزم الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَن يُّؤْفَكُونَ﴾.
- ٢١- شكواه ﷺ إلى ربه كفر قومه وعدم إيمانهم؛ أسفاً وتحسراً عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨).
- ٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.
- ٢٣- شدة عتو المشركين وعنادهم وتمردهم.
- ٢٤- أمر الله تعالى له ﷺ بالصفح عنهم ومسالمتهم ومشاركةهم تألفاً لهم، وكان هذا قبل الأمر بالجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾.
- ٢٥- الوعيد والتهديد لهم بما يستقبلونه من العذاب في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

\* \* \*

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الدخان»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠، ١١] والمراد: الدخان الذي هو آية من آيات الله تعالى أيد بها نبيه ﷺ سميت به -والله أعلم- اهتماماً بشأنه. ويقال لها: «حم الدخان».

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## ج- موضوعاتها:

- ١- افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ تعظيماً للقرآن الكريم، وتبنيها على إعجازه، وتفصيله وبيانه.
- ٢- تعظيم ليلة القدر التي أنزل الله بها القرآن وبركتها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ﴿٣﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا ﴿٦﴾﴾.
- ٣- بيان أن رسالته ﷺ للعالمين: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾.
- ٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وألوهيته: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٨﴾﴾.
- ٥- تشكيك المشركين وتكذيبهم رسالته ﷺ، وما جاءهم به من الوحي، وتوعدهم وتهديدهم بعذاب الدنيا والآخرة. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذُّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.
- ٦- تذكير المشركين بفتنة قوم فرعون قبلهم وتكذيبهم موسى عليه السلام،

وإنجاء موسى عليه السلام ومن معه، وإغراق فرعون وقومه، وتوريث بني إسرائيل ما هم فيه من الجنات والزرورع والمقام الكريم والنعيم ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدْوَأْ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَأَسْرِ بِعِيَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿١٩﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٠﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْبُونَ ﴿٢١﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَفَاهِمْ ﴿٢٣﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٤﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

٣- تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى عليهم بإنجائهم من فرعون وعذابه المهين، واختيارهم وإيتائهم الآيات: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمِنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاثَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

٤- إنكار المشركين البعث بعد الموت، وتوعدهم بالإهلاك كما أهلك الله تبعاً والذين من قبلهم بسبب إجرامهم، وإثبات البعث، وأنه عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما لعباءة، وإنما خلقها لعبادته ومجازاة الخلائق بأعمالهم.

وتأكيد أن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين، ووعدهم بما أعد لهم من الزقوم والحميم وعذاب الجحيم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاعْتُلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٥- وعد المتقين وبشارتهم بما أعد لهم من المقام الأمين في جنات النعيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّامِن رَّبِّكَ  
ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ .

٦- الامتنان بتيسير القرآن بلسانه ﷺ العربي المبين؛ ليتذكر العباد ويتعظوا،

وتسلية، وتهديد المكذبين له ﷺ ﴿فَالَمَّا يَسِرْنَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ  
إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ .

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَم ١ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ﴿٣﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٦﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٨﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٩﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿١٠﴾ فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ يَعْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ أَلَيْسَ لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٥﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٦﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿ حَم ١ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ﴿٣﴾ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٤﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٥﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٦﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٨﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٩﴾ ﴿

قوله: ﴿ حَم ١ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴿ سبق الكلام عليه.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ﴾، أي: إنا أنزلنا الكتاب المبين «القرآن العظيم»، أي:

ابتدأنا إنزاله.

﴿ فِي لَيْلَةِ ﴾ نكرت للتعظيم، ﴿ مُبَرَّكَةٍ ﴾، أي: كثيرة البركة والخير، وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴿

وهي في شهر رمضان المبارك؛ كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ

الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهي في العشر الأواخر منه، وفي أوتارها أكد؛ لقوله ﷺ في حديث عائشة رضي الله عنها، وغيره: «تحرروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» (١).

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، أي: محذرين ومخوفين العباد من عذاب الله؛ إقامة للحجة عليهم، بإنزال القرآن، الذي هو تبيان لكل شيء، فيه أمر الناس بما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم، وتخويف من خالف منهم، وتبشير من أطاع.

﴿فِيهَا﴾، أي: في هذه الليلة المباركة ليلة القدر.

﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أي: يفصل من اللوح المحفوظ إلى الصحف التي بأيدي الملائكة كل أمر محكم مبرم متقن، مما يجري في السنة من الأرزاق والأقذار والأعمال والأجال، وغير ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يُكْتَبُ من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر، حتى يُكْتَبَ الحاج: يحج فلان، ويحج فلان» (٢).

ومعنى ﴿حَكِيمٍ﴾، أي: محكم متقن لا يُغَيَّرُ ولا يُبَدَّلُ، ولا يتقدم ولا يتأخر.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾، أي: جميع ما يفرق في هذه الليلة المباركة ويفصل ويقدر من الأوامر المحكمة، وما يحصل فيها من البركة والخير، كل ذلك صادر بأمرنا وإذننا الكوني.

فمن بركتها: إنزال القرآن الكريم فيها، وأنه يفرق ويفصل فيها من اللوح المحفوظ كل أمر حكيم مما يقع في تلك السنة إلى الصحف التي تكون بأيدي الملائكة.

ومن بركتها: مضاعفة العمل فيها والأجور، وتنزل الملائكة والروح فيها بكل أمر يكون في تلك الليلة، وتسليمهم على المؤمنين، ودعاؤهم لهم بالسلامة، وكونها سلامًا إلى مطلع الفجر.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: مرسلين للرسول، ومنزلين للكتب؛ إقامة للحجة على الخلائق.

(١) سيأتي تحريجه وغيره من الأحاديث في هذا في تفسير سورة القدر.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣٢٨٧/١٠.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، «رحمة» منصوب مفعول لأجله، أي: بسبب رحمة ربك للناس أرسل الرسل، وأرسل محمدًا ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فأعظم وأجل نعمة رحم الله بها الخلائق هي إرسال الرسل، الذين أفضلهم وأشرفهم محمد ﷺ، وإنزال الكتب التي أعظمها وأجلها القرآن الكريم. وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: رحمة منا، ونحو ذلك؛ للإشعار بأن معنى الربوبية يستدعي الرحمة بالمربوبين، مع ما في ذلك من إضافة ضميره ﷺ إلى اسم الرب، وخطابه له تشریفًا وتكریمًا له.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾، «هو» ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، أي: هو وحده ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات والأقوال، المجيب دعاء من دعاه.

﴿الْعَلِيمُ﴾ ذو العلم بأحوال العباد، الذي وسع علمه كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بكسر الباء: ﴿رَبِّ﴾ بدل من قوله: ﴿رَبِّكَ﴾.

وقرأ الباقون برفعها: «رَبُّ» خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رب السموات والأرض. أي: الذي أنزل هذا الكتاب المبين هو الرب العظيم، خالق السموات والأرض ومالكها ومدبرهما وما بينهما.

﴿إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ﴾، أي: إن كنتم مؤمنين إيمانًا جازمًا بربوبيته العامة لجميع الخلق، فاعلموا أنه لا إله لهم سواه.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: بيده الحياة والموت، وبتدبيره الإحياء والإماتة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: فكيف تعبدون غيره أنتم وآباؤكم؟ وكيف

تقتدون بأبائكم وتقلدونهم في عبادتهم غيره وهو ربكم وربهم؟  
وقوله: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾؛ لأنهم يرون الاقتداء بالأقدم فالأقدم من آبائهم؛ كما قال  
تعالى عنهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ٩ ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ١٠  
يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ١٢ ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى  
وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ ١٤ ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ  
عَائِدُونَ ١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ ١٦:

قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هؤلاء المشركون.  
﴿فِي شَكٍّ﴾، أي: في ريب وتشكيك وتكذيب بصحة القرآن، وصدق من جاء به.  
﴿يَلْعَبُونَ﴾، أي: منشغلون في حياتهم بما لا فائدة فيه من اللعب والباطل؛ كما قال  
تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلِبَاسًا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١].  
﴿فَارْتَقِبْ﴾ الفاء: عاطفة، والأمر للتسلية والتثبيت له ﷺ، وفيه وعيد وتهديد  
للمشركين وجحودهم وشركهم، أي: فانظر هؤلاء المشركين ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ  
مُّبِينٍ﴾، «يوم»: مفعول به منصوب لـ«ارتقب»، وليس ظرفًا، أي: يوم تحيء السماء  
بدخان بين ظاهر.

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾، أي: يعمهم ويعلوهم ويحيط بهم.  
﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: يقال لهم تقريبًا وتوبيخًا، أو يقول بعضهم لبعض:  
﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: هذا الدخان عذاب أليم، أي: مؤلم موجه.  
وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا  
تُكَذَّبُونَ ١٤﴾ [الطور: ١٣، ١٤].

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يقول المشركون والكفار، وهم في العذاب أو إذا عاينوه: ﴿رَبَّنَا﴾،  
أي: يا ربنا ﴿اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾، أي: ارفعه وأزله عنا.  
﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ إن كشفت العذاب عنا، ورددتنا إلى الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ

النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَنَسْتَجِ  
الرُّسُلَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ [إبراهيم: ٤٤].

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾، «أنى»: اسم استفهام بمعنى: كيف، للإنكار، أي: كيف يكون لهم التذكير والاتعاظ؟ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيْسَتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤].

﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه قد جاءهم رسول مبين، أي: بين الرسالة والندارة، مبين لهم ما به يتذكرون، وهو محمد ﷺ.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾، أي: تولوا عنه بأبدانهم، وأعرضوا عما جاء به بقلوبهم، وكذبوه.  
﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ المعلم: الذي يُعلِّمه غيره، أي: علّمه بشر أو شيطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وهذا كما قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاسُتُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥١-٥٤].

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾، أي: لو كشفنا عنكم العذاب قليلاً ورددناكم إلى الدنيا.  
﴿إِن كُفِّرْ عَابِدُونَ﴾، أي: راجعون إلى ما أنتم عليه من الكفر والتكذيب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّن ضُرٍّ لَلَجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥].

قال ابن كثير (١) بعد أن ذكر هذا المعنى واعتبره الاحتمال الأول في معنى الآية، قال: «والثاني: أن يكون: مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم

أن يكون باشرهم؛ كقوله: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَآذَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ البطش: الأخذ بشدة، والبطشة الكبرى: الأخذة، وهي يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بـ«البطشة الكبرى»: يوم بدر. عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال ابن مسعود: «البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «يوم بدر: يوم البطشة الكبرى»<sup>(٢)</sup>. ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾، أي: متقمون من الكفار المكذبين المعرضين بالعذاب الأليم في النار.

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حَمِّ ١﴾.

٢- إقسام الله تعالى بالقرآن؛ تعظيماً له؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ﴾.

٣- امتداح الله عز وجل لكتابه بكونه بيناً ظاهراً واضحاً، مبيناً لكل ما يحتاجه العباد في دينهم وديناهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿الْمَبِينِ﴾.

٤- أن ابتداء نزول القرآن الكريم كان في ليلة القدر، وهي في رمضان، في العشر الأواخر منه على الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾.

٥- إثبات صفة العظمة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بضمير التعظيم.

٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ﴾، ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٢٣٧/٧، وقال: «هذا إسناد صحيح».

(٢) أخرجه الطبري ١٧/٢١، ٢٥.

٧- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، غير مخلوق، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٨- شرف ليلة القدر وعظمتها وبركتها، وكثرة خيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ﴾.

ومن بركتها: إنزال القرآن الكريم فيها، وكون العمل فيها خيراً من العمل في ألف شهر خالية منها، وتنزل الملائكة والروح فيها في تلك الليلة من كل أمر، وكونها سلاماً حتى مطلع الفجر.

٩- تمام عدل الله عز وجل وحكمته، فلا يعذب أحداً إلا بعد الإنذار لهم، والإعذار إليهم، وإقامة الحجة عليهم؛ ولهذا أنزل القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة؛ إنذاراً للناس وتحذيراً لهم من عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

١٠- أن من لازم الإنذار تبليغ التكاليف، التي من خالفها استحق ما أنذر وحذر منه من الوعيد والعذاب، ومن امتثلها نجا من ذلك، بل وفاز بالبشرى والثواب؛ ولهذا اكتفى هنا بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

١١- عظم شأن ليلة القدر، ومن ذلك أنه يفرق ويفصل فيها من اللوح المحفوظ إلى الصحف التي بأيدي الملائكة كل أمر محكم متقن مما يجري في السنة؛ من الأرزاق والأقدار والأعمال والآجال، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

١٢- أن كل ما يفرق ويفصل في هذه الليلة المباركة، ويقدر من الأوامر، هو محكم متقن، وبأمر الله تعالى وإذنه الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. **عِنْدَنَا**.

١٣- الامتنان بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ رحمة منه عز وجل للخلائق، وإقامة للحجة على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ **رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ**.

١٤- إثبات صفة الرحمة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷻ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له،

وإضافة اسم الرب عز وجل إلى ضميره ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ رَّبِّكَ.

- ١٦- إثبات اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي: «السمع» و«العلم»  
الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
- ١٧- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفتي: «السمع»  
و«العلم» له عز وجل كمال إلى كمال.
- ١٨- أن السمع من أعظم وسائل العلم؛ لهذا قُدِّم عليه.
- ١٩- إثبات ربوبيته عز وجل العامة لجميع المخلوقات، وذلك يستلزم إفراده عز  
وجل بالإلهية؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٧) لَا  
إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾.
- ٢٠- أنه إنما يستدل بربوية الله تعالى لجميع المخلوقات على إلهيته لها أهل اليقين  
والتصديق الجازم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.
- ٢١- أنه لا إله ولا معبود للخلق بحق سوى ربه الذي خلقهم وخلق جميع  
المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.
- ٢٢- قدرته عز وجل التامة على الإحياء والإماتة؛ لقوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.
- ٢٣- التعريض بتقليد المشركين لأبائهم الأولين في عبادة الأصنام، وترك عبادة  
الله، وهم وإياهم كلهم مربوبون لله.
- ٢٤- ذم المشركين لما هم عليه من الشك والتكذيب، واعتبار الحياة لعباً وهوياً؛  
لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (١).
- ٢٥- تسلية النبي ﷺ، وتثبيت قلبه، وأمره بترقب تعذيب المكذبين له بدخان  
مبين، يغشى الناس، وعذاب أليم، وتهديدهم ووعيدهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ  
يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١).
- ٢٦- إثبات الدخان، وهو من علامات الساعة كما جاء في الأحاديث الصحيحة،  
مثل: حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن  
نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر  
آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن

مريم عليها السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم» (١).  
وقد اختلف المفسرون: متى ذلك؟ فمنهم من قال: إنه وقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.  
قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام» (٢).

وعن مسروق قال: جاء إلى عبدالله رجل، فقال: تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه، يفسر هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠)، قال: يأتي الناس يوم القيامة دخان، فيأخذ بأنفاسهم، حتى يأخذهم منه كهيئة الزكام، فقال عبدالله: من علم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم، إنما كان هذا أن قريشاً لما استعصت على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجذب، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، حتى أكلوا العظام! فأتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فقال: يا رسول الله، استغفر الله لمضرب؛ فإنهم قد هلكوا. فقال: «لمضرب؟! إنك لجريء». قال: فدعا الله لهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٥). قال: فمطروا، فلما أصابتهم الرفاهية قال: عادوا إلى ما كانوا عليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ (١٦)، قال: يعني: يوم بدر» (٣).

وفي رواية: «ثم قرأ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الآيات التي تكون قبل الساعة ٢٩٠١، وأبو داود في الملاحم، أمارات الساعة ٤٣١١، والترمذي في أبواب الفتن، ما جاء في الخسف ٢١٨٣، وابن ماجه في الفتن، باب الآيات ٤٠٥٥، وأحمد ٦/٤، ٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ٤٨٢٥، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان ٢٧٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ٤٨٢١، ومسلم في صفة القيامة، باب الدخان ٢٧٩٨.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾، قال عبدالله: أفيكشّف عنهم العذاب يوم القيامة؟ والبطشة الكبرى: يوم بدر» (١).

وقد ذهب إلى أن: الدخان قد مضى جمع من التابعين وغيرهم، واختاره الطبري (٢). وقال بعضهم: إن الدخان من الآيات المنتظرة التي تسبق قيام الساعة، وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد صحيح؛ كما قال عبدالله بن أبي مُليكة، قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم، فقال: «ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت» (٣).

وهذا القول مروى عن علي (٤) وحذيفة وأبي مالك الأشعري رضي الله عنهم، وطائفة من التابعين (٥).

قال ابن كثير (٦): «وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التي أورثناها، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٠)، أي: بين واضح يراه كل أحد.

وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه: إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾، أي: يتغشاهم ويعمهم، ولو كان أمرًا خياليًا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾. والأظهر - والله أعلم - أن الدخان من أمارات الساعة المنتظرة، وعليه يدل ظاهر

(١) أخرجه البخارى ٤٨٢٣.

(٢) انظر: «جامع البيان» ١٤/٢١ - ١٨، و«تفسير ابن كثير» ٧/٢٣٣.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٢١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٨٨.

(٥) أخرجه عنهم الطبري ٢/١٩، ٢٠.

(٦) في «تفسيره» ٧/٢٣٥، وانظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٦ - ٧.

سياق الآيات مع الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك.

٢٧- شدة عذاب هذا الدخان، وغشيانه للناس، وعلوه عليهم، وإحاطته بهم، وإيلامه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١).

٢٨- سؤال المعذّبين كشف العذاب عنهم، ووعدهم بأن يؤمنوا؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٢)، وهذا يحتمل طلبهم كشف العذاب عنهم، وإرجاعهم إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيئات لهم ذلك.

ويحتمل أنهم لما رأوا العذاب في الدنيا طلبوا كشفه. والأول أولى؛ ولهذا قال: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (١٣).

٢٩- بُعد من كذب بالحق وأصر على ذلك عن الإيذان حتى بعد رؤية العذاب، سواء كان ذلك في القيامة، أو عند رؤية علامات الساعة، أو قبل ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

٣٠- بيان رسالته ﷺ، وإبانتته للحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾.

٣١- تولى المشركين عن اتباعه بأبدانهم، وإعراضهم عما جاءهم به بقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾.

٣٢- زعمهم أنه ﷺ يُعَلِّمُ القرآن من غيره، يُعَلِّمُهُ بشر أو شيطان، وأنه مجنون؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ (١٤).

٣٣- أن الله عز وجل لو كشف العذاب عنهم لعادوا لما نُهِوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٥).

٣٤- وعيد المشركين المكذبين وتهديدهم بالقيامة وعذابها، والانتقام منهم ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ (١٦). وقيل: تُوعِدُوا بيوم بدر.

قال الله تعالى: ﴿ \* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَلُوْلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِعِي بَعَادِي لِئَلَّا يَكُمُ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرِكِ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونِ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَلَکِهِنَّ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَي الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَعَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ .

قوله تعالى: ﴿ \* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَلُوْلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِعِي بَعَادِي لِئَلَّا يَكُمُ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرِكِ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونِ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَلَکِهِنَّ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ .

لما توعد المشركين بالعذاب الأليم، والانتقام منهم بالبطشة الكبرى، ذكر ما أوقعه من العذاب في قوم فرعون بسبب تكذيبهم، بإهلاكهم بالغرق الموصول بعذاب النار، وإخراجهم من ديارهم، وما هم فيه من النعيم، وتوريثها بني إسرائيل. وفيه تهديد وتحذير للمشركين.

قوله: ﴿ \* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ ﴾، أي: ابتلينا واختبرنا قبل مشركي مكة ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ وهم قبط مصر، والمراد: فرعون وقومه.

﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾؛ يعني: موسى بن عمران - ذو المكانة والشرف والوجاهة عند الله، وثالث أولي العزم من الرسل بعد محمد وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

﴿ أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾، «أن»: تفسيرية أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل جر بباء محذوفة، أي: بأن أدوا إلي عباد الله؛ يعني: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم معي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

[الأعراف: ١٠٥]، وقال تعالى مخاطباً موسى وهارون: ﴿فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [طه: ٤٧].

﴿وَإِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: تعليل للأمر قبله، أو استئناف بياني، أي: إني رسول لكم أمين على إبلاغكم ما أرسلت به إليكم، من غير زيادة ولا نقصان؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ الجملة: معطوفة على الجملة التفسيرية: ﴿أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَةَ اللَّهِ﴾. والمعنى: أدوا إلي عباد الله، ولا تعلوا على الله، أي: ولا تتكبروا على الله بمخالفة أمره، وعدم الانقياد له.

﴿وَإِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بحجة واضحة، وبرهان ظاهر، وهي ما أرسله الله به من الآيات التسع البينات، وغيرها.

﴿وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، أي: استجرت واعتصمت بربي وربكم، ورب جميع الخلائق.

﴿أَنْ تَرْجُمُونَ﴾، «أن» والفعل «ترجمون» في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من أن ترجمون، أي: أن ترجمون بالقول بالسب والشتيم، أو بالفعل بالقتل.

﴿وَإِن لَّمْ تُوْمِنُوا لِي﴾، أي: وإن لم تصدقوني وتؤمنوا بما جئتكم به. ﴿فَاعْتَرِضُوا﴾، أي: فاتركوني وشأني ولا تتعرضوا لي، وسالموني إلى أن يقضي الله بيننا. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فلما أيس منهم، بعد أن طال مقامه بين أظهرهم، وأقام عليهم الحجج، ولم يزداهم ذلك إلا كفرًا واستكبارًا وعنادًا، دعا ربه عليهم:

﴿أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾: مصدر مؤول في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن هؤلاء قوم مجرمون، أي: متهادون في الإجماع والكفر؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا

لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ  
الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ [يونس: ٨٨].

﴿ فَآتِرِ بَعَادَى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ .

لما أيس موسى عليه السلام من إيمان آل فرعون، ورأى تماديهم على الإجرام ودعا عليهم، أمره الله عز وجل - استجابة لدعائه - بالخروج ببني إسرائيل والإسراء بهم، فقال:

﴿ فَآتِرِ بَعَادَى ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «فَاسِرٍ» بهمزة وصل من «سرى».

وقرأ الباقون بهمزة قطع: ﴿ فَآتِرِ ﴾ من «أسرى». يقال: «أسرى». ويقال: «سرى»، أي: سار ليلاً، وفي المثل: «عند الصباح يحمد القوم السرى».

والفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، ﴿ لَيْلًا ﴾ ظرف زمان.

والمعنى: فسِرْ بعبادي بني إسرائيل ليلاً؛ خفية من فرعون وجنوده.

﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾: تعليل للأمر بالإسراء بهم ليلاً، أو في أول الليل، أي: لأنكم

متبعون، أي: سيتبعكم فرعون وجنوده، فخر وجكم في الليل أخفى لكم، وكونه أول الليل حتى لا يتمكنوا من إدراككم واللحاق بكم.

كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي

الْمَدَائِنِ حَشِيرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ

مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٠].

﴿ وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا ﴾، «رهوًا»: مصدر في موضع الحال، أي: حال كونه رهوًا، أي:

ساكنًا منفلقًا.

قال ابن القيم: «الرهو: الساكن، شبه ذهاب حركة البحر بذهاب حركة الخيل عند

سكونها، تقول العرب: جاءت الخيل رهوًا، أي: ساكنة، فشبه البحر بها، وذلك أنه قام

فرقاه ساكنين، فقال لموسى عليه الصلاة والسلام: دع البحر ساكنًا ماؤه» (١).

(١) انظر: بدائع التفسير ٤/ ١٣٩.

وذلك بعد أن أوحى الله إليه بعدما خرج بيني إسرائيل أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، فانفلق طريقًا يبسًا، فأزلف واجتاز هو وقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ ﴿٧٧﴾ [طه: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ اصْحَبْ مُوسَىٰ إِنَّآ لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالِ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ آخَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٦].

﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾: تعليل للأمر قبله، أي: لأنهم جند مغرقون، أي: حتى يروا البحر منفلقًا منفرجًا، فيدخلوا على إثركم، فنغرقهم. وذلك أنه لما تكامل موسى وقومه خارجين من البحر، وتكامل فرعون وقومه داخلين فيه، أمره الله فالتطم عليهم وعاد إلى حاله، فغرقوا جميعًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ ﴿٧٩﴾ [طه: ٧٨، ٧٩].

قيل: إن موسى عليه السلام لما جاوز البحر هو وقومه أراد أن يضربه ليعود كما كان، فيكون حائلًا بينهم وبين فرعون وجنوده أن يلحقوا بهم، فأمره الله بتركه على حاله، وبشبهه بأنهم مغرقون.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين مزهرة، كثيرة الأشجار والشمار.

﴿وَعُيُونٍ﴾، أي: وعيون المياه من الأنهار والآبار.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: دور إقامة نفيسة واسعة، فيها المساكن والمنازل الجميلة الأنيقة، والأماكن الحسنة، وغير ذلك.

﴿وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَنَّكِهِنِ﴾ ﴿٢٧﴾، أي: وعيشة كريمة هنية كانوا فيها يتفكحون ويتنعمون بأنواع المآكل والمشرب والملابس، والمساكن والمراكب، والجاه والمال والملك العريض، وغير ذلك.

فُسلبوا ذلك كله في صبيحة واحدة، وصارت أجسادهم للغرق، وأرواحهم

للنار والحرق.

﴿كَذَلِكَ﴾، أي: كذلك تركوا هذه الجنات والعيون والمقام الكريم والنعمة التي كانوا فيها فاكهين، وسلبناها منهم، ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾، أي: ملكناها.

﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾: هم بنو إسرائيل؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتِ وَعْيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الآيات: ٥٧-٥٩]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَيْ بُدْرِكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الآية: ١٣٧].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ لما أغرقهم الله وأهلكهم؛ لأنهم لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء، فتبكي السماء على فقدها، ولا لهم أعمال صالحة في الأرض فتفقدتها، ولم يُحزن عليهم، ولم يأس أحد لفراقهم وهلاكهم؛ لأن فيه راحة للعباد والبلاد؛ كما قال ﷺ: «أسرعوا بالجنابة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مرَّ بجنابة، فقال: «مستريح ومستراح منه». قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»<sup>(٢)</sup>.

وعن سعيد بن جبير، قال: أتى ابن عباس رجل، فقال: يا ابن عباس، رأيت قول الله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن، فأغلق بابه من السماء، الذي يصعد فيه عمله،

(١) أخرجه البخاري في الجنازات ١٣١٥، ومسلم في الجنازات ٩٤٤، وأبو داود في الجنازات ٣١٨١، والنسائي في الجنازات

١٩١٠، والترمذي في الجنازات ١٠١٥، وابن ماجه في الجنازات ١٤٧٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٣، ومسلم في الجنازات ٩٥٠، والنسائي في الجنازات ١٩٣٠.

وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقدته مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض» (١).

﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾، أي: ما كانوا ممهلين ومؤخرين عن العقوبة، بل عوجلوا بها؛ لشدة كفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢).

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: أنقذناهم وخلصناهم.  
﴿مِنَ الْعَذَابِ الْأَمِينِ﴾، أي: من العذاب المذل الذي كانوا فيه ﴿مِنَ فِرْعَوْنَ﴾، بدل من العذاب بإعادة حرف الجر.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾، أي: مستكبراً جباراً؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦].

﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد في الجراءة على الله، حيث ادعى الربوبية والألوهية، وفي الأذية لعباد الله، حيث سام بني إسرائيل سوء العذاب؛ يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويسخرهم في الأعمال المهينة والشاقة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤) [القصص: ٤].

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ﴾، أي: ولقد اخترنا بني إسرائيل واصطفيناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: على علم منا بأنهم أهل للاختيار، وبحكمة منا.

﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾، أي: على عالمي زمانهم؛ كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى لمريم عليها السلام: ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، أي: في زمانها.

قال ابن القيم: «لا خلاف بين الناس أن المعنى: على علم منا بأنهم أهل للاختيار،

(١) أخرجه الطبري ٢١/٤٢، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٣٢٨٨.

فالجمله في موضع نصب على الحال، أي: اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم<sup>(١)</sup>.  
 فاختارهم الله وفضلهم على أهل زمانهم ومن قبلهم ومن بعدهم، حتى جاء الله  
 بأمة محمد ﷺ، ففُضِّلوا على العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس،  
 وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.  
 ولا ينافي اختيار الله لبني إسرائيل في زمانهم ضلال كثير منهم سلفًا وخلفًا؛ كما لا  
 ينافي تفضيل الله لهذه الأمة ضلال كثير منهم، فالمختارون المفضلون هم من كانوا على  
 الحق من الأمتين.

﴿وَأَنبِئْتَهُم مِّنَ الْآيَاتِ﴾، أي: وأعطيناهم من الآيات البيّنات، والحجج الظاهرات،  
 والمعجزات الباهرات.

﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي فيه بلاء مبين، أي: منة عظيمة  
 عليهم، واختبار بيّن ظاهر لمن يبحث عن الحق، ودلالة واضحة على صدق موسى عليه  
 السلام وصحة ما جاء به.

### الفوائد والأحكام:

١- تهديد المشركين ووعيدهم بتذكيره عز وجل إياهم ابتلاءه قبلهم قوم فرعون  
 بإرسال نبيه موسى عليه السلام إليهم بالبيّنات، وتكذيبهم له، وإهلاكهم بالغرق،  
 وسلب ما هم فيه من النعم. والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا  
 قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ الآيات.

٢- ابتلاء قوم فرعون واختبارهم بإرساله عز وجل موسى عليه السلام إليهم:  
 هل يؤمنون به أو يكفرون به ويكذبونه؟ وهو ما حصل.

٣- أن الابتلاء والامتحان يكون في الخير كما يكون في الشر؛ كما قال تعالى:  
 ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فَتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

٤- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وشرفه وكرمه ومكانته عند الله؛ لوصفه عز

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٣٩.

وجل له بقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾.

٥- طلبه عليه السلام من فرعون وقومه إرسال بني إسرائيل معه؛ لقوله: ﴿أَنْ أَدْوَأَ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ﴾ لتخليصهم من ظلم فرعون وقومه.

٦- تشریفه عز وجل لبني إسرائيل بوصفهم بعبوديته الخاصة.

٧- بيان موسى عليه السلام أمانته فيما أرسل به. وفيه: أنه لا مانع من ثناء الرسول على نفسه بالأمانة ونحو ذلك؛ ليصدقه قومه؛ لقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

وقد يجوز ذلك لغير الرسول إذا كان فيه مصلحة، ولم يترتب عليه محذور.

٨- تحذيره عليه السلام قوم فرعون من العلو والتكبر على الله ومخالفة أمره؛ لقوله: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾.

٩- إقامته عليه السلام الحجة عليهم بالآيات البينات، والبراهين القاطعات؛ لقوله: ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ﴾.

١٠- تعوذه عليه السلام بربه وربهم منهم أن يرهقه سباً وشتماً أو قتلاً؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾.

١١- أنه لا معاذ ولا ملاذ من جميع الشرور إلا بالله عز وجل.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبَّهُ﴾.

١٣- تنازله عليه السلام بطلبه منهم- إن لم يؤمنوا به ويصدقوه- أن يعتزلوه، ويتركوه، ولا يتعرضوا له؛ لقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لِي﴾.

١٤- يأسه عليه السلام منهم، ودعاؤه عليهم بسبب تماديهم بكفرهم وإجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَكَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾.

١٥- جواز الدعاء على المجرمين المستكبرين الصادقين عن دين الله، المؤذنين لأولياء الله.

١٦- استجابته عز وجل دعاء موسى عليه، وأمره بالإسراء لبني إسرائيل ليلاً وخفية، وإخباره باتباع فرعون وجنوده لهم؛ تحذيراً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا

إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ .

١٧- أمره عز وجل له بترك البحر ساكنًا منفلقًا على حاله بعد أن أزلف وجاوز هو وقومه؛ ليكون مصيدة لفرعون وجنوده يدخلونه على أثرهم فيلتطم عليهم فيغرقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

١٨- قدرة الله تعالى التامة، وآية من آياته العظيمة، التي آتاها لموسى عليه السلام بأمره له أن يضرب البحر بعصاه فينفلق ويصير طريقًا يبسًا؛ ليعبر موسى وقومه، ومن ثم أطبقه على فرعون وقومه.

١٩- سلب قوم فرعون كل ما كانوا فيه من النعيم، من الجنات والعيون، والزرع والمقام الكريم، والعيش الذي كانوا فيه فاكهين؛ لقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

٢٠- توريث بني إسرائيل كل ما كان فيه قوم فرعون من النعيم والجنات، والملك والخيرات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ .

٢١- حقارة قوم فرعون وهوانهم على الله تعالى، فلم تبك على هلاكهم السماء والأرض، ولم يأس أحد عليهم، بل استراح منهم العباد والبلاد؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴿٢٢﴾﴾ .

وهكذا حال كل من مات من أهل الكفر والضلال، فهو كما يقال: حجر أو حصاة زالت عن درب المسلمين.

٢٢- أن السماء والأرض تبكي على فقدان أهل الإيمان والخير؛ لمفهوم قوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴿٢٣﴾﴾ .

ولهذا فسر بعض المفسرين قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴿٤١﴾﴾ [الرعد: ٤١] بموت العلماء.

٢٣- تعجيل عقاب فرعون وقومه وإهلاكهم، وعدم تأجيلهم وإنظارهم؛ لشدة كفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ .

٢٤- الامتنان على بني إسرائيل بإنقاذهم وتخليصهم من العذاب المذل لهم، الذي

كان يسومهم به فرعون؛ من تقتيل أبنائهم، واستحياء نساءهم، وتسخيرهم بالأعمال الحقيرة والشاقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ ۗ﴾.

٢٥- شدة علو فرعون واستكباره وكفره، ومجاوزته الحد في الجرأة على الله، وفي

الأذية لعباد الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ۗ﴾.

٢٦- اختيار الله واصطفاءؤه لبني إسرائيل بعلمه وحكمته على عالمي زمانهم؛ لقوله

تعالى: ﴿وَلَقَدْ آخَرْنَا نُهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

٢٧- إعطاؤهم من الآيات البينات، والحجج الظاهرات، ما فيه منة عظيمة

عليهم، واختبار بيّن لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيِّنُّهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتُوا مُبِينًا ﴿٣٣﴾﴾.

٢٨- أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٥﴾﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن هؤلاء المشركين المكذابين المنكرين للبعث والمعاد ليقولون:

﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ﴾، «إن»: نافية، بمعنى «ما»: و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة أخرى بعد المات؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقالوا: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجنانية: ٢٤].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، أي: وما نحن بمبعوثين، أي: فلا حياة سوى هذه الحياة الدنيا، ولا معاد، ولا بعث، ولا نشور، ولا حياة أخرى، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار.

﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا﴾، أي: أحيوا لنا آباءنا وأجدادنا الميتين السابقين.

﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن هناك نشورًا وبعثًا وحياة أخرى.

وهذه حجة باطلة، وشبهة فاسدة؛ فإن المعاد الموعود به إنما هو يوم القيامة، لا في هذه الحياة الدنيا، بل بعد انقضائها، وموت جميع أهلها، يعيدهم الله خلقًا جديدًا.

﴿أَهْمَ خَيْرٌ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتهديد والتحذير، و«أم»: حرف عطف.

﴿قَوْمٌ تُبِيعَ﴾ هم: حمير وسبأ سكان اليمن وحضر موت، و«تبع»: ملكهم، قيل: إنه

قد أسلم. وكانوا كلما ملك فيهم رجل سموه: «تبعاً»؛ كما يقال قيصر: لمن ملك الروم، وكسرى: لمن ملك الفرس، وفرعون: لمن ملك مصر، والنجاشي: لمن ملك الحبشة.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بأنواع العقوبات، فقوم تبع - وهم سبأ - أرسل عليهم سيل العرم فخرب بلادهم، فتشرذوا في البلاد كل مشرد، وتفرقوا شذر مذر. وأخذ غيرهم من الأمم كل منهم بذنبه؛ كما قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ الجملة: مستأنفة، وفيها معنى السببية، أي: بسبب أنهم كانوا مجرمين، أي: مرتكبين للإجرام والكفر، والتكذيب للرسول، والإنكار للبعث، وغير ذلك. والمراد: أن مشركي قريش ليسوا خيرًا من قوم تبع ومن قبلهم من الأمم الذين أهلكتهم الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيِّكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، أي: أن كفاركم ليسوا خيرًا من أولئك المهلكين والمعذبين قبلهم من الأمم بسبب كفرهم وتكذيبهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا﴾ (٣٨) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤١) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٢):

لما ذكر إنكار المشركين للبعث والنشور والحساب، أتبع ذلك ببيان كمال قدرته وحكمته وعدله، وتنزهه عن اللعب والعبث واللهو والباطل، وأنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق، ولإقامة الحق والعدل.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: ما أوجدنا السموات والأرض على عظمها وما بينهما من المخلوقات.

﴿لَعِينًا﴾ حال، أي: ما خلقناهما لعبًا وعبثًا وباطلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، «إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة، أي: إلا بالحق والعدل، وهو أن يُعبد الله وحده لا شريك له، ويُتَّقَى بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى

عنه، ويشيب العباد ويجازيهم بأعمالهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّتٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

قال ابن القيم بعدما ذكر الأقوال في تفسير «الحق»: «والصواب: أن الحق هو إلهيته وحكمته المتضمنة للخلق والأمر والثواب والعقاب، فمصدر ذلك كله الحق، وبالحق وجد، وبالحق قام، وغايته الحق، وبه قيامه، فمحال أن يكون على غير هذا الوجه؛ فإنه يكون باطلاً وعبثاً، فتعالى الله عنه لمنافاته إلهيته وحكمته، وكمال ملكه وحمده»<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: ولكن أكثر الخلائق لا يعلمون ولا يفهمون ولا يعون هذه الحقيقة، ولا يتفكرون في خلق السموات والأرض، فيعتقدون أن الأمر لعب وعبث وهزل، وفي هذا تعريض بتوبيخ المشركين الذين أنكروا البعث والنشور؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٤﴾ [الفرقان: ٤٤].

وما أكثر الخلق الذين حسبوا الأمر عبثاً وهزلاً وباطلاً وهوياً، وغفلوا عما خلقوا من أجله، وعاشوا حياتهم كالبهائم بل هم أضل، وقد أحسن القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له      فاربأ بنفسك أن ترعى من الهمل<sup>(٢)</sup>

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح      فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح<sup>(٣)</sup>

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، أي: يوم القيامة، الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، فيقتص فيه

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/١٤٢، وانظر: ٤/١٣٩.

(٢) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص ١٢٤.

(٣) البيت لشنوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقبال اليمن» ص ١.

للمظلوم من الظالم، ويجازيهم جميعاً بأعمالهم، ففريق في الجنة، وفريق في السعير.

﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: وقت جمعهم أجمعين، الأولين والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

﴿يَوْمٍ﴾، «يوم»: بدل من «يوم الفصل»، ﴿يُعْنِي﴾: ينفع ويشفع، ﴿مَوْلَى﴾: قريب أو حليف أو صديق وصاحب، ﴿عَنْ مَوْلَى﴾، أي: عن قريبه وحليفه وصديقه وصاحبه، أي: يوم لا ينفع قريب قريبه، ولا حليف حليفه، ولا صديق صديقه، ولا صاحب صاحبه.

﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا يغني مولى عن مولى أي شيء من الغناء، لا قليلاً ولا كثيراً؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصِرُونَ ﴿١١﴾﴾ [المعارج: ١٠، ١١].

﴿وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم، أو منعه، أو رفعه، لا من قريب ولا بعيد، ولا من صديق ولا حبيب.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾، «إلا»: أداة استثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي رحمه الله من عباده فوفقه للإيمان به وطاعته؛ فإنه ينتفع ويرتفع برحمة الله، وينصره ويقيه عذابه.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الجملة: تعليل لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾، أي: إنه ذو العزة التامة والقوة والقهر والغلبة، الذي لا يمتنع عليه شيء، وذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي.

### الفوائد والأحكام:

- ١- إنكار المشركين للبعث والنشور، والدار الآخرة والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.
- ٢- بطلان احتجاجهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وتحديدهم للرسول بذلك؛ لأن البعث الموعود به ليس في الدنيا، بل يوم القيامة، بعد انقضاء الدنيا كلها.
- ٣- تهديدهم بما وقع لقوم تبع والذين من قبلهم؛ حيث أهلكهم الله بسبب

إجرامهم، وليسوا خيراً منهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِذْ هُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٣٧)، والسعيد من وعظ بغيره.

٤- التحذير من الإجمام والكفر، وأن ذلك سبب الإهلاك.

٥- انتفاء أن يكون عز وجل خلق السموات والأرض وما بينهما لعباً وعبثاً

وباطلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ (٢٨).

٦- تنزهه عز وجل عن اللعب والعبث واللهو والباطل.

٧- أنه عز وجل إنما خلق السموات والأرض بالحق والعدل، وإقامة الحق

والعدل، وهو أن يُعبد وحده لا شريك له، ويُتقى ويطاع، ويجازي العباد على أعمالهم

خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

٨- أن أكثر الخلائق لا يفهمون ولا يعون ولا يتفكرون في حقيقة حكمة الله في

خلق السموات والأرض وما بينهما، ولا في حكمة خلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم لا يعلم حقيقة ما خلقوا له.

١٠- إثبات يوم القيامة، وأنه ميقات الخلائق أجمعين للفصل بينهم، ومجازاة كل

منهم بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٠).

١١- أنه في ذلك اليوم لا ينفع قريب قريبه، ولا صديق صديقه، ولا حليف

حليفه، ولا ناصر للمعذنين يدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَن

مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤١).

١٢- أن من رحمه الله فوفقه للإيمان والعمل الصالح فهو المنتفع، المنصور بنصر

الله، الناجي من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾.

١٣- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة لأوليائه المتقين، وحزبه المفلحين.

١٤- إثبات اسميه عز وجل: «العزیز» و«الرحیم»، وتمام عزته، وواسع رحمته؛

لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي مَقَامٍ آمِنٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّقَلِيلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْتَهُمْ بِيُحُورٍ عَيْنٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَكَهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّامٍ زَبَّكٌ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزُقُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْزُقْتُمْ أَنَّهُمْ مَرْزُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

لما ذكر فريق المكذبين المعذبين، وفريق المرحومين الناجين، ويين أن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين، شرع في تفصيل جزاء كل منهم، فقال:

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ شجرة الزقوم: شجرة تخرج في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦١﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥].  
﴿طَعَامٌ ﴿٤٤﴾﴾، أي: غذاء ومأكل ﴿الْأَثِيمِ ﴿٤٣﴾﴾، أي: الكافر الفاجر، ذي الإثم الكبير، والذنوب الكثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَاتَّهَمُوا لَأَكُونَ مِنْهَا فَمَا لَوَّنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦٦].  
﴿كَالْمُهْلِ ﴿٤٥﴾﴾، أي: كالمعدن المذاب أو عكر ودُرْدِيّ الزيت المغلي.

﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾ قرأ ابن كثير وحفص ورويس بالياء على التذكير: ﴿يَغْلِي﴾، وقرأ الباقون بالياء على التأنيث: ﴿تَغْلِي﴾.

﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، أي: كغليان الحميم، وهو الماء الحار الذي بلغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابِمًا حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات: ٦٧].

﴿حُدُوهُ﴾، أي: يقال للملائكة من زبانية جهنم: ﴿حُدُوهُ﴾، أي: خذوه بقوة وشدة.

﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب بضم التاء: «فَاعْتَلُوهُ»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾، أي: فجرروه وسوقوه وقودوه وادفعوه بعنف، بلا هوادة ولا رحمة.

﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾، أي: إلى وسط الجحيم، وأشدّها حرارة.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (٤٨)، أي: الماء الحار الذي بلغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) [الحج: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتُونَ (٤٤) [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، أي: ماء بلغ غاية الحرارة.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩) قرأ الكسائي بفتح الهمزة: «أَنَّكَ»، على تقدير لام التعليل، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿إِنَّكَ﴾، أي: قولوا له، أو يقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٤٩)، الأمر للتقريع والتوبيخ والتهكم والسخرية، أي: ذق هذا العذاب الأليم؛ ﴿إِنَّكَ﴾ بزعمك ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القوي الممتنع من عذاب الله، ﴿الْكَرِيمُ﴾ على الله فلا يعذبك، أي: لست بعزيز ولا كريم، بل إنك أنت الذليل الحقير المهين الخسيس.

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾، أي: يقال لهم هذا على سبيل التقريع والتوبيخ، أي: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي كنتم به تشكون؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (١٢) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) [الطور: ١٣-١٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكَّةٍ ءَامِنِينَ (٥٥) لَا يَدْخُلُونَهَا فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ وَوَقَّهْمَ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)

فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾:

لما ذكر عذاب الكفرة الآثمين، أتبع ذلك بذكر نعيم المتقين، على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين اتقوا الله بقلوبهم وجوارحهم، وامثلوا أمره واجتنبوا نهيه، ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر: «مُقَامٍ» بضم الميم، وقرأ الباقون بفتح الميم: ﴿مَقَامٍ﴾.

﴿أَمِينٍ﴾، أي: آمن، قد جمع صفات الأمن كلها، وانتفت عنه جميع المخاوف، فلا موت ولا هرم ولا مرض، ولا جوع ولا عطش، ولا هم ولا غم ولا حزن، ولا خروج منه، ولا زوال له. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من ﴿فِي مَقَامٍ﴾ مع إعادة الجار، وهو تفسير وبيان له، أي: في مقام أمين، وهي جنات وعيون.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ بعدما ذكر نعيم مكانهم بأمنه، ذكر نعيم أجسادهم. والسندس: رقيق الديباج والحري، يُلبس مما يلي الجسم؛ لنعومته، والإستبرق: غليظ الديباج والحري، يلبس ظاهرًا فوق السندس.

﴿مُنْقَلِبِينَ﴾، أي: يقابل بعضهم بعضًا في مجالسهم على السرر بقلوبهم ووجوههم وأبدانهم؛ لتام ألفتهم، ومحبة بعضهم لبعض، وحسن أدهم وطمانيتهم، فلا أحد يدير ظهره وقفاه لأخيه.

﴿كَذَلِكَ﴾، أي: ومع هذا النعيم العظيم، والسرور التام ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾. حور: جمع حوراء، و«الحور»: مأخوذ من الحور في العين، وهو شدة بياضها مع قوة سوادها.

و«العين»: جمع عيناء، أي: اللاتي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة. فالحوراء: المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء، شديدة سواد العين وبياضها، قال

تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ الجملة حالية، أي: يدعون في الجنة، أي: يطلبون فيها ﴿بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ﴾، أي: فمهما طلبوا من أنواع الفواكه والثمار أحضر لهم.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم آمنين من انقطاع ما هم فيه من التفكه، وآمنين من ضرره، وآمنين من كل مكدر من الخروج منها أو الموت، وغير ذلك، ولهذا قال:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ حال أخرى، أي: لا يذوقون في الجنة الموت، أي: لا يموتون؛ كما جاء في حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَتُودُوا أَنْ تُلَكُّمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾» (١).

وفي الحديث الآخر: أنه يؤتى بالموت فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: «يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» (٢).

﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾، «إلا»: أداة استثناء، ﴿الْمَوْتَةَ﴾ منصوب على الاستثناء المنقطع، أي: لكن الموتة الأولى، وقد ذاقوها في الدنيا، وفي هذا تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وتنصيب على العموم.

قال ابن القيم: «فهذا الاستثناء لتحقيق دوام الحياة، وعدم ذوق الموت، وهو يجعل النص العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة.

وقال أيضًا: «فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد والتنصيب على حفظ العموم، وهذا جارٍ في كل منقطع» (٣).

﴿وَوَقَّهَتْهُمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، أي: ووقاهم ربهم - مع هذا النعيم العظيم المقيم - أي: سلمهم ونجاهم وكفاهم، عذاب الجحيم، فجمع لهم بين حصول المطلوب والمحبوب، وزوال المكروه والمرهوب، فكمل بذلك نعيمهم؛ ولهذا قال:

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٧، والترمذي في التفسير ٣٢٤٦.

(٢) سبق تحريجه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٤٤.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: هذا النعيم والوقاية من عذاب الجحيم تفضلاً وتكرماً عليهم، وإحساناً منه إليهم، لا باستحقاقهم ذلك بعملهم، فهو الذي وفقهم للإيمان والعمل الصالح، وأثابهم عليه بالثواب الجزيل.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فضلاً مني؛ تعظيماً لنفسه عز وجل، وتشريفاً له

ﷻ.

﴿ذَلِكَ﴾، أي: ذلك التفضل منه عز وجل، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ و«هو»: ضمير فصل للتوكيد والحصص، أي: ذلك الفضل هو الفوز العظيم وحده، الذي لا أعظم منه، وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والنجاة من سخطه وعذابه.

و«الفوز»: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي لا يعلم قدر عظيمته إلا من تفضل به عليهم. ووصفه بالعظيم، وهو العلي العظيم.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾، «إنما»: كافة ومكفوفة، أي: فإنما يسرنا القرآن الذي أنزلناه عليك ﴿بِلِسَانِكَ﴾، أي: جعلناه ميسراً سهلاً، واضحاً بيناً ﴿بِلِسَانِكَ﴾ الذي هو أفصح اللغات وأعلاها وأوسعها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتذكروا ويتفهموا ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره، ويعملوا به.

وقد بدأ عز وجل السورة بالامتنان بإنزال القرآن الكريم، وختمها بالامتنان بتيسيره؛ تعظيماً له، وتنويهاً بشأنه.

﴿فَأَرْتَقِبْ﴾، أي: انتظر وعد ربك بالنصر والتمكين لك، وإهلاكهم.

﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾، أي: منتظرون موتك ليتخلصوا منك، ومنتظرون ما سيحل بهم من عذاب الله تعالى الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

وفي ختام السورة بهذا: إشارة إلى أنه مع تيسير القرآن ووضوحه وبيانه، فقد كذب الكثيرون منهم وعاندوا؛ كما أن فيه تسلياً له ﷻ، ووعيداً وتهديداً للمكذبين من قومه.

كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٦١﴾ [المجادلة: ٢١]،  
وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا  
يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

### الفوائد والأحكام:

١- الوعيد والتهديد للكفار الآثمين بأن طعامهم في النار شجرة الزقوم، كالمهل  
تغلي في بطونهم غليان الماء الحار الذي قد بلغ غاية الحرارة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ  
الزَّقُومِ﴾ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثِيرِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ الآية.  
٢- آية من آيات الله تعالى، ودلالة عظيمة على قدرته التامة: نبات شجرة الزقوم  
وخروجها في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤].  
وقد أحسن الشاعر في قوله:

من ظاهر الحكم الكبرى وباطنها هذا السحاب به ماء به نار<sup>(١)</sup>

٣- أخذهم وسحبهم وإهانتهم، وسوقهم بقوة وعنف إلى وسط النار، وصب  
عذاب الحميم فوق رؤوسهم؛ لقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ  
صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾.

٤- تقريعهم وتوبيخهم والتهكم بهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ  
الْكَرِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾.

٥- إذلالهم وإهانتهم، وتحطيم معنوياتهم، وإسقاط ما كانوا يزعمون لأنفسهم من  
العزة والكرامة؛ لقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾.  
وهذا عذاب معنوي لا يقل عن العذاب الحسي.

٦- تبيخهم وتقريعهم بوعيد الله لهم بالعذاب، وتكذيبهم بذلك؛ ليزدادوا حسرة  
وندامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾.

(١) البيت لوليد الأعظمي، شاعر عراقي من قصيدة له في كتابه «الزوابع».

٧- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فبعد أن ذكر عذاب

الكفرة الأثمين، ذكر نعيم المتقين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١) الآيات.

٨- بشارة المتقين في مقام أمين، يأمنون به من جميع المخاوف والشور، ويتنعمون

فيه بأصناف النعيم، وهو الجنات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١) فِي جَنَّاتٍ

وَعُيُوتٍ ﴿٥٢﴾.

٩- عظم أمر الأمن في المقام؛ لهذا قدمه في الذكر على أنواع النعيم الأخرى؛ لأن

النعيم كله لا قيمة له بدون الأمن، فليت قومي يعلمون.

١٠- تنعم أجسادهم بأفضل اللباس وأنعمه، وأجمله وأحسنه؛ لباس السندس

والإستبرق؛ لقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

١١- سلامة قلوبهم، وتمام ألفتهم، ومحبة بعضهم بعضاً، وجلسهم متقابلين

بقلوبهم ووجوههم وأبدانهم، فلا أحد منهم يدير قفاه وظهره للآخر؛ لقوله تعالى:

﴿مُتَقَابِلِينَ﴾.

١٢- أن من تمام نعمة الله تعالى عليهم: تزويجهم بحور عين في غاية الحسن

والجمال؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (٥٤).

١٣- أنهم مهما طلبوا من أنواع الفواكه والثمار أحضر لهم مع الأمن من انقطاعه

وضرره، ومن جميع المخاوف؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ (٥٥).

١٤- خلودهم الأبدي في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا

الْمَوْتَ الْأُولَىٰ﴾.

وقد أخذ بعض أهل العلم من هذا: أن أهل الجنة لا ينامون؛ لأن النوم أخو

الموت، وهو الموتة الصغرى. وهذا قريب.

١٥- وقايته عز وجل إياهم من عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ

الْجَحِيمِ﴾.

١٦- أن تمام الفوز إنما يكون بحصول المطلوب؛ من أمن المكان، وتوافر النعم

ودوامها، وبزوال المرهوب، وهو الخوف من الموت أو العذاب، أو انقطاع النعم، وهو

ما وعد الله به المتقين في هذه الآيات.

١٧- أن ما منَّ الله به على المتقين بحصولهم على كل مطلوب محبوب، وسلامتهم ونجاتهم من كل مكروه مرهوب، هو بفضله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٨- أن الإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب للفوز بالنعيم والثواب، وليس هو عوضًا عن ذلك كما يقول المعتزلة؛ لأن حصول الفوز إنما هو برحمة أرحم الراحمين عز وجل؛ كما قال ﷺ: «لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»<sup>(١)</sup>.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷻ، وتشريفه بإضافة اسم «الرب» إليه؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٠- أن الفوز العظيم الذي لا أعظم منه: تفضله عز وجل على العبد بإدخاله الجنة، يتمتع فيها بأصناف النعيم، ووقايته إياه من عذاب الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٢١- أنه لا يُقدَّر قدر هذا الفوز العظيم إلا من وصفه بـ«العظيم»، وهو العلي العظيم سبحانه وتعالى.

٢٢- الامتنان على العباد بتيسير القرآن الكريم وتسهيله بلسانه ﷻ العربي المبين؛ لأجل أن يتذكروا ويتفهموا ألفاظه ومعانيه وأحكامه، ويعملوا به؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْئِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَالَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٢٣- تشريفه ﷻ بخطاب الله تعالى له، وجعل القرآن بلسانه ولسان قومه العربي؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

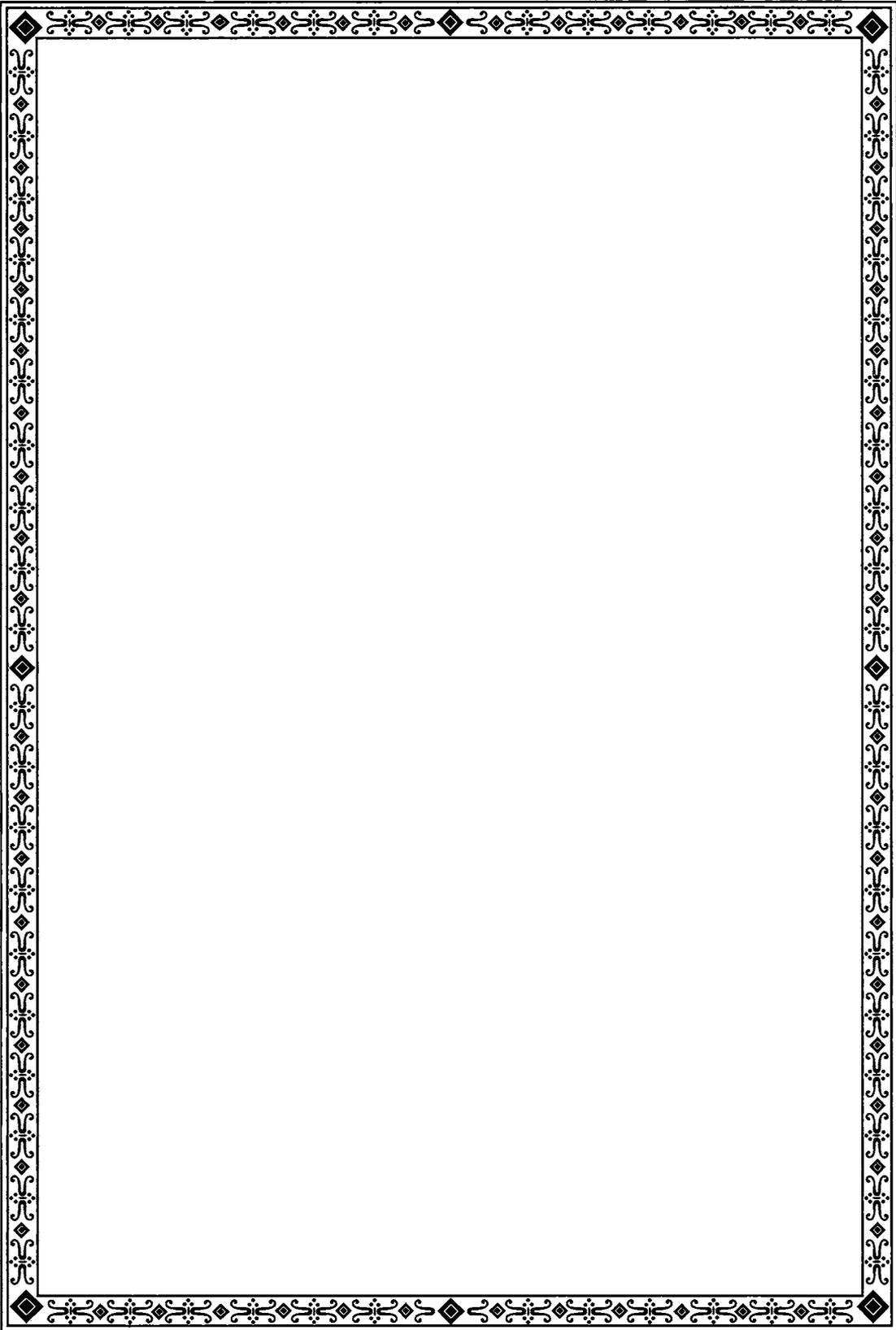
٢٤- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله وأحكامه الشرعية والقدرية؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَالَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

(١) سبق تحريجه.

٢٥- تسليته ﷺ، وثبتت قلبه بحصول ما وعده الله به من النصر والتمكين، وإهلاك الكاذبين له، وتهديدهم ووعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَزَقْنَا عَنْهُمْ أَزَقَآءَ مَرِّ قَبْوَنَ ﴿٥١﴾﴾.

\* \* \*

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الجاثية»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْجَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾. ويقال لها: سورة «حم الجاثية».

وتسمى: «سورة شريعة»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعهَا ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨]، و «سورة الدهر»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴿١١﴾﴾ [الجاثية: ١١].

## ب- مكان نزولها:

مكية

## ج - موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بتعظيم القرآن وبيان إعجازه، وتعظيم مُنزله عز وجل:

﴿حَمَّ ﴿١﴾ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

٢- التنبيه على آيات الله تعالى المنتشرة في الكون في السموات والأرض، وفي خلق بني آدم وجميع الدواب، وفي اختلاف الليل والنهار، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وتصريف الرياح: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْتَلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فِآيَاتٍ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

٣- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لكل أفاك أثيم مستكبر يسمع الآيات وكأنه لم يسمعها، ويستهزئ بها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنْتَلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ءَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّنْ زُرَّابِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هٰذَآ هُدًىٰ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

٤- تعداد بعض نعمه تعالى على العباد سخر لهم البحر والسموات والأرض:  
 ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَكُمْ فِي شُكْرِهِ ﴿١٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي  
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

٥- أمر الذين آمنوا بالمغفرة للذين لا يرجون أيام الله ولا يؤمنون، وبيان أن كلاً  
 سيجازي بعمله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا  
 يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۗ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٦- ذكر نعمته عز وجل على بني إسرائيل بما آتاهم من الكتاب والحكم والنبوة  
 وغير ذلك، واختلافهم من بعد ما جاء العلم بغيا بينهم والوعيد لهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ۗ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ  
 مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَبِغُهُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٧- الامتنان على النبي ﷺ بما أعطاه الله من الشريعة السمحة، والقرآن الذي هو  
 بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا  
 تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ  
 بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هٰذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٨- كمال عدل الله تعالى، خلق السموات والأرض بالحق والعدل؛ وإقامة العدل:  
 ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُم كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَّجْيَاهُمْ  
 وَمَمَاتُهُمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ۗ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۗ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا  
 كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٩- لا هادي من بعد الله لمن اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه  
 وقلبه، وجعل على بصره غشاوة: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ  
 وَقَلْبِهِ ۗ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ ۗ  
 نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۗ إِنَّمَا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا  
 كَانُ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا ۖ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُمِيسِكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمٍ

الْقِيَمَةَ لَارِيْبَ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ .

١٠- بيان اختصاصه عز وجل بملك السموات والأرض، وخسران المبطلين يوم القيامة، وشدة ذلك اليوم، وجثو الأمم فيه، ووعدهم الذين آمنوا بالفوز العظيم ووعدهم الذين كفروا بالتوبيخ والخلود في النار: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِرُ يَحْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٣٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴿٣٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِرِينَ ﴿٤١﴾ وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٢﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَخُكُمْ كَمَا نَسَخْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَكَلْنَا النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصْرِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَعَرَّضْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ ﴿٤٤﴾ .

١١- اختصاص الله عز وجل بالحمد والكبرياء في السموات والأرض؛ لكمال

ربوبيته، وعزته، وتمام حكمه، وبالغ حكمته: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ .

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٢ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٣ وَأَخْتَلَفُ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَضَرِّيفُ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَعَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٥ وَذَلِّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَلْمِيزٌ ٦ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٨ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٩ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجِيمِ السَّمَاءِ ١٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٢ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٣ وَأَخْتَلَفُ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَضَرِّيفُ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤﴾ :

قوله: ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴿١﴾ سبق الكلام على هذا في سورة غافر. ﴿الْحَكِيمِ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة.

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: إن في السموات والأرض التي هي من أعظم المخلوقات، وما بينهما وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والحيوانات والجمادات، وغير ذلك من الليل والنهار، والشمس والقمر، والجبال والأشجار، والمعادن والنباتات، والبحار والأنهار، وغير ذلك.

﴿لَآيَاتٍ﴾، اللام: للتوكيد، أي: لدلائل واضحات على تمام قدرة الله تعالى، وعظيم آلائه ونعمه، وصحة كتابه، ووحدانيته.

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: للمؤمنين خاصة، الذين يصدقون بآيات الله ويتنفعون بها؛ ولهذا خصهم الله دون غيرهم.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: وفي خلقكم أيها

الناس ﴿وَمَا يُبْدُءُ﴾، «ما»: اسم موصول في محل جر معطوف على «خلقكم»، أي: وخلق الذي يبث، أي: ينشر ويفرق ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ الدابة: اسم لكل ما يدب على الأرض من الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوَدَّعَهَا كُلِّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿ءَايَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب بكسر التاء في الموضعين: «آياتٍ»، وقرأ الباقون برفعها: ﴿ءَايَاتٍ﴾.

أي: وفي خلقكم أيها الناس، وخلق الذي يبث وينشر في الأرض من جميع الدواب، دلائل على كمال عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام نعمته وقدرته على البعث.

﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي: لقوم يصدقون تصديقًا جازمًا بآيات الله تعالى، ويعتبرون بها، ويعملون بها.

﴿وَأَتَخَلَّفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾: معطوف على «خلقكم»، أي: وفي اختلاف الليل والنهار، أي: تعاقبها دائبين لا يفتران؛ هذا بظلامه، وهذا بضياءه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، «ما»: اسم موصول في محل جر، عطفاً على «خلقكم»، أي: وفي الذي أنزل الله، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي: من السحاب، ﴿مِنْ رِزْقٍ﴾ من مطر، وسماه: رزقاً؛ لأنه سبب الرزق؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ الباء: للسببية، أي: فأحيا بسببه الأرض بالنبات والخضرة. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعد أن كانت ميتة يابسة هامدة جرداء، لا نبات فيها ولا شيء.

﴿وَصَرَّفِ الرِّيحَ﴾ معطوف على «خلقكم»، أي: وتقلب الرياح في مهاها من اتجاه إلى آخر، لمصالح العباد ومنافعهم، في أنفسهم، ومواشيهم، وحروثهم، وغير ذلك.

﴿ءَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: دلائل على وحدانية الله تعالى ونعمته وقدرته على البعث، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: يتفكرون ويتأملون بعقولهم في آيات الله، وينتفعون بها، وهم

المؤمنون الموقنون.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) وَيَلْ كُلُّ آفَاكٍ أَثِيرٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْرِبًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً يَعْذَابِ آلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ تَبِينَ وَرَأَيْهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّبِّهِمْ أَلِيمٌ ﴿١١﴾: ﴿١١﴾

قوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾؛ يعني: القرآن الكريم بما فيه من الحجج والبيانات، والتنبيه على آيات الله الكونية في السموات والأرض، وفي سائر المخلوقات.

وأشار إليها بإشارة البعيد «تلك»؛ تعظيماً لها.

﴿ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ الباء: للملابسة، أي: نقرؤها ونقصها عليك متلبسة بالحق، ومتضمنة له، ودالة عليه. والخطاب للنبي ﷺ.

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: فبأي كلام ﴿ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ ﴾، أي: دون الله وآياته.

﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وروح وحفص بالغيب: ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب: «تُؤْمِنُونَ».

والمعنى: إن لم يؤمنوا ويصدقوا بالله وآياته، فبأي حديث يؤمنون ويصدقون؟! أي: أنهم لن يؤمنوا بأي حديث بعد القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥، المرسلات: ٥٠]، أي: بعد القرآن الكريم.

﴿ وَيَلْ كُلُّ آفَاكٍ أَثِيرٍ ﴾ (٧) أثنى على المؤمنين الموقنين الذين يتفكرون ويتعقلون في الآيات، ثم ذم وتوعد المكذبين بالآيات، فقال: ﴿ وَيَلْ كُلُّ آفَاكٍ أَثِيرٍ ﴾ (٧) الآية.

قوله: ﴿ وَيَلْ ﴾، «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، أي: هلاك ودمار.

﴿ لِكُلِّ آفَاكٍ ﴾ كذاب كثير الإفك والكذب في مقاله، ﴿ أَثِيرٍ ﴾: كثير الآثام في فعاله.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ سماعاً تقوم الحجة عليه، ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ تقرأ عليه.  
﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾، أي: ثم يعرض عنها، ويستمر على كفره وجحوده، مستكبراً  
عن الإيمان بها وتصديقها.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، أي: كأنه لم يسمعها.

﴿فَنَشِرُّهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فأخبره بعذاب مؤلم موجه له حسياً ومعنوياً يوم القيامة،  
وسمى إخباره بذلك: بشاره، على سبيل التهكم به.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾، أي: وإذا عرف من آيات القرآن شيئاً.

﴿أَتَخَذَهَا هُزُوًا﴾، أي: جعلها سخرية واستهزاءً؛ كما في قول أبي جهل لما أنزل الله  
قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ قال: «الزقوم: التمر والزبد،  
أنزقمه» (١).

ولما نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل: «يا معشر قريش، أما  
يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبوهم؟» (٢).

وقال أبو الأشدين، كلداء بن أسيد بن خلف: «يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين،  
وأنا أكفيكم سبعة عشر» (٣).

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ الإشارة لمن اتصفوا بما ذكر من الإفك في المقال، والإثم  
في الفعال، والإصرار على الاستكبار والإعراض، والسخرية بآيات الله، وأشار إليهم  
بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: لهم خاصة عذاب يهينهم ويذلهم مقابل استهانتهم بآيات  
الله واستهزائهم بها. والجزاء من جنس العمل.

(١) انظر: «جامع البيان» ٥٥٢/١٩، «تفسير ابن كثير» ١٦/٧.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤٣٦/٢٣ - ٤٣٧.

(٣) انظر: «الروض الأنف» للسهيلى ٢٠٠/١، وانظر: «تفسير ابن أبي حاتم» ٣٣٨٤/١٠، «تفسير ابن كثير»

﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾: تفسير وبيان للعذاب المهين، أي: أمامهم جهنم يوم القيامة سيصرون إليها ويخلدون فيها.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾، «شيئًا»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: ولا يغني عنهم، أي: ولا ينفعهم كسبهم أو الذي كسبوه من الأموال والأولاد وغير ذلك أي شيء مهما قل؛ كما قال تعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ [المتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٠، آل عمران: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المجادلة: ١٧].

﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾: معطوف على قوله: ﴿مَا كَسَبُوا﴾، أي: ولا يغني عنهم، أي: ولا ينفعهم ولا يدفع عنهم عذاب الله.

﴿مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾، «ما»: موصولة، أي: الذين جعلوا غير الله أولياء من الأصنام والأنداد. أو مصدرية، أي: اتخذهم وجعلهم غير الله أولياء.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: يوم القيامة، لا يقدر قدر عظمته إلا الذي وصفه بذلك.

﴿هَذَا هُدًى﴾: الإشارة للقرآن الكريم، أي: هذا القرآن هدى للناس كلهم، يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم؛ كما قال: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابَت رَيْبَهُمْ﴾، أي: جحدوها، وكذبوا بها، ولم يهتدوا بها.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾، «الرجز»: أشد العذاب، قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

﴿أَلِيمٌ﴾: قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ويعقوب بالرفع: ﴿أَلِيمٌ﴾: وصف لـ«عذاب»، وقرأ الباقون بالجر، وصفًا لـ«رجز»، أي: لهم عذاب شديد مؤلم موجه حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

## الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه، وحكمه وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَّ ۙ﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ۙ﴾.

٣- إثبات أن القرآن كلام الله تعالى، منزل من عنده، وتعظيمه، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٤- إثبات اسم الله تعالى: «العزیز»، وصفة العزة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ ۙ﴾.

٥- إثبات اسم الله تعالى: «الحكيم»، وأنه ذو الحكم التام، والحكمة البالغة التامة؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ ۙ﴾.

٦- في اقتران اسميه عز وجل: «العزیز» و«الحكيم»، وصفة: «العزة» و«الحكم» و«الحكمة» في حقه كمال إلى كمال.

٧- عظم آيات الله ودلائل قدرته ونعمته في السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما بينهما، لكن لا ينتفع بها إلا المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ﴾.

٨- أن في خلق بني آدم، وخلق جميع ما يدب على الأرض من الحيوانات: دلائل على تمام قدرته عز وجل ونعمته لأهل اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۙ﴾.

٩- نعمة الله على العباد في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وإنزاله عز وجل المطر من السماء، وإحيائه به الأرض بعد موتها، وتقليب الرياح في مهاهبها، وما في ذلك من الآيات للذين يتفكرون ويتأملون وينتفعون بعقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ۗ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۙ﴾.

١٠- كمال عظمة الله تعالى وقدرته، وتمام خلقه ونعمته في كل ما خلق في هذا

الكون الواسع العظيم، ودلالة ذلك كله على وحدانية الله تعالى في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته، وتمام قدرته على البعث، وعلى كل شيء.

١١- فضيلة الإيمان واليقين والعقل؛ لأن الله خص أهل الإيمان واليقين، وأهل العقول الذين ينتفعون بعقولهم، بالانتفاع بالآيات، وأثنى عليهم وامتدحهم بذلك دون غيرهم.

١٢- تعظيم الله عز وجل لآياته، وأنها تليت عليه ﷺ بالحق، ونزلت متلبسة بالحق، فطريق وصولها إليه حق، وهي مشتملة على الحق، ودالة عليه، وداعية إليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي تِلْمُذُونَ﴾.

١٣- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي تِلْمُذُونَ﴾.

١٤- ذم المشركين؛ لتكذيبهم بالقرآن أحق كتب الله وأصدقها، ونفي أن يؤمنوا بأي حديث بعده؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٥- التهديد والوعيد لكل أفاك كثير الكذب في مقاله، أثيم كثير الإثم في فعالة، يسمع آيات القرآن تقرأ عليه، ثم يصبر على تكذيبه واستكباره؛ كأنه ما سمعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

١٦- أن من سمع الآيات ولم ينتفع بها فهو كمن لم يسمعها، إلا أن الحجة تقوم عليه بساعة لها.

١٧- بشارته- تهكمًا به- بعذاب أليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

١٨- شدة كفر هذا المصّر المستكبر؛ حيث لم يكتف بالإصرار على تكذيب الآيات والإعراض عنها، والاستكبار، بل جعلها هزواً وتنفيراً للناس منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًا﴾.

١٩- وعيد هذا المستهزئ بآيات الله، وتهديده بعذاب يهينه ويذله؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٢٠- أن وراء جهنم، هي مصيره، وستحيط به؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّوَابِهِمْ جَهَنَّمَ﴾.

٢١- أنه لا ينفع المشركين المكذبين، ولا يدفع عنهم ما كسبوه من الأموال والأولاد وغير ذلك أي شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾.  
 ٢٢- عدم استطاعة ما اتخذوه من دون الله أولياء من الأصنام والأنداد نفعهم، ولا دفع عذاب الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾.  
 ٢٣- تهديدهم ووعيدهم بالعذاب العظيم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٢٤- امتداح الله عز وجل للقرآن، وأنه أعظم هدى أنزله سبحانه لهداية الناس إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾.  
 ٢٥- الوعيد والتهديد بالعذاب الشديد للذين كفروا بآيات الله، مع قيام الحججة، ووضوح المحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.  
 ٢٦- أن الآيات والنذر لا تغني عن قوم لا يؤمنون، فمع كون القرآن أعظم كتب الله تعالى هداية، فإن كثيرًا من الناس لا ينتفعون بذلك، حكمة بالغة فما تغن النذر.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ \* اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنَبِّئَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ  
ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾  
وَوَاعَدْتُهُمْ نَبِيًّا مِّنَ الْأُمَمِ قَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي  
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأُمَرِ  
فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ  
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ  
يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ \* اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنَبِّئَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَلَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ۞

قوله: ﴿ \* اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ۞، أي: الله وحده ذو القدرة  
العظيمة، والفضل والمنة، الذي سخر لكم البحر وهياه.

﴿ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ ۞ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تجري الفلك - وهي السفن - ۞  
فيه ۞، أي: في البحر.

﴿ بِأَمْرِهِ ۞ عز وجل الكوني، وقدرته وحكمته، فيحملها البحر على ظهره ولا  
تغوص فتغرق في أعماقه مع ما تحمله من الأثقال العظيمة.

﴿ وَلِيُنَبِّئَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۞ معطوف على قوله: ﴿ لِتَجْرِيَ ۞، أي: ولتطلبوا من فضل الله  
عز وجل بالأسفار على السفن عبر البحار العيش والرزق والاتجار.

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞، أي: ولأجل أن تشكروا الله عز وجل على ما سخر وهياً ويسر  
لكم من أسباب التنقل لطلب العيش والرزق، بنسبة ذلك إلى الله عز وجل، واستعماله

في طاعته، والاستعانة به على مرضاته.

﴿ وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾: معطوف على «سخر» الأولى، أي: وهو عز وجل وحده الذي سخر لكم جميع الذي في السموات، وجميع الذي في الأرض من المخلوقات؛ من الشمس والقمر والكواكب، والحيوان والنبات، والمعادن والجبال، والبحار والأنهار، وغير ذلك مما ينتفع به العباد.

﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾، «جميعًا»: تأكيد، أي: جميع ذلك من عنده عز وجل وحده، وبفضله وإحسانه وامتنانه؛ كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَكُومُ مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُهَا إِلَّا مَن رَّبُّهُ إِذَا هُوَ يَكُومُ ﴾ [النحل: ٥٣].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾، أي: في ذلك المذكور؛ من تسخير البحر لجريان الفلك، والابتغاء من فضله، وتسخير ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه عز وجل.

﴿ لَا يَذُنُّ ﴾ اللام: للتوكيد، أي: كدلائل واضحات، وحجج بينات، وبراهين ظاهرات، على عظمة الله تعالى، وكمال قدرته، وسابغ نعمته، ووحدانيته.

﴿ لِقَوْمٍ يَنْفِكُونَ ﴾، أي: لقوم يتفكرون في الآيات، ويتأملون فيها، ويتفهمونها، ويتتفعلون بها، ويعتبرون.

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾، أي: يعفوا ويصفحوا ويتجاوزوا.

﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾، أي: للمشركين من أهل مكة الذين لا يرجون ثواب الله، ولا يخافون وقائعه في العاصين وعذابه إياهم، ولا يذكرون نعمه ولا يشكرونها. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمر الله المؤمنين بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب والعفو والصفح عنهم؛ لتأليف قلوبهم للإسلام، ولضعف المؤمنين آنذاك، ولما قويت شوكتهم شرع الله لهم الجهاد وأمرهم به.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: «كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى» (١).

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٦٦.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قرأ ابن عامر وحزرة والكسائي وخلف بالنون: «لِنَجْزِي»، وقرأ أبو جعفر بضم الياء وفتح الزاي على البناء للمفعول: «لِيُجْزَى»، وقرأ الباقون بفتح الياء، وكسر الزاي؛ على البناء للفاعل: ﴿لِيَجْزِيَ﴾.

واللام: للتعليل، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: لأجل أن يجزي الله قوماً بكسبهم، أو بالذي كانوا يكسبونه؛ يعني: من الفريقين المؤمنين والكافرين، فيجزي المؤمنين بالثواب، والكافرين بالعذاب، ففيه وعد للمؤمنين، ووعيد للمشركين؛ ولهذا قال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ هذا كالتفصيل للإجمال في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: من عمل عملاً صالحاً خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه، فلنفسه عمله وثوابه.

﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾، أي: ومن أساء، أي: عمل عملاً سيئاً، ﴿فَعَلَيْهَا﴾، أي: فعلى نفسه إساءته وعقابها.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، أي: ثم إلى ربكم وحده تردون يوم القيامة، وتعرضون عليه بأعمالكم، فيحاسبكم ويمجازيكم عليها صالحها وسيئها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

ذكر الله عز وجل في هذه الآيات ما أنعم الله به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، واختلافهم بعد أن جاءهم العلم بغياً بينهم، ووعيده إياهم بالقضاء بينهم يوم القيامة؛ تحذيراً للمكذبين من هذه الأمة.

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهم ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم

السلام ﴿الْكِتَابَ﴾، أي: التوراة والإنجيل، ﴿وَالْحُكْمَ﴾، أي: والحكم بالكتاب بين الناس، وجعل الملك فيهم، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ حيث كانت النبوة في ذرية إبراهيم أكثرها في بني إسرائيل.

﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المآكل والمشرب والملابس وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوٰى كُلُوا مِّنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوٰى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِّنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطَعُوا فِيهِ﴾ [طه: ٨٠، ٨١].

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي: على عالمي زمانهم، أو فضلناهم على العالمين كلهم قبلهم وبعدهم، ويخرج من هذا العموم اللفظي أمة محمد ﷺ (١)؛ فإنها خير الأمم على الإطلاق؛ لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وكل الفضائل التي أعطاها الله لبني إسرائيل أعطاها عز وجل لهذه الأمة، وزادها عليها فضائل كثيرة، من أعظمها أنه أنزل عليها القرآن أشرف كتبه وأعظمها، وأرسل إليها محمداً ﷺ أفضل رسله وأشرفهم.

ويقوي القول الثاني: أن بني إسرائيل - والله أعلم - هم أفضل الأمم بعد أمة محمد ﷺ؛ كما أن كتابهم «التوراة» أفضل الكتب بعد القرآن الكريم؛ ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿يَنْقُورُ أَذْكَرُوا نِعْمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وعندما يقال: إن هذه الأمة هي خير الأمم، وإن بني إسرائيل هم أفضل الأمم بعد أمة محمد ﷺ، فالمراد بذلك من الأمتين: أمة الإجابة، لا من كفر وغير وبدل منها، فليسوا في الحسبان وإن كثروا.

﴿وَأَيُّنَّهُمْ يَبِينَتِ مِّنَ الْأَمْرِ﴾، أي: وأعطيناهم دلالات تبين الحق من الباطل من الأمر القدري، وهي الآيات التسع التي رأوها على يد موسى عليه السلام. وأعطيناهم بينات من الأمر الشرعي، تبين الحلال من الحرام، والمأمور من

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» ٢٤ / ٧.

المحظور، وغير ذلك مما جاءهم في التوراة.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«إلا»: أداة حصر، و«ما»: مصدرية، ﴿بَعِيًّا﴾: مفعول لأجله، أي: فما اختلفوا إلا من بعد مجيء العلم إليهم، الموجب لعدم الاختلاف ﴿بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾، أي: حسداً وظلماً وعداوة بينهم، بعد قيام الحجة عليهم.

﴿إِنْ رَبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، ﴿يَقْضَى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: إن ربك يا محمد يفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العدل في الذي كانوا فيه يختلفون، فيميز المحق من المبطل، ويجازي كلا بما عمل؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِمَّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الآية: ٩٣].

وهذا تحذير لهذه الأمة من اتباع سننهم وسلوك مسلكهم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾، أي: ثم جعلناك يا محمد ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾، أي: على ملة ودين ومنهاج واضح. والتنوين للتعظيم، أي: على شريعة عظيمة.

﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾، أي: من الأمر الشرعي الذي أوحينا إليك.

﴿فَاتَّبَعَهَا﴾، أي: فالزمها واثبت واستمر عليها؛ كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن أهواءهم مخالفة لدين الله وشرعه، صادرة عن جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍ﴾ [الجنائفة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطَّعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾

[الشورى: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وكل من خالف شرع الله واتبع ما تحبه نفسه وت هواه، وجعل ذلك عقيدة له ودينًا، فهو ممن اتبع هواه بلا علم وبغير هدى من الله وعلى ضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع: أهل الأهواء؛ لخروجهم عن الشريعة بمعتقدات باطلة، ويجذرون منهم.

﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليل للنهي السابق، أي: إن هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم بلا علم، إن اتبعتم ﴿لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن يغنوا عنك من الله أي شيء، لا يجلب نفع، ولا بدفع ضرر.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، أي: بعضهم أنصار بعض، أي: يوالي بعضهم بعضًا على الشر ويتعاونون على الإثم والعدوان، ويضل بعضهم بعضًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰلسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

﴿وَاللَّهُ﴾ وحده، ﴿وَالَّذِينَ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوه بفعل أوامره، وترك نواهيه؛ يوفقههم ويعينهم ويحفظهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وينصرهم؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٦] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ لَهُمُ البُشْرَى فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِينَ نَزَّلَ الْكِتٰبَ وَهُوَ تَوَلَّى الصّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»<sup>(١)</sup>.  
﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ﴾، أي: هذا القرآن بصائر وهداية عامة للناس؛ كما قال تعالى:  
﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].  
﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ خاصة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ لأنهم يصدقون به تصديقاً جازماً،  
وينتفعون به، ويتبعونه، ويعملون به. نسأل الله التوفيق.

### الفوائد والأحكام:

- ١- امتنان الله عز وجل على العباد بتسخير البحر بقدرته العظيمة؛ لتجري السفن فيه بأمره الكوني، مع ما تحمله من الأثقال، وليطلبوا من فضله الرزق والاتجار بالأسفار على ظهورها عبر البحار؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ قَوْلِهِ﴾.
- ٢- ينبغي شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة؛ حيث سخر البحر بقدرته لحمل هذه السفن، للتنقل عليها طلباً للرزق، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: على هذه النعمة وعلى غيرها من النعم الكثيرة.
- ٣- تسخيره عز وجل لبني آدم بقدرته التامة جميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات؛ تفضلاً منه وامتناناً وإحساناً؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾.
- ٤- أن في تسخيره عز وجل هذه المخلوقات العظيمة والمختلفة: آيات بينات، ودلائل واضحات، على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته، وسابغ نعمته، ووحدانيته، لمن تفكر فيها وتأمل، واعتبر بها وانتفع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
- ٥- أمره عز وجل المؤمنين في أول الإسلام بالمغفرة والعفو عن المشركين، الذين لا يرجون أيام الله؛ تأليفاً لهم على الإسلام، ونظراً لضعف المسلمين آنذاك؛ لقوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ .

٦- أن على من وفقه الله وهداه وشرح صدره للإسلام والإيمان: الرفق بغيره في حدود الشرع، فليس من يعلم كمن لا يعلم.

٧- وعد الله للمؤمنين، ووعيده للمشركين، بمجازاة كل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿يَجْزِي قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

٨- أن من عمل صالحًا فلنفسه عمله وثوابه، ومن أساء فعلى نفسه إساءته وعذاها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ .

٩- كمال عدل الله تعالى ومجازاته كلاً بعمله، وبجنس ما عمل.

١٠- الترغيب في العمل الصالح، الذي يثاب صاحبه، وهو ما كان خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه.

١١- التحذير من العمل السيئ الذي يعاقب مرتكبه.

١٢- إثبات البعث والمعاد إلى رب العباد، وأن إليه وحده إياب الخلائق، وعليه حسابهم، ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ .

١٤- ذكر ما امتن الله به على بني إسرائيل؛ من إيتائهم التوراة والإنجيل، والحكم بهما بين الناس، وجعلهم ملوكًا، وجعل النبوة من ذرية إبراهيم عليه السلام أكثرها فيهم، ورزقهم من الطيبات، وتفضيلهم على العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

١٥- أن النعم كلها من الله عز وجل: الدينية والدنيوية؛ من إيتاء الكتاب والحكم والنبوة والرزق والفضل، وغير ذلك.

١٦- أن الإنعام بالفضائل الدينية أعظم وأهم؛ ولهذا قدم على الإنعام بالفضائل الدنيوية.

١٧- إقامة الحجة عليهم بإيتائهم بينات من الأمر الكوني، فيها بيان الحق من

الباطل، منها الآيات التسع على يد موسى عليه السلام، وبينات من الأمر الشرعي، فيها بيان الحلال والحرام، والأوامر والنواهي في التوراة.

١٨- أن بني إسرائيل ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بالكتب، وعلى أيدي الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾.

١٩- أن العلم ما لم يقارنه توفيق من الله تعالى إلى العمل، قد يكون وبالأعلى صاحبه، وسبباً لهلاكه، وما حال صاحبه إلا كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول<sup>(١)</sup>

وما أكثر هذا في كثير من المنتسبين إلى العلم الذين جعلوا العلم مطية لجمع المال، ولم يؤدوا حقه لا عملاً به ولا تعليماً له.

٢٠- أن الذي حمل بني إسرائيل على الاختلاف بعدما جاءهم العلم هو البغي والعدوان، والظلم والحسد بينهم.

٢١- خطر الحسد ووجوب الحذر منه؛ لأنه سبب للبغي والعدوان والظلم، والاختلاف والتفرق، والعدول عن الحق.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بإضافة اسم «الرب» إلى ضميره ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وتشريفه أيضاً بخطابه تعالى في هذا، وفي قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾.

٢٣- تهديد بني إسرائيل ووعدهم بقضائه عز وجل وفصله بينهم يوم القيامة في اختلافهم، ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٢٤- تحذير هذه الأمة من اتباع سنن بني إسرائيل، وسلوك مسلكهم؛ لأن ذكر ما أنعم الله به عليهم واختلافهم بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم، ووعدده عز وجل لهم، كل ذلك سيق لأجل تحذير هذه الأمة من سلوك طريقهم.

٢٥- الامتنان عليه ﷺ بجعله على شريعة عظيمة هي دين الإسلام، وأمره

(١) البيت لعبد الغني النابلسي. انظر: «ديوانه» ص ١٢٦٨.

باتباعها ولزومها، وتحذيره من اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وفي هذا امتنان على أمته، وأمر لهم باتباع هذه الشريعة، وتحذير لهم من اتباع أهل الأهواء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٢٦- أن كل من خالف شرع الله، واتبع ما تحبه نفسه وتهواه، وجعل ذلك له عقيدة ودينًا؛ فقد اتبع هواه بلا علم.

٢٧- أنه لا يؤمن أحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

٢٨- أن الذين يتبعون أهواءهم بلا علم لا ينفعون من اتباعهم بأي شيء، لا يجلب نفع، ولا بدفع ضرر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُؤُوا عَنْكَ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

٢٩- تولى الظالمين بعضهم بعضًا بالباطل، والتعاون على الإثم والعدوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

٣٠- أن الله عز وجل ولي المتقين خاصة، يوفقهم ويحفظهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

٣١- فضيلة تقوى الله، والترغيب فيها؛ لأن من اتقى الله فالله وليه، ونعم المولى ونعم النصير.

٣٢- ثناء الله عز وجل على كتابه وامتداحه له بأنه بصائر وهدى للناس عامة؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ﴾.

٣٣- أن القرآن الكريم هدى ورحمة خاصة للموقنين؛ لأنهم هم الذين يؤمنون به ويصدقونه، ويبتدون بهديه، ويعملون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١٤﴾ وَإِذْ اتَّخَذْنَا عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ إِيمَانًا مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُجَسِّمُكُمْ ثُمَّ يُغْمِغُكُمْ فِي الْمَمَاتِ فَيُمْسِكُكُمْ فِي الْأَبْطَالِ فَيُخْرِجُكُمْ مِنْهَا فَيَكْتُمُ صَوْتَكُمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾:

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾، «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسب الذين اجترحوا السيئات.

والاجتراح: الاكتساب، ومنه تسمى السباع والطيور التي تستخدم للصيد: جوارح وكواسب؛ لأنها تكسب وتصيد لأصحابها.

والمعنى: أم ظن الذين عملوا السيئات واكتسبوا، من أهل الكفر والشرك والمعاصي. ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي: «حسب»، أي: أحسب الذين عملوا السيئات وظنوا أن نصيرهم.

﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: كالذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالنصب: ﴿سَوَاءً﴾. وقرأ الباقون بالرفع: «سواء»، أي: سواء حياتهم وموتهم، أي: حالة محياهم وحالة مماتهم، أي: أحسبوا أن نساويهم بهم في الدنيا والآخرة؟ كلا، ولهذا قال:

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، «ما»: مصدرية أو موصولة، أي: ساء حكمهم، أو ساء الذي يحكمونه من هذا الحكم الجائر، والظن الباطل: أن نسائي بين الأبرار والفجار، في هذه الدار وفي الآخرة دار القرار.

كما قال تعالى: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ [الفلم: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٣٨) [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠) [الحشر: ٢٠].

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَرَبُّهُمُ يَعْلَمُونَ﴾ (٢١) ﴿وَلِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢).

لما نفى وأبطل ظن الذين اكتسبوا السيئات بالكفر والمعاصي المساواة بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويبيّن سوء حكمهم هذا، أتبع ذلك بيان أنه عز وجل خلق هذا الكون كله وأقامه على الحق والعدل؛ ليُجزى كل بما عمل من غير ظلم.

قوله: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة، أي: خلقًا متلبسًا بالحق، أي: قائمًا على الحق والعدل، وعدم الظلم؛ ليعبد الله وحده لا شريك له، ويمجزي كلًا بما عمل؛ ولهذا قال:

﴿وَلِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن تُجزى كل نفس بعملها، أو بالذي عملته من غير نقص في حسناتها، ولا زيادة في سيئاتها.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ هذا تأكيد لما قبل، لإثبات كما عدله عز وجل، أي: وهم لا يظلمون أي شيء من الظلم.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجب، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: أخبرني.

﴿مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾، «من»: موصولة، أي: الذي جعل إلهه هواه، يأتمر بما تهواه نفسه الأمانة بالسوء، فما أمره به هواه من شيء فعله، حسنًا كان أو قبيحًا.

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، «على علم»: حال من الفاعل، أي: وأضل الله عز وجل هذا الذي اتخذ إلهه هواه عالماً عز وجل بأنه يستحق الإضلال، وليس أهلاً للهداية.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حالاً من المفعول، أي: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه؛ كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَحْتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾، أي: وطبع على سمعه، فلا يسمع ما ينفعه، ولو سمع ما انتفع، ولا يفقه ما يرد على قلبه؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «غِشَاوَةً» بفتح الغين، وإسكان الشين من غير ألف، وقرأ الباقون بكسر العين، وفتح الشين، وألف بعدها: ﴿غِشَاوَةً﴾، والغشاوة: غطاء العين.

أي: وجعل على بصره غطاءً فلا يبصر الآيات، ولا يرى الحق، ولا يهتدي إليه. ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ الاستفهام: للنفي، و«ما»: موصولة، أي: فمن الذي يهديه غير الله؟ أي: فلا أحد يهديه غير الله.

وقد أضله عز وجل وحتم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، ولم يرد هدايته، بل سد عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال ﷺ في خطبة الحاجة: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أبو داود في النكاح ٢١١٨، والنسائي في الجمعة ١٤٠٤، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٢ من

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ عاصم بتخفيف الذال: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾.

والاستفهام: للتوبيخ، أي: أفلا تعتبرون وتتعضون؟ وفحوى هذا الأمر بالتذكر، أي: تذكروا، واعتبروا، واتعضوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْسَوْنَ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال الكفرة المشركون الدهريون منكرو البعث والمعاد: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ما هناك حياة إلا حياتنا الدنيا. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، أي: يموت أناس، ويحيا آخرون، أي: يولدون، ومن مات فليس براجع، ولا بعث، ولا معاد، ولا حساب، ولا جزاء.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، «إلا»: أداة حصر، والدهر: الزمان، أي: إن أحياءنا يصيرون إلى الموت بفعل الدهر وتأثير تقادم الزمان.

﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ الإشارة إلى قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

و«من»: زائدة لتوكيد النفي، أي: وما لهم بهذا القول أي علم مهما قل، بل كذبوا الوحي والرسل بلا دليل ولا برهان.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما هم إلا يظنون، أي: يُحْمِنُونَ ويتخرصون ويتوهمون، والظن لا يغني من الحق شيئاً.

كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، يونس: [٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبِئُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [يونس: ٣٦]،

وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾، أي: وإذا تُقرأ على هؤلاء المشركين المكذبين بالبعث آياتنا الشرعية والكونية، ﴿بَيَّنَّتْ﴾ واضحات ظاهرات في الدلالة على أن البعث حق، وعلى تمام قدرة الله تعالى عليه.

﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ في إنكار البعث، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَتُونَنَا بِآيَاتِنَا﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: إلا قولهم: اتتوا بآياتنا، أي: أحيوهم لنا. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم: إن هناك بعثًا ومعادًا وحسابًا وجزاءً.

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد هؤلاء المكذبين بالبعث القائلين: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ مبيِّنًا بطلان قولهم.

﴿اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾، بخلقكم وإيجادكم من العدم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، أي: ثم يميتكم بعد انقضاء أعماركم، وحلول آجالكم.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، أي: ثم يبعثكم بعد موتكم، ويجمعكم إلى يوم القيامة للحساب والجزاء، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك فيه.

كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤].

وفي قوله: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إبطال لقولهم: ﴿اتَتُونَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ لبيان أن البعث يوم القيامة، وليس في الدنيا.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى الحق؛ ولهذا ينكرون المعاد ويستبعدونه.

## الفوائد والأحكام:

١- ظن الذين اكتسبوا السيئات من أهل الكفر والشرك والمعاصي غرورًا منهم، أن يجعلهم الله كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويساويهم بهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾.

٢- سوء حكمهم في ظنهم هذا الظن الجائر؛ لقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٣- شتان بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبين الذين كفروا واجتروا السيئات، في الحياة وبعد الممات، فالمؤمنون سعدوا في الحياة بإيمانهم، وسعوا في إعتاق رقابهم، ففازوا في الآخرة بالجنات، والكافرون شقوا في الدنيا بكفرهم، وسعوا في إيباق أنفسهم، فصار مآلهم في الآخرة إلى النار والدركات.

٤- أن الخبيث لا يستوي مع الطيب بحال من الأحوال؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، فالكافر خبيث، والمؤمن طيب، والكفر خبيث، والإيمان طيب، وهكذا.

٥- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، وعمل الصالحات بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

٦- إثبات الدار الآخرة، وأن القيامة لا شك فيها؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٧- كمال عدل الله عز وجل، وأنه سبحانه خلق السموات والأرض بالحق، وأقامهن على العدل؛ ليعبد وحده لا شريك له، ولتجزى كل نفس بعملها من غير ظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٨- أن الجزء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٩- ذم من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل

على بصره غشاوة، والإنكار عليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ وَحَتَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾.

١٠- عقوبة من اتخذ إلهه هواه بإضلاله، والختم على قلبه، وتغشية بصره، وسد أبواب الهداية أمامه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

١١- إثبات القدر السابق، وأن الهداية والإضلال بيد الله تعالى.

١٢- أن الله يضل من يشاء بعدله وحكمته، وعلمه بمن يستحق الإضلال، وليس أهلاً للهداية.

١٣- أن الله لا يضل أحداً إلا بعد بيان الحق له، وإقامة الحجة عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ﴾؛ كما قال: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

١٤- أن من أضله الله، وختم على سمعه وقلبه، وأغشى بصره عن الحق، فلا أحد يستطيع هدايته بعد الله؛ لأن الهداية والإضلال بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾.

١٥- تسلية النبي ﷺ تجاه ضلال من ضل من قومه، واتخذ إلهه هواه؛ كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

١٦- الإنكار على من عبد هواه ولم يتذكر ولم يتعظ، والترغيب في التذكر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

١٧- إنكار المشركين المكذبين الدهريين البعث والمعاد، والدار الآخرة والحساب، وسبهم الدهر، وزعمهم أنه هو الذي يهلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

ومن سب الدهر ونسب إليه فعل الأشياء فكأنها سب الله؛ لأن الله هو الفاعل لذلك على الحقيقة، ولهذا قال عز وجل في الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم؛ يسب

الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»<sup>(١)</sup>.  
وعن أبي قتادة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»<sup>(٢)</sup>.  
وليس معنى ذلك: أن «الدهر» من أسماء الله، وإنما المعنى: أنه هو المتصرف في الدهر.

١٨ - إبطال معتقدهم الفاسد، وزعمهم الكاذب، وبيان أنهم يقولون بلا علم ولا دليل ولا برهان، ظناً كاذباً، وتخرصاً وتخميناً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

١٩ - أن الظن لا يغني من الحق شيئاً، بل هو أكذب الحديث؛ كما قال ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»<sup>(٤)</sup>.

٢٠ - تكذيبهم ما دلت عليه الآيات البينات الشرعية والكونية، من كون البعث حقاً، واحتجاجهم على إنكار ذلك بما لا حجة لهم فيه، وهو قولهم: ﴿أَتَتُوا يَا بَآئِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٢١ - إبطال حججهم بقولهم: ﴿أَتَتُوا يَا بَآئِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ببيان أنه عز وجل هو الذي يحييهم بخلقهم من العدم، ويميتهم بانتها آجالهم، ثم يبعثهم يوم القيامة ويجمعهم بعد انقضاء الدنيا وزوالها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وليس المراد بالبعث الموعود به: بعثهم في الدنيا.

٢٢ - أن الله أحيا الخلق اثنتين؛ الأولى: بخلقهم من العدم، والثانية: ببعثهم يوم القيامة. وأماهم اثنتين؛ الأولى: لما كانوا عدماً، والثانية: بعد انقضاء آجالهم.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٢٦، ومسلم في الألفاظ، النهي عن سب الدهر ٢٢٤٦، وأبو داود في الأدب، في الرجل يسب الدهر ٥٢٧٤.

(٢) أخرجه أحمد ٥/٢٩٩، ٣١١.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٣- أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى الحق؛ ولهذا أنكر كثير منهم المعاد واستبعدوه.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْحَسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأْتُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا الْقَوْمَ الَّذِي كَفَرَ وَمَا تَكُونُونَ إِلَّا عَجْلًا ﴿٣٤﴾ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ آتَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَفْتُمْ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا قَالِیَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَدُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَرَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْحَسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: والله عز وجل وحده ملك السموات والأرض، وهو سبحانه الخالق لذلك كله، المتصرف فيه في الدنيا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، أي: وفي الآخرة، يوم تقوم الساعة، أي: يوم القيامة، أي: له الملك في الدنيا والآخرة.

﴿يَوْمَ يُنْحَسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، «يومئذ»: بدل من «يوم تقوم الساعة»، أو تأكيد له. أي: يوم ينحسر في ذلك اليوم المبطلون، أي أهل الباطل، وهم الكفرة والمكذبون. ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: وترى يومئذ كل أمة من الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتاب.

﴿جَائِيَةً﴾ على الركب من شدة الكرب، وعظم الهول، متميزة منفردة.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ قرأ يعقوب بنصب اللام: «كُلٌّ»، وقرأ الباقون برفعها:

﴿كُلُّ﴾، أي: كل أمة تدعى إلى كتاب شريعته الذي أنزل عليها؛ لتعرض أعمالها على ما أمرت به في كتابها، وهل أعمالها موافقة لما جاء في كتابها فتفلح وتربح، أم مخالفة لكتابها

فتخيب وتخسر؟

وفي الحديث: «والقرآن حجة لك أو عليك»<sup>(١)</sup>.

ويدل على هذا الاحتمال قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ على أن معناه: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم يفصل بالحق والعدل.

ويحتمل أن المراد بكتابتها: كتاب أعمالها، أي: كتاب الأعمال لكل أحد، وما سطر فيه من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبِلْنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشَّهَادَاتِ﴾ [الزمر: ٦٩].

ويدل على هذا الاحتمال قوله بعد هذا: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: يقال لها بشارة للمؤمنين، وتهديدًا للكافرين: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، أي: تجزون جزاء عملكم، أي: جزاء الذي كنتم تعملونه، خيرًا كان أو شرًا.

﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ الذي كتبنا فيه أعمالكم، وهو يشمل جميع الكتب التي أُخْصِيَتْ فِيهَا أَعْمَالُهُمْ، ولكل واحد كتاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾<sup>(٤)</sup> أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا<sup>(٥)</sup> [الإسراء: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الإسراء: ٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: ١٩، الانشقاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾<sup>(٦)</sup> [الانشقاق: ١٠].

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣؛ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

﴿يَطِئُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾، أي: يشهد ويستحضر جميع أعمالكم بالحق والعدل، من غير زيادة ولا نقصان؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ بَوْلَنَّا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾، أي: كتابنا الذي أنزلناه عليكم يفصل ويقضي بالحق والعدل. والأول أقرب؛ لقوله:

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: إنا ننسخ ونكتب عملكم، أي: الذي كنتم تعملونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينًا ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنزِلُ عَلَيْكُمْ فَأَسْتَكْبِرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَسِيفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَضْتُمْ هَذَا الْيَوْمَ فَأَلَيْتُمْ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾:

لما ذكر استنساخ وكتابة جميع أعمال العباد، وشهادة كتبهم عليهم بأعمالهم، أتبع ذلك بتفصيل جزائهم؛ من آمن منهم ومن كفر.

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما» في الموضعين: حرف شرط وتفصيل، أي: فأما الذين آمنوا باطنًا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات ظاهراً بجوارحهم.

﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فيدخلهم ربهم في جنته؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «أنت الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء»<sup>(١)</sup>.

(١) سبق تخريجه.

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة لإدخالهم في رحمة عز وجل وجنته.

﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ أي: هو الظفر والنجاح والفلاح، ﴿الْمَيْنُ﴾ البين الظاهر الواضح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكَ﴾، أي: فيقال لهم؛ تقریباً وتوبيخاً وتقريراً: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكَ﴾، أي: تقرأ عليكم.

﴿فَأَسْتَكْبِرْتُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاستكبرتم عن الانقياد لها، وكذبتم بها بقلوبكم.

﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ بأفعالكم بالكفر والشرك.

وفي قوله: ﴿قَوْمًا﴾ إشارة إلى أن الإجرام صار خلقاً لهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾، أي: وإذا قيل لكم: إن وعد الله بالحساب والجزاء والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾، أي: واقع لا محالة.

﴿وَالسَّاعَةَ لَآرِيبَ فِيهَا﴾، قرأ حمزة بنصب: «الساعة»: «وَالسَّاعَةَ»؛ عطفاً على ﴿وَعْدَ﴾، وقرأ الباقون برفعها: ﴿وَالسَّاعَةَ﴾ على الابتداء، أي: والقيامة لا شك فيها، أي: آتية ولا بد.

﴿قُلْتُمْ﴾ منكرين لذلك: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾، أي: لا نعرفها، ولا نؤمن بها، ولا نصدق بوقوعها.

﴿إِنْ نَنْظُرُ إِلَّا ظَنًّا﴾، «إن» نافية، بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما نظن إلا ظناً، أي: ما نتوقع وقوعها إلا توهمًا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ توكيد لما قبله، والسين والتاء للمبالغة، أي: وما نحن بمتيقنين، أي: بمتحققين.

﴿وَبَدَأْتُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا﴾، أي: ظهر لهم يوم القيامة جزاء وعقوبة سيئات الذي عملوه، أي: سيئات عملهم.

ولم يقل: وبدا لهم عقوبات سيئات ما عملوا، بل قال: ﴿وَبَدَأْتُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا﴾ للدلالة على أن العقوبة سببها السيئات، وأن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾، أي: أحاط ونزل بهم.

﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، «ما» اسم موصول مبني في محل رفع فاعل، أي: وأحاط

بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا به يستهزئون؛ تكذيباً بوقوعه، ولئن توعدهم به.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾، أي: نترككم في العذاب في نار جهنم.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، «ما»: مصدرية، أي: نسياناً كنسيانكم لقاء يومكم هذا، وترككم العمل له، وتكذيبكم به، والجزاء من جنس العمل.

وجاء في الحديث القدسي أن الله عز وجل يقول للعبد: «ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال فيقول: أفظنت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتي»<sup>(١)</sup>.

﴿وَمَاؤْنِكُمْ النَّارُ﴾، أي: ومصيركم ومنزلكم ومقرم النار.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ ينصرونكم ويدفعون عنكم عذاب الله.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ الإشارة تعود إلى نسيانهم وجعل مصيرهم النار، والباء: للسببية، أي: ذلكم الوعيد بنسيانكم، وجعل مأواكم النار، وعدم نصركم، بسبب أنكم جعلتم آيات الله هزواً، تستهزئون بها، وتسخرون منها.

﴿وَعَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: وخذعتكم الحياة الدنيا بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم وركتم إليها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء، وضم الراء: ﴿يُخْرَجُونَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿يُخْرَجُونَ﴾ ﴿يُخْرَجُونَ﴾ بضم الياء، وفتح الراء، أي: فالיום لا يُخْرَجُونَ من النار.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ السين والتاء للمبالغة، أي: ولا يطلب منهم العُتْبَى، بأن يُرضوا ربهم بالتوبة والطاعة، بل يعذبون بغير استعتاب؛ لأن الآخرة دار جزاء، لا دار استعتاب وعمل.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾، أي: فله وحده الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وهو الوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، على ربوبيته لجميع الخلق؛ ولهذا قال:

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق ٢٩٦٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾، «رب»: بدل من لفظ الجلالة في المواضع الثلاثة، أو نعت له، أي: خالقها ومالكها، والمتصرف فيها.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، ويجب عليهم أن يحمده.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ في السموات والأرض، أي: وله وحده الكبرياء في السموات والأرض، أي: العظمة والجلال والمجد، والسلطان والقدرة؛ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي»<sup>(١)</sup>.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة الغلبة والقهر، وعزة الامتناع، الذي لا يُغَالَب ولا يُبَاع.

﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

### الفوائد والأحكام:

١- إثبات سعة ملكه عز وجل، واختصاصه بملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾.

٢- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، وقوله: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِيَنَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

٣- خسارة أهل الباطل في ذلك اليوم الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾.

٤- جُثُوُّ الأمم على الركب، وتمايز كل أمة من شدة الكرب وعظم الهول في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾.

٥- دعوة كل أمة إلى كتابها الذي أنزل عليها؛ لعرض أعمالها عليه، وهل هي موافقة لما جاء فيه أو مخالفة؟ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعِي إِلَى كِتَابِهَا﴾، وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾

(١) سبق تخريجه.

يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴿٢٧﴾.

٦- عرض كتب أعمال كل أمة عليها؛ ليرى كل فرد منها ما سطره فيه من خير وشر؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعِي إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ وهذا على الاحتمال الثاني أن المراد: كتاب أعمالها.

٧- مجازاة كل بما عمل من غير زيادة في سيئاته، ولا نقصان من حسناته؛ لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٨- أن الجزء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا﴾.

٩- إثبات كتابة الأعمال، وأن لكل أمة، أي: لكل فرد منها، كتابًا يستحضر ويشهد بالحق والعدل على جميع أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وقوله قبل هذا: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعِي إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾.

١٠- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: أهل الإيمان والعمل الصالح الذين يدخلهم ربهم في رحمته وجنته، ولهم الفوز المبين، وكفار مستكبرون، لهم التوبيخ والتفريع، ومأواهم النار وبئس المصير؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢٩﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الآيات.

١١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى، ورحمته الخاصة بالمؤمنين.

١٣- لا فوز أبين وأظهر وأعلى من الدخول في رحمة الله تعالى وجنته، والتمتع بما فيها من ألوان النعيم، ورؤية الرب الكريم.

١٤- توبيخ الكفار وتفريعهم على كفرهم واستكبارهم عن الانقياد لآيات الله، وتكذيبهم بها، وإجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

١٥- توبيخهم وتقريرهم على تكذيبهم بوعده الله بالجزاء، وإنكارهم قيام الساعة، وتشكيكهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ (٣٣).

١٦- إثبات أن وعده الله بالحساب والجزاء، والثواب والعقاب، حق لا مرية فيه.  
١٧- أن الظن لا ينفع صاحبه، ولا يغني من الحق واليقين شيئاً.  
١٨- معاينتهم ومشاهدتهم في ذلك اليوم عقوبات ما عملوه من السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأْتُمْ سَيِّئَاتٍ مَاعْمَلُوا﴾.

١٩- إحاطة العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا، ونزوله بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

٢٠- تبيكتهم بنسيانهم وتركهم في العذاب؛ كما نسوا لقاء يوم القيامة ولم يعملوا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

٢١- وعيدهم وتهديدهم بأن مأواهم ومنزلهم ومصيرهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَاكُمْ النَّارُ﴾.

٢٢- أنه لا نصير لهم في ذلك اليوم ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

٢٣- توبيخهم وتبيكتهم ببيان أن سبب نسيانهم في العذاب وجعل النار مصيرهم: هو جعلهم آيات الله هزواً وسخريةً، والاعتزاز بالحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

٢٤- يجب الحذر من الاستهزاء بآيات الله ودينه، والحذر من الاعتزاز بالدنيا وزخارفها، وزينتها الفانية.

٢٥- خلود الكفرة والمجرمين في النار، فلا خروج لهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالِئَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾.

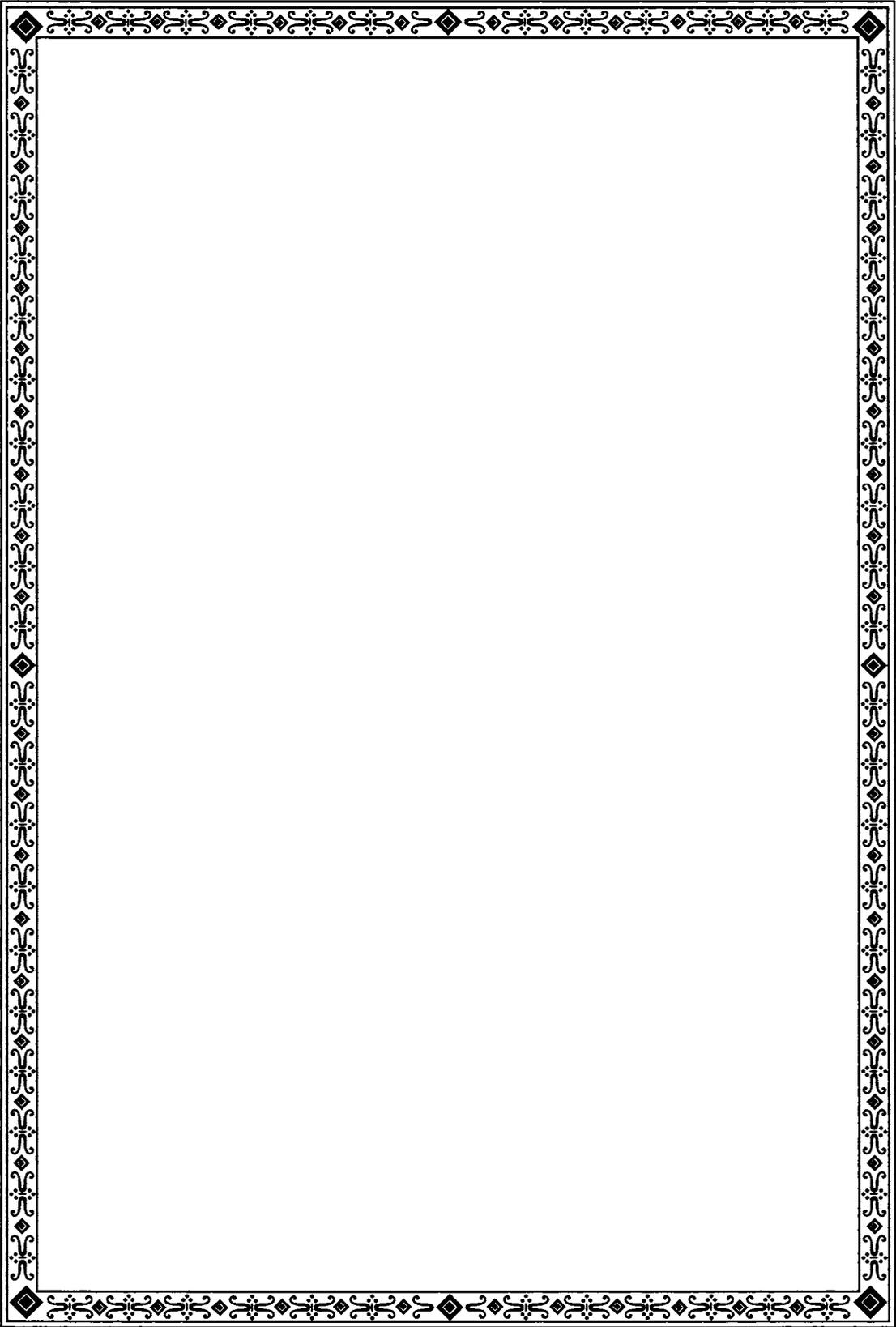
٢٦- تعذيبهم في ذلك اليوم بلا استعتاب؛ لأن الآخرة دار جزاء، لا دار استعتاب وعمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

- ٢٧- اختصاص الله تعالى بكمال الحمد، والوصف بكمال الصفات على ربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.
- ٢٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للسموات والأرض، والعالمين كلهم.
- ٢٩- اختصاصه عز وجل بالكبرياء والعظمة والسلطان في السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٣٨﴾﴾.
- ٣٠- إثبات اسميه عز وجل: «العزیز» و«الحكيم»، وصفة «العزة» التامة، و«الحكم» التام، و«الحكمة» البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٩﴾﴾.
- ٣١- في اقتران اسميه عز وجل «العزیز»، و«الحكيم»، وصفة «العزة» التامة، و«الحكم» التام، و«الحكمة» البالغة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

\* \* \*



# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْقَافِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت: «سورة الأحقاف» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۖ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

## ب- مكان نزولها:

مكية.

## ج- موضوعاتها:

١- افتتح الله عز وجل «سورة الأحقاف» بمثل ما افتتح به «سورة الجاثية»:

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾؛ تعظيماً للقرآن وبياناً لإعجازه، وتعظيماً لنفسه عز وجل.

٢- بيان أنه عز وجل خلق السموات والأرض وما بينهما لحكمة عظيمة، وهي عبادته، ومجازاة العباد بأعمالهم: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

٣- بيان بطلان ما يعبده المشركون من دون الله من آلهة، ومدى ضلال من يدعوها من دون الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَنْتُمْ بِكُتُبِنَا مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْتُمْ مِنْ عِلْمِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾.

٤- تكذيب الذين كفروا بما يتلى عليهم من آيات الله البينات، وزعمهم أنه سحر مبین، ومما افتراه محمد، والرد عليهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ ۝٩﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَنَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْفِكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحِمَةً ۗ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَّلْنَا بِهَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الْبُحُرِ ۗ وَإِنَّا لَظَاهِرُونَ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ۝

٥- وعد الله عز وجل للذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا بانتفاء المراهب، وحصول المطلوب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ۝

٦- وصية الإنسان بالإحسان إلى والديه، وسؤال الله تعالى أن يلهمه شكر نعمة الله عز وجل عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحاً يرضاه الله، ويصلح له في ذريته: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۗ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَنْقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ۝

٧- التهديد والوعيد لمن ينكر البعث، ويكفر بالله، وينكر وعده: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَائِي أَلَمِ لَكُمْ عَذَابِنِّي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيَكْفُرُونَ بِهِ وَإِنَّ اللَّهَ فِي شَأْنِهِمْ لَإِذَا حُجِرَ بِهَا كُنْتُمْ طَائِفَاتٍ فِي أَصْحَابِ الْأَعْنَابِ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ أَنتِهَا نَارٌ كَأْسٍ لِلْجَافِرِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أذْهَبَتْمْ أَصْوَابُهُمْ فِيهَا قَالُوا لَوْلَا إِيَّاكُمْ لَكُنَّا رَبَّانًا وَأَنصُرُوكُمْ وَإِن يَأْتِ الْفِتْنَةَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَاكُنُّمْ نَفْسُونَ ﴿١٨﴾ ۝

٨- التذكير بهود عليه السلام وإنذاره قومه عاداً بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلقه: ألا يعبدوا إلا الله، وتخويفهم عذاب يوم القيامة، وتكذيبهم له، واستعجال العذاب، وإهلاكهم بالريح: ﴿وَأَذْكُرُ آخَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۗ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ

بِهِ وَلِنَكَيْتِ أَرْكَكُمْ قَوْمًا بَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرٌ نَّابِلٌ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنْتَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ \*

٩- تذكير المشركين بإهلاك من حولهم من القرى، وتصريف الآيات لهم لعلهم يرجعون، وبيان غياب آلهتهم التي تقربوا إليهم من دون الله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلَّ صَلَوَاتُ عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

١٠- ذكر استماع نفر من الجن إلى قراءته ﷺ القرآن، وإنذارهم قومهم، وشهادتهم بتصديق القرآن لما قبله، وهدايته إلى الحق والطريق المستقيم، وأمرهم قومهم بإجابة داعي الله، وتحذيرهم من عدم الإجابة: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ .

١١- بيان تمام قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، والتهديد والوعيد للمكذبين: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَفْقَهُنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

١٢- تقوية قلبه ﷺ، وتسليته تجاه تكذيب قومه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَّغْ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَشْرَقَتْ عَلَيْنَا بَلَدَةٌ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْنَا بَيْتَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَشْرَقَتْ عَلَيْنَا بَلَدَةٌ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ .

قوله: ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ سبق الكلام عليه في سورة غافر، وسورة الجاثية.

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، «إلا»: أداة حصر، والباء: للملابسة والمصاحبة، أي: إلا بالحق والعدل، وإقامة الحق والعدل، وهو: أن يُعبدَ الله وحده لا شريك له، لا على وجه العبث والباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبَةٍ﴾ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: وإلى وقت محدد، ومدة مضروبة؛ لا تزيد ولا تنقص، وهو

وقت انتهاء الدنيا، وتبدلها وبعث الخلائق للحساب والجزاء؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۗ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۗ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ۗ﴾ [الروم: ٨].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«ما»: موصولة، أي: عن الذي أذروه وخوفوا به وحذروا منه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم، متولون بأبدانهم، لاهون غافلون، حالهم كما قال الشاعر:

والناس في غفلة عما يراد بهم كأنهم غنم في حوش جزارٍ

والمقصود: التهديد والوعيد لهم، أي: وسيعلمون غب ذلك.

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد هؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره؛ مبيّنًا لهم عجز أهتهم، وعدم استحقاقهم للعبادة.

﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والسخرية، و«ما»: موصولة، أي: الذي تدعونه غير الله من الأصنام والأوثان.

﴿أَرُونِي﴾، أي: أخبروني، والأمر للتحدي والتعجيز.

﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، «ماذا»: استفهامية، أو «ما»: استفهامية، و«ذا»: بمعنى «الذي»، أي: ما الذي خلقوا من الأرض؟ أي: هل خلقوا جبالًا، أو أجروا أنهارًا، أو نشروا حيوانًا، أو أنبتوا أشجارًا، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: أنهم لم يخلقوا من الأرض شيئًا.

وإذا لم يكن شيء من الأرض مخلوقًا لهم بطل أن يكونوا آلهة؛ لخروج المخلوقات عن خلقهم وتصرفهم؛ كما قال تعالى منكرًا على المشركين: ﴿أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۗ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، «أم» في الموضعين: هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل هؤلاء الآلهة شركة ونصيب

مع الله في السموات؟

أي: أنهم لم يخلقوا شيئاً من الأرض، ولا شرك لهم في السموات، ولا في الأرض، فكيف تدعونهم من دون الله؟!

﴿اَتْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّن عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

لما ذكر انتفاء الدليل العقلي لهم على دعوتهم الأصنام والأوثان من دون الله، أتبع ذلك بذكر انتفاء الدليل النقلي لهم على ذلك؛ كما قال في سورة فاطر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

أي: اتتوني بكتاب من كتب الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة الأصنام. والأمر - كالذي قبله - للتحدي والتعجيز.

﴿مَنْ قَبْلَ هَذَا﴾، أي: من قبل القرآن، الذي أمر بعبادة الله تعالى وحده، ونهى عن الشرك.

﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِّن عِلْمٍ﴾، أي: أو اتتوني بأثارة من علم، أي: بقية وموروث من علم الرسل يأمر بذلك.

﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين في أن هذه الأصنام والأوثان لها شرك مع الله، وتستحق العبادة من دونه.

وفي هذا إفحام لهم، فلا يستطيعون أن يأتوا بدليل؛ لا معقول ولا منقول على ما هم عليه من الشرك بالله، وقد أجمع الرسل عليهم السلام على الدعوة إلى توحيد الله، والنهي عن الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٢٥] [الأنبياء: ٢٥].

فكل رسول يقول لقومه: اعبدوا الله؛ ما لكم من إله غيره؛ كما جاء في ذكر قصصهم.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الاستفهام للنفي، أي: لا أحد أشد ضلالاً

وأعظم جهلاً من الذي يدعو ويعبد غير الله.

﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، «من» موصولة، أي: الذي لا يستجيب له إلى يوم القيامة، أي: لا يستجيب له أبداً، وهي الأصنام والأوثان، فهي لا تسمع دعاء من دعاها ولا تستجيب له؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾، أي: وهؤلاء الآلهة عن دعاء المشركين إياهم وعبادتهم لهم في الدنيا غافلون؛ لأنهم جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعا ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

كما قال الخليل عليه السلام: ﴿يَتَأْتَى لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢].

هذه حال آلهتهم في الدنيا، وهم في الآخرة كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا جُمِعَ النَّاسُ عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾، أي: كان هؤلاء الآلهة لعبادهم أعداءً، يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، أي: وكان هؤلاء الآلهة بعبادة المشركين إياهم كافرين، أي: منكرين جاحدين لها؛ كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [٨١] ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [٨٢]، [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [١٧] ﴿قَالُوا سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يُلْبِغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَعَٰبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾  
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا  
 بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ  
 أَنِيعُوا إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾، أي: وإذا تتلى على المشركين المكذبين، أي: تُقرأ عليهم آيات الله واضحاتٍ ظاهراتٍ جلياتٍ.  
 ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مكذبين ومكابرين ومعاندين.

﴿لِلْحَقِّ﴾، وهو القرآن وما جاء فيه من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والنهي عن الشرك، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، أي: حين جاءهم.

﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: بين واضح ظاهر، وكذبوا، وهذا من قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعاف العقول، وهو من أشد وجوه فرط ضلالهم.  
 وأظهر في مقام الإضمار؛ للتسجيل عليهم بالكفر، وأنه سبب قولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، أي: بل يقولون افتراه؟ أي: افتري محمد هذا القرآن، أي: اختلقه وتقول له من عند نفسه، فليس هو من عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بِكْ لَأَ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الطور: ٣٣]، وهذا ضرب آخر من ضروب ضلالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٤].

ولهذا تحداهم الله في زعمهم أنه افتراه: أن يأتوا هم بأنفسهم بسورة أو بعشر سور مثله، أو يأتوا بمثله.

﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾، أي: قل لهم يا محمد: إن كنت افتريت هذا القرآن من عند نفسي، وزعمت أنه من عند الله، فقد تعرضت لأشد العقاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِ لِلِأَخْذَانَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

لأن التقوّل على الله أعظم أنواع الافتراء، وأشد الموبقات وأعظمها، وأعمها فساداً؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

فجعل عز وجل القول على الله بلا علم أعظم من الشرك وغيره من الذنوب؛ لشدته، وعظم جرمه، وانتظامه لجميع الذنوب؛ ولهذا قال هنا:

﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، أي: فلا تقدرّون، لا أنتم ولا غيركم على دفع عقوبة الله عني؛ كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا يَجْحَرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: ٣٥].

والمعنى: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردها.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ تعليل للنفي قبله، و«ما»: موصولة، أي: هو سبحانه أعلم بالذي تفيضون فيه، وضمير الهاء يعود إلى القرآن.

والإفاضة هنا بمعنى: إطالة القول والكلام، أي: هو أعلم بما تفيضون وتطيلون من القول في القرآن، قدحاً وطعناً فيه، من قولكم: سحر، أو شعر، أو مفترى، أو غير ذلك.

ويجوز كون ضمير الهاء يعود إلى الرسول، أي: هو أعلم بما تفيضون من الطعن والقدح في الرسول ﷺ، من قولكم: ساحر، أو شاعر، أو مفترٍ، أو كاهن، أو مجنون، أو غير ذلك.

﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: كفى به عز وجل شاهداً ومطلعاً ورقيباً وحاكماً بيني وبينكم. وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي: وهو ذو المغفرة الواسعة لمن تاب إليه، يستر ذنوبهم، ويتجاوز عنهم.

﴿الرَّحِيمُ﴾: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، رحمة خاصة بالمؤمنين، ورحمة عامة لجميع الخلق.

وفي هذا ترغيب لهم بالتوبة، ووعدهم بالمغفرة والرحمة، إن تابوا وأنابوا إليه مع ما

صدر منهم من التكذيب والعناد، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِعُ الْأُولِيَاءَ  
اِكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۗ﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾، أي: لست بأول رسل الله إلى خلقه، حتى تستنكروا  
وتستبعدوا بعني إليكم، فقد سبقني جميع الرسل والأنبياء، وما كنت بدعاً من الرسل في  
دعوتي لكم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فهذا ما دعت إليه الرسل كلهم قبلي.  
﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، «لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي، أي: وما أعلم ما الذي  
يفعله الله بي ولا بكم في هذه الدنيا، وما الذي قدره علي وعليكم فيها؛ لأنني لا أعلم  
الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ  
الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

[الأعراف: ١٨٨].

أما في الآخرة فإنه ﷺ يعلم ما يفعل به في الآخرة، وأنه يصير إلى الجنة هو ومن  
اتبعه، وقد قال ﷺ: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة..» (١).  
وشهد ﷺ لعدد من الصحابة رضي الله عنهم بالجنة؛ كالعشرة المبشرين بالجنة  
وغيرهم (٢).

كما يعلم ﷺ أن الكفرة والمشركين في النار، ويعلم كل ما أخبره الله به وأعلمه.  
﴿إِنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾، «إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«إلا»: أداة حصر، و«ما»:  
موصولة، أي: ما أتبع إلا الذي يوحيه الله تعالى إلي من الوحي؛ دعوةً إليه، وعملاً به.  
﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: وما أنا إلا نذير بين النذارة،  
وأمري بين ظاهر، وليس بيدي شيء من الأمر، بل الأمر كله لله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ  
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٢١؛ من حديث حسناء بنت معاوية الصريمية، عن عمها رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٤٧؛ من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه.

## الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه، وحكمه وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝١﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ۝١﴾.

٣- إثبات أن القرآن كلام الله تعالى منزل من عنده، وتعظيمه، وإبطال القول بخلق القرآن.

٤- إثبات اسميه عز وجل: «العزیز»، و«الحكيم»، وصفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾.

٥- حكمة الله تعالى البالغة، وقدرته العظيمة في خلق السموات والأرض وما بينهما، وأنه ما خلقهما وما بينهما إلا بالحق والعدل، وإقامة الحق والعدل، لا عبثاً ولا باطلاً؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۝١﴾.

٦- أن الله جعل للسموات والأرض وما بينهما من المخلوقات أجلاً مسمى، ووقتاً محدداً تفنى عند حلوله، وهو انتهاء هذه الدنيا، ومصير الخلائق ومعادهم إلى الله تعالى؛ ليجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝١﴾.

٧- إعراض الذين كفروا عما أُنذروا، وخوفوا منه، وهوهم وغفلتهم عما خلقوا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝١﴾.

٨- توبيخ المشركين، والإنكار عليهم في عبادتهم آلهة من دون الله، وتحديد أن يكون هؤلاء المعبودين خلقاً شياً من الأرض، أو شرك في السموات، وإثبات عجزهم، وعدم استحقاقهم للعبادة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۝١﴾.

٩- أن المستحق للعبادة هو الله تعالى وحده، المتفرد بخلق السموات والأرض وجميع المخلوقات، لا شريك له في ذلك كله، ولا معين، ولا ظهير.

١٠- أنه لا دليل ولا برهان للمشركين على اتخاذهم هذه الآلهة لا من عقل ولا نقل،

ولا مصداق لزعمهم أن لها شركاً مع الله، وأنها تستحق العبادة، وأنها تنفع وتشفع؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُوفَىٰ بِكِتَابٍ مِن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَوْنَ مَن عَمِلَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

١١- أن العقل، والنقل في جميع الكتب السماوية، وعلى ألسنة جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام دل على وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده لا شريك له.

١٢- أنه لا أحد أشد ضللاً وجهاً ممن يعبد من دون الله أصناماً وأوثاناً لا تسمع ولا تستجيب له أبداً، بل هي جمادات غافلة عن دعائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

١٣- إثبات يوم القيامة، وحشر الناس فيه للحساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾.

١٤- عداوة هؤلاء المعبودين من دون الله يوم القيامة لعابديهم، وكفرهم بعبادتهم، وتبرؤهم منهم ومن عبادتهم إياهم، أحوج ما يكونون إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

١٥- شدة كفرهم وعنادهم، وجرأتهم على وصف كتاب الله وما جاءهم فيه من الآيات البينات والحق بأنه سحر بين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

١٦- قيام الحجة عليهم بالآيات البينات، وبيان الحق لهم، والإعذار منهم.  
١٧- أن الذي حملهم على وصفهم القرآن بأنه سحر مبين، هو كفرهم؛ بدلالة الإظهار في قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدل الإضمار.

١٨- زعمهم الكاذب، وافتراؤهم الباطل عليه ﷺ بأنه اختلق القرآن من عند نفسه وليس هو من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾.

١٩- عِظَم شأن الافتراء على الله، وأن من افتري على الله، وتقول عليه ما لم يقل، وزعم أن الله أرسله كذباً عاجله الله بالعقوبة الشديدة، التي لا يستطيع أحد دفعها عنه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

٢٠- علم الله تعالى المحيط بهم، وبما يفيضون من القول في الطعن بالقرآن،

وبالرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

٢١- الوعيد والتهديد لهم بكفايته عز وجل شهيداً ومطلعاً عليهم، وحاكماً بينه

ﷺ وبينهم، ومجازياً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

٢٢- أنه لا أعظم كفاية من الله عز وجل في الشهادة على العباد، ومحاسبته إياهم.

٢٣- إثبات اسميه عز وجل: «الغفور» و«الرحيم»، وصفتي: المغفرة والرحمة

الواسعتين له عز وجل، وترغيب هؤلاء المكذبين وغيرهم بالتوبة والإنابة؛ ليغفر لهم

ويرحمهم. وفي هذا دلالة على واسع حلمه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

٢٤- الجمع لمن تاب وأتاب إلى الله بين زوال المهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب

بالرحمة.

٢٥- أنه ﷺ ما هو إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وليس هو أول رسول،

وليس ما جاء به من الدعوة إلى توحيد الله والنهي عن الشرك بدعاً في الرسالات، بل

كل الرسل قبله دعوا إلى ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ﴾.

٢٦- أنه ﷺ كغيره من البشر؛ لا يعلم الغيب، ولا يعلم ما أخفاه القدر له ولا

لغيره في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾.

٢٧- أنه ليس إليه ﷺ إلا اتباع ما أوحاه الله تعالى إليه؛ دعوة إليه، وعملاً به،

وليس له من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِن أَنبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾.

٢٨- أنه ﷺ ما هو إلا نذير بين، ينذر ويحذر من عذاب الله، وفي طي ذلك بلا

شك تبليغ التكاليف؛ ليرتب على ذلك الإنذار لمن خالفها، والبشارة لمن امتثلها؛ لقوله

تعالى: ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ لَمْ يَهْدِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١١ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ١٢ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِيمَانًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِيَ لِلْمُحْسِنِينَ ١٣ إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٤ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٥ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ١٦ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ١٧ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ مَا أَنْتَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَتِلْكَ ءَامِنٌ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا يَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٨ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ١٩ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ٢٠ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ٢١ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ لَمْ يَهْدِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١١ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ١٢ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِيمَانًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرِيَ لِلْمُحْسِنِينَ ١٣ إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٤ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٥ ﴾

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني، والاستفهام للتقرير والتوبيخ.

﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أي: إن كان هذا القرآن منزلاً من عند الله تعالى وكلامه. ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾، أي: كذبتم به وجحدتموه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: معطوف على «كان»، أي: وشهد شاهد من علماء بني إسرائيل على مثل القرآن، تصديقاً له ولما جاء به؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

ومعنى ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾، أي: على مثل القرآن؛ كالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، فهي مثل القرآن في كونها منزلة من عند الله تعالى، ودعت إلى ما دعا إليه من توحيد الله ونبذ الشرك، وأخبرت بمثل ما أخبر به من البعث والحساب والجزاء، وشهدت بصدقه وصحته، وبشرت به.

﴿فَأَمَّنْ﴾ هذا الذي شهد من بني إسرائيل، على مثل القرآن، أي: آمن بالقرآن؛ لمعرفة بصحته وصدقه؛ كما آمن بكتابه قبل ذلك؛ لعلمه أن كتب الله أولها يبشر بآخرها، ويشهد بصدقه، وآخرها مصداق ما أخبر به أولها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [١٠٧] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال تعالى في سورة هود: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَنْبَعٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الآية: ١٧]، والشاهد: القرآن.

فهذه الآيات كلها تدل على إيمان أهل الكتاب بالقرآن، وشهادتهم بصدقه، خصوصاً من وفقه الله منهم للحق.

وليس المراد بالشاهد في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ شخصاً معيناً، لا عبدالله بن سلام، ولا غيره، بل كل من وفقه الله منهم لقول الحق شهد بذلك. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وجمع من التابعين: أنها نزلت في عبد الله بن سلام<sup>(١)</sup>.

والصحيح: أن سورة الأحقاف كلها مكية، وعبدالله بن سلام إنما أسلم في المدينة. وأما حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام، قال وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾»<sup>(٢)</sup>.

فقد قال ابن حجر<sup>(٣)</sup>: «إن ذكر النزول مُدرَج من بعض الرواة؛ يعني: نزول قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾».

﴿وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الخطاب لمشركي قريش، أي: واستكبرتم أنتم عن الإيمان بالقرآن واتباعه، وكذبتم وكفرتم به، فكان هذا الشاهد من بني إسرائيل أسعد منكم آمن بكتابه وآمن بكتابتكم ولم يذكر مفعولي: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ تهويلاً له؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب، والتقدير: أرايتم حالكم إن كان من عند الله وكفرتم به، أي: أُلستم ظالمين ضالين؟ كما قال في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾<sup>(٥٤)</sup> [فصلت: ٥٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: تعليل لما قبله، أي: لا يهديهم للإيمان بالقرآن واتباعه، بسبب ظلمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلِبُ أَعْدَتِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَدَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾<sup>(١١٠)</sup> [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

(١) انظر: «جامع البيان» ٢١/١٢٦-١٣١.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، مناقب عبدالله بن سلام ٣٨١٢، ومسلم في فضائل الصحابة، فضائل عبدالله بن سلام ٢٤٨٣.

(٣) «فتح الباري» ٧/١٦٢.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: إن الله لا يهديكم، بل قال: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لتسجيل وصفهم بالظلم، وبيان أنه سبب عدم هدايتهم.  
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ إعجاباً منهم بأنفسهم وغروراً.  
 ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾، أي: لو كان القرآن وما دعا إليه خيراً.

﴿مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾؛ يعنون: الذين بادروا إلى الإسلام من الضعفاء؛ كبلال وعمار وصهيب وخباب وأمثالهم من الضعفاء والمماليك، أي: ما سبقنا هؤلاء إلى الإسلام اغتراراً منهم بأنفسهم وتزكية لها، واحتقاراً لمن بادر إلى الإسلام من الضعفاء؛ كما قال قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ آتِئَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

وما علموا أن إيمان هؤلاء إنما هو فتنة لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَن آتَى اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿وَإِذ لَّمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾، أي: وإذا لم يهتد هؤلاء الكفار المكذبون بالقرآن، وفاتهم هذا الفضل العظيم.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ كبراً منهم، واستمراراً على كفرهم وتكذيبهم، وانتقاصاً للقرآن: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، أي: هذا القرآن كذب قديم، أي: مأثور عن الأقدمين.  
 كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لِيُجَادِلُوكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نُثِّلْنَا عَلَيْهِم مَّا آتَيْنَا قَالَوَا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنَّا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٥].

وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ خلاف قول المؤمنين الصادقين المستمسكين بهدي النبي ﷺ وأصحابه: أن كل ما لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه من قول أو فعل

فهو بدعة؛ لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾، أي: ومن قبل القرآن الكريم، ﴿كُتِبَ مُوسَى﴾، «التوراة» أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم.

﴿إِمَامًا﴾، أي: قدوة يقتدي به بنو إسرائيل، ويأتمون به، ويعملون بما فيه من الأحكام والشرائع قبل نسخه بالقرآن.

وقوله: ﴿كُتِبَ مُوسَى﴾، ولم يقل: التوراة؛ للتذكير بأنه أنزل على بشر؛ كما أنزل القرآن على محمد ﷺ.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾، أي: وهذا القرآن كتاب عظيم، ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لما قبله من الكتب، أي: مخبر وشاهد بصدقها، بإخباره بنزولها من عند الله، وموافقته لها، ويكونه مصداق ما أخبرت وبشّرت به.

﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾، أي: حال كونه لساناً عربياً، أي: بلغة العرب، فصيحاً واضحاً لتيسير ذكره وفهمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

﴿يُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب بالخطاب: ﴿لتنذر﴾، وقرأ الباقر بالغيب: ﴿لينذر﴾. واللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر، أي: يحذر ويخوف الذين ظلموا بالشرك والكفر والفسق والمعاصي من عذاب الله.

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾: معطوف على «ينذر»، أي: وليكون بشرى للمحسنين، وهم المؤمنون الذين جمعوا بين الإحسان في عبادة الله تعالى، بالإيمان به، والإخلاص له، واتباع شرعه، وبين الإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، أي: بشرى لهم بالسعادة في الدنيا والآخرة، وبالجنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، أي: أقروا بألستهم بربوبية الله وألوهيته، واعترفوا بذلك بقلوبهم، ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على ذلك بعبادته عز وجل وحده بالعمل بجوارحهم؛ فعلاً للمأمورات، وتركاً للمحظورات، مدة حياتهم.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم.  
 ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: أولئك أهل الجنة الملائمون لها.  
 ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين ومقيمين فيها إقامة أبدية؛ لا تحول، ولا تزول.  
 ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، «جزاء»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: يُجْزَوْنَ جزاءً،  
 والباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كانوا يعملونه، أو  
 بسبب عملهم، من الإيثار بالله والاستقامة على دينه.  
 وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك» تنويهاً بهم، ورفعاً لشأنهم.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ  
 وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي  
 أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ  
 الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ  
 الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾:

لما ذكر في الآية السابقة التوحيد، وإخلاص العبادة لله، والاستقامة إليه، عطف  
 بالوصية بالوالدين؛ لأن حقها أعظم الحقوق بعد حق الله تعالى؛ ولهذا قرن الله تعالى  
 بين حقه وحقها في آيات عدة في القرآن الكريم.

قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾؛ قرأ حمزة وعاصم والكسائي: ﴿إِحْسَانًا﴾  
 بزيادة همزة مكسورة قبل الحاء، وإسكان الحاء، وفتح السين، وألف بعدها.  
 وقرأ الباقون: ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء، وإسكان السين، من غير همزة ولا ألف.  
 أي: أمرنا الإنسان وأوجبنا عليه أن يحسن بوالديه إحساناً، ببرهما والحنو والعطف  
 عليهما، وخدمتهما، وطاعتها، والقيام بحقوقهما.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾؛ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن  
 ابن عامر ويعقوب: ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف في الموضعين.  
 وقرأ الباقون: ﴿كَرْهًا﴾ بفتحها في الموضعين.

أي: قاست أمه في حال حملها مشقة عظيمة وتعباً شديداً، من وحام وغثيان، وثقل

وَكُرْبٍ، إلى غير ذلك مما يتتاب الحامل من أنواع التعب والمشقة.

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، أي: وولدهته كرها، أي: بمشقة عظيمة من كُرْب الطلق وشدته.  
 ﴿وَحَمْلُهُ، وَفِصْلُهُ، ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾؛ قرأ يعقوب بفتح الفاء، وإسكان الصاد من غير  
 ألف: ﴿وَفِصْلُهُ﴾، وقرأ الباقون بكسر الفاء، وفتح الصاد، وألف بعدها: ﴿وَفِصْلُهُ﴾،  
 أي: ومدة حملة في بطن أمه، ﴿وَفِصْلُهُ﴾، أي: فطامه.  
 ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، تسعة أشهر - غالبًا - حملة، ورضاعه بقية الثلاثين، واحد  
 وعشرون شهرًا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى إذا بلغ اشتداد قوته البدنية والعقلية واستواءه؛ كما قال  
 تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَاسْتَوَىٰ ءَانِيَتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾  
 [القصص: ١٤].

﴿وَيَبْلُغُ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهي نهاية تكامل القوى غالبًا.  
 ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾، أي: ألهمني ووفقني.  
 ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول  
 ثانٍ لـ «أوزعني»، أي: أوزعني شكر نعمتك.  
 ونعمة: مفرد مضاف إلى معرفة فيعم جميع النعم، أي: رب ألهمني ووفقني شكر  
 جميع نعمك، وذلك بالاعتراف بها لك، واستعمالها في طاعتك، والاستعانة بها على  
 مرضاتك.

﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ من جميع النعم الدينية والدنيوية، وكان من دعاء النبي ﷺ في  
 التشهد: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها، قابليها، وأتمها علينا»<sup>(١)</sup>.

﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾؛ لأن النعمة على الوالدين نعمة على الأولاد.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ الواو: عاطفة، و«أن» والفعل «أعمل» في تأويل مصدر  
 في محل نصب معطوف على المصدر السابق، أي: وأوزعني أن أعمل في المستقبل عملاً

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، التشهد ٩٦٩؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

صالحًا، خالصًا لوجهك، موافقًا لشرعك، ترضاه عني، وتقبله مني.  
﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾؛ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته؛ لأنهم أحق من غيرهم، أي: اجعل ذريتي ذرية صالحة، مخلصة لك، متبعة لشرعك.  
وفي قوله: «لي» إشارة إلى أن صلاح الذرية يعود بالنفع على والديهم.  
﴿إِنِّي تَبْتُ﴾، أي: رجعت وأنبت إليك، ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين استسلموا لك بالتوحيد، وانقادوا لطاعتك، وأخلصوا لك من الشرك.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بنون مفتوحة ﴿نَقَبَلُ﴾، و﴿نَتَجَاوَزُ﴾، و﴿أَحْسَنَ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بياء مضمومة: ﴿يُنَقَبَلُ﴾، و﴿يُنَجَاوَزُ﴾، و﴿أَحْسَنُ﴾ بالرفع.  
أي: أولئك الموصوفون بما ذكر، التائبون إلى الله، المسلمون له ﴿نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: أحسن الذي عملوه، أو أحسن عملهم، أي: جميع الطاعات؛ لأنها أحسن الأعمال.

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، أي: نغفو عن سيئاتهم، فنغفر لهم الزلل، ونقبل منهم اليسير من العمل.

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾، أي: في جملة أصحاب الجنة، أي: أهلها وساكنيها.  
﴿وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، ﴿وَعَدَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف مؤكد لمضمون الجملة السابقة، أي: وعد الصدق والحق الثابت، الذي كانوا يوعدون به من ربهم، الذي لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِيُؤَدِّيهِ أَفٍ لَكُمْ أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ تَمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبْيَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهٗ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ الآية.

أوصى عز وجل بالإحسان إلى الوالدين، وأثنى على البارين بوالديهم، الداعين لهم، ووعدهم بالقبول والعتق والجنة، ثم أتبع ذلك بذكر حال الأشقياء العاقين لوالديهم، وتوعدهم بالعذاب والخسران والنار.

قوله: ﴿وَالَّذِي﴾: اسم موصول في محل رفع مبتدأ، والمراد به: الجنس، وخبره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾.

﴿قَالَ لَوْلَايَهٗ﴾ لما دَعَوَاهُ إِلَى الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَخَوْفَاهُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ: ﴿أَفٍّ لَّكُمَا﴾، «أف»: كلمة تضجر.

﴿أَتَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ قرأ هشام بإدغام النونين: ﴿أَتَعْدَانِي﴾، وقرأ الباقر بالنونين: ﴿أَتَعْدَانِي﴾. وفتح نافع وأبو جعفر وابن كثير الياء. والاستفهام للإنكار.

﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ثانٍ لـ «تعداني»، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بأن أخرج، أي: أتعديني أن أخرج، أي: أن أبعث حيًّا من قبري يوم القيامة.

﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه قد خلت القرون، أي: قد مضت الأمم السابقة من قبلي على إنكار البعث، والتكذيب به، ولم يبعثوا. ﴿وَهُمَا يَسْتَعِثَّانِ اللَّهَ﴾، أي: ووالداه يستغيثان الله، أي: يدعوان الله ويسألانه هداية ولدهما.

﴿وَيْلَكَ﴾، أي: يقولان: ﴿وَيْلَكَ﴾، وهي كلمة تهديد وتخويف وتحذير من الهلاك، وتوجع.

﴿ءَايِنَ﴾، أي: آمِنُ بِاللَّهِ، وَصَدَّقَ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ؛ لَتَنْجُو مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ الجملة: استئنافية، أو تعليلية، أي: إن وعد الله ببلقائه والبعث والحساب والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ﴾، أي: ثابت وصدق، وآتٍ لا محالة، وكائن ولا بد.

﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا﴾ الذي تعدانني به وتقولانه، وتخوفانني به.

﴿إِلَّا اسْتَظِيرُ الْأَوْلِينَ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: حكايات الأولين وخرافاتهم التي سطروها في كتبهم من الأكاذيب، وتناقلوها بينهم، وليس من عند الله، ولا أوحاه إلى رسوله.

عن يوسف بن ماهك، قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر زيد بن معاوية؛ لكي يبائع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها، فلم يقدرُوا، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أُفٍّ لَكُمْ أَتَعَدَّانِي﴾. فقالت عائشة من وراء الحجاب: «ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري» (١).

والصحيح: أن الآية عامة في كل من قال هذا القول، وأنكر البعث وكذب به. قال ابن كثير (٢): «وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبدالرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه».

﴿أُولَئِكَ﴾، أي: أولئك العاقون لوالديهم، المنكرون للبعث والحساب والجزاء، المكذبون بوعد الله.

﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، أي: الذين وجب عليهم القول بالكفر والعذاب. ﴿فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾، أي: في عداد وجملة أمم كافرة مضت من قبلهم من الجن والإنس على الكفر والتكذيب، فسيدخلون في غمارهم، ويُحشرون في لوائهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم، وفاتهم النعيم وتبوا أو الجحيم، وذلك هو الخسران المبين.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحقاف ٤٨٢٧.

(٢) في «تفسيره» ٢٦٦/٧.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ﴾، أي: ولكل من المؤمنين بالله ووعده، والمكذبين به ﴿دَرَجَتٌ﴾، أي: منازل في القيامة.

﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾، أي: من الذي عملوه، أو من عملهم، أي: بحسب أعمالهم، فالمؤمنون يتفاوتون في الدرجات في الجنات؛ كما قال تعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، والكافرون يتفاوتون في الدرجات في النار.

﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم بالياء: ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ﴾، وقرأ الباقون بالنون «ولنوفيههم».

والواو في قوله: ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ﴾ عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولأجل أن يوفيههم أعمالهم، أي: يعطيهم جزاء أعمالهم وافيًا. وأضيفت التوفية للأعمال، مع أن المراد: يوفيههم جزاء أعمالهم؛ للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يظلمون، فلا ينقص من حسناتهم، ولا يزداد في سيئاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُظَلِّمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، أي: واذكر يوم يعرض الذين كفروا على النار، يوم القيامة.

﴿أَذْهَبْتُمْ طِبْيَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾؛ قرأ ابن كثير: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزتين على الاستفهام التوبيخي، وقرأ الباقون: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزة واحدة على أنه خبر مستعمل في التوبيخ، أي: يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبْيَتَكُمْ﴾ في الآخرة، وأضعتموها، واستعصمت عنها بالحقير.

﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾، أي: بالركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها، والاعتزاز بنعيمها الزائل، وزينتها وزخارفها الفانية.

﴿وَأَسْتَمَنَّعُمْ بِهَا﴾، أي: بما فيها من الم لذات والشهوات البهيمية، فكانت حظكم، وخسرتم طيبات الجنات في آخرتكم.

﴿فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾: «عذاب الهون» من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب المهين الذي يهينكم ويدلكم ويخزيكم.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية في الموضعين، أي: بسبب كونكم تستكبرون في الأرض، أي: تتعالمون وتأنفون من اتباع الحق، وتتعاظمون على الخلق. والسين والتاء للمبالغة.

﴿بِعَاقِبِ الْحَقِّ﴾ متعلق بحال من فاعل «تستكبرون»، والاستكبار لا يكون إلا بغير حق.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، أي: وبسبب كونكم تفسقون، أي: تخرجون عن دين الله وطاعته بالكفر والشرك والمعاصي.

### الفوائد والأحكام:

١- تقرير أن القرآن الكريم من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفَّرْتُمْ بِهِ﴾ الآية.

٢- توبيخ المشركين المكذبين بالقرآن، الكافرين به، المستكبرين عن الإيمان به، وبيان ظلمهم وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفَّرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

٣- شهادة علماء بني إسرائيل على صدق القرآن وعلى مثله من كتبهم كالتوراة والإنجيل، في كونها كلها منزلة من عند الله، وأنها حق وصدق، وإيمانهم به وبكتبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ﴾.

٤- حرمان الظالمين من هداية الله الخاصة وتوفيقه؛ بسبب ظلمهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٥- قدح الكفار في خيرية القرآن، واغترارهم بأنفسهم، وتزكيتهم لها، واحتقارهم للمستضعفين من المؤمنين، ونقمتهم عليهم، وحسدهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴿٦﴾ .

٦- جراتهم على وصف القرآن - لما لم يهتدوا به؛ بسبب كفرهم واستكبارهم وظلمهم - بقولهم: هذا إفك قديم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيئُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ .

٧- أن الهداية بيد الله تعالى؛ يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، وأن أقرب الناس إلى الهداية واتباع الحق الضعفاء والمساكين، وأبعدهم من ذلك ذوو الجاه والغنى؛ حكمة بالغة.

٨- أن أكثر الناس أعداء لما جهلوا، ولما لم يحصلوا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيئُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ .

٩- إبطال تكذيبهم بالقرآن، وإحالتهم أن يوحي الله إلى النبي ﷺ بالاستدلال بوحيه عز وجل إلى موسى بكتابه التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ .

١٠- عظم منزلة كتاب موسى «التوراة» بين كتب الله؛ لأنه أعظمها بعد القرآن الكريم؛ لامتداحه عز وجل له بقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ، أي: إمامًا لبني إسرائيل يقتدون به، ورحمة لهم، وذلك قبل نسخه بالقرآن الكريم.

١١- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وفضله.

١٢- تعظيم الله عز وجل للقرآن الكريم، والتنويه بكونه مصدقًا لما قبله من الكتب، وبلغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا﴾ .

١٣- أن الله عز وجل أنزل هذا القرآن العظيم؛ لإنذار الظالمين، والبشارة للمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ .

١٤- فضيلة الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا على طاعته، وعظم ما أعد الله لهم من النعيم، من انتفاء الخوف والحزن عنهم، وتخليدهم في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ .

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزَعِنِّي﴾.

١٦- لا بد من الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾؛ كما قال ﷺ: «قل آمنت بالله، ثم استقم» (١).

١٧- أن النعيم لا يتم إلا بزوال المرهوب من الخوف والحزن ونحو ذلك.

١٨- إثبات وجود الجنة، وأن نعيمها لا ينقطع، وأهلها مخلدون فيها؛ لقوله تعالى:

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

١٩- أن الجزاء من جنس العمل، وأنه بسبب العمل، وليس عوضاً عنه؛ كما يقول المعتزلة؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

٢٠- تعظيم الله عز وجل لحق الوالدين، ووصيته الإنسان بالإحسان بالديه، وتذكيره بما لاقته أمه من مشقة الحمل والولادة، والإرضاع والتربية، والحضانة والفظام طيلة ثلاثين شهراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

٢١- عظم ما تلاقيه الأم من المشقة والتعب خلال حملها، وعند وضعها، وخلال تربيتها لمولودها، وإرضاعه وحضائته، وخدمته حتى فطامه؛ ولهذا لما سأل رجل النبي ﷺ: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال في الرابعة: «ثم أبوك» (٢).

وجاء جاهمة السلمى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو، وقد جئتك أستشيرك، فقال: هل لك من أم؟ قال: نعم. قال: فالزمها، فإن الجنة تحت

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢؛ من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٤٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رجليها»<sup>(١)</sup>.

فجزى الله عنا أمهاتنا خير الجزاء، وأجزل لمن الأجر والثوبة، ورزقنا البر بهن وبآبائنا أحياء وأمواتاً.

٢٢- أخذ أهل العلم من قوله: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، مع قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع - وهي سنتان - إذا أسقطت من الثلاثين شهراً بقي ستة أشهر هي مدة الحمل.

٢٣- الإرشاد للإنسان إذا بلغ أشده، واكتملت قواه البدنية والعقلية، وبلغ أربعين سنة أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله تعالى، والإسلام له، ويسأل الله أن يلهمه ويوفقه لشكر نعمته عليه وعلى والديه، وأن يوفقه ليعمل صالحاً يرضاه الله، ويصلح له ذريته؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنَيْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٤- أن بلوغ الأشد واكتمال القوى البدنية والعقلية ببلوغ أربعين سنة غالباً.

٢٥- في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ الآية، رد على القدرية الذين ينفون قدرة الله على أفعال العبد، وأنها ليست مخلوقة لله.

٢٦- أن النعمة على الوالدين نعمة على الأولاد؛ لأنه سينال الأولاد - غالباً - من آثار نعمة الله على والديهم، دينية أو دنيوية.

٢٧- أن من أهم ما ينبغي للمسلم أن يسأله ربه أن يوفقه لشكر نعمته، وللعمل الصالح الذي يرضاه سبحانه، وأن يصلح له ذريته؛ لأن في صلاحهم منفعة له ولهم.

٢٨- لا بد من كون العمل صالحاً: خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه، مراداً به رضا الله.

٢٩- أن الدعاء للذرية بالصلاح أولى من غيرهم، وقد قال الله تعالى للنبي ﷺ:

(١) أخرجه النسائي في الجهاد ٣١٠٤، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨١؛ من حديث جاهمة بن معاوية السلمى، عن أبيه جاهمة رضي الله عنه.



فبعث النار من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون، وواحد إلى الجنة؛ كما جاء في الحديث<sup>(١)</sup>.

وقد قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»<sup>(٢)</sup>.

وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد      وواحد كالألف إن أمرنا<sup>(٣)</sup>

٣٧- جرأة المكذبين بالبعث على وصف الوعد بذلك، والتخويف به بالأساطير المكذوبة؛ لقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

٣٨- الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، للمنكرين للبعث المكذبين به، بالعذاب والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾<sup>(١٨)</sup>.

٣٩- إثبات القدر السابق، وأن من كتب الله عليه الضلال والشقاء فلا سبيل إلى هدايته، فعلى الوالدين دعوة أولادهما إلى الإيمان وسلوك الطريق المستقيم، وبذل الجهد في ذلك ما استطاعا، والإلحاح على الله في الدعاء، وسؤال الهداية لهم.

فإن لم يستجيبوا فليعلم الوالدان أن الهداية بيد الله، فلا تذهب نفساهما حسراتٍ عليهم، فإن نوحًا عليه السلام لم يستطع هداية ابنه، وإبراهيم عليه السلام لم يستطع هداية أبيه، ومحمد ﷺ لم يستطع هداية عمه. وقد قال الله عز وجل له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ نُفْسَكُ الْأَيُّ كُنُوتًا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢٠)</sup> [الشعراء: ٣].

٤٠- أن لكل من المؤمنين بالله ووعده ووعيده، والمكذبين بذلك منازل يوم القيامة، فالمؤمنون متفاوتو درجاتهم في جنات النعيم، والمكذبون متفاوتو منازلهم في دركات الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البيت لابن دريد من مقصورته. انظر: «ديوانه» ص ١٣٢، «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي ص ٧٤.

- ٤١- إعطاء كل عامل جزاء عمله وافيًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾.
- ٤٢- كمال عدل الله عز وجل في مجازاة الخلائق، فلا يُظلم أحد منهم بنقص من الحسنات، أو زيادة في السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.
- ٤٣- جمع القرآن بين ذكر حال المؤمنين السعداء، وحال الكافرين الأشقياء، والوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين؛ ترغيبًا وترهيبًا.
- ٤٤- عرض الكفار يوم القيامة على النار، وتقريعهم وتوبيخهم على إذهاب طيباتهم في حياتهم الدنيا بركونهم إلى الاستمتاع بملذاتها وشهواتها الفانية، ونسيان العمل للأخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُم طَبِئَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾.
- ٤٥- إثبات القيامة، ووجود النار، وعرض الكفار عليها ذلك اليوم.
- ٤٦- أن الدنيا والآخرة صرّتان، فمن مال إلى إحداهما أضر بالأخرى، والواجب أن يعمل الإنسان للأخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَبْتَعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسِكْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ١٧٧].
- ٤٧- التحذير من الاغترار بالدنيا وزينتها ومتاعها، وتحقيرها، فهي ظل حائل، ومتاع زائل.
- ٤٨- مجازاة الكفار ذلك اليوم بالعذاب المهيّن، الذي يهينهم ويذلهم ويخزيهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وعلى الخلق، وبسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.
- ٤٩- ينبغي الحذر من الكبر؛ لأنه سبب لرد الحق، والتعالي على الخلق، وأنه إنما يكون بغير الحق، والحذر من الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُتَافِكَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ مَكَرْتُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٤﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُتَافِكَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: واذكر يا محمد بنفسك ولقومك ﴿أَخَا عَادٍ﴾، وهو نبي الله تعالى وعبد هود عليه السلام.

﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾، أي: حين حذر وخوف قومه عادة عذاب الله تعالى. ومن لازم ذلك بلا شك أن يكون بلغهم وأمرهم ونهاهم، ثم أنذرهم وحذرهم من مخالفة أمر الله وارتكاب نهيهِ.

﴿بِالْأَحْقَافِ﴾، «الأحقاف»: جمع «حِقْف»، وهو الرمل العظيم الرفيع المستطيل. وكانت منازلهم بالأحقاف، وهي رمال عظيمة في أرض اليمن جنوب الجزيرة.

﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ﴾، أي: مضت الرسل والأنبياء.

﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، أي: قريباً منه في الزمن؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا

نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، أي: قبل العذاب قريباً منه.

﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، أي: بعيداً منه في الزمن؛ ولهذا قال هود عليه السلام لقومه:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وأيضاً: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فيما حول بلادهم من القرى، فلم يكن هود عليه

السلام بدعاً من الرسل، ولم تكن بلادهم أول بلاد يُرسل إليها النذُر؛ كما قال تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤].

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، أي: قائلاً لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تعليل للنهي قبله، أي: لأني أخاف عليكم

عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة؛ بسبب شرككم.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾؛ الاستفهام: للإنكار، أي: أجيئنا لأجل أن تصدنا

وتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ أي: لنترك عبادة آلهتنا؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿يَهْودُ مَا

جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعُدُّنَا﴾، أي: فأتنا بالذي تعدنا به من العذاب العظيم، أي: عجله لنا،

﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوتك إيانا، وفيما تتوعدنا به من العذاب في الدنيا

والآخرة، فاستعجلوا عذاب الله وعقوبته؛ جهلاً منهم وعناداً، واستبعاداً لذلك،

وتكذيباً به؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي: علم وقت إتيان العذاب، وعلم الساعة، وعلم

المغيبات كلها عند الله وحده، لا يعلم ذلك كله أحد من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبي

مرسل، والحصر حقيقي؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَيْهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْنَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾، أي: وأوصل إليكم الذي أرسلت به إليكم من عند الله، أي: هذا شأني، والذي أقدر عليه؛ كما قال في سورة الأعراف للملأ من قومه لما رموه بالسفاهة قال: ﴿يَقْوِمُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨].

وكما قال نوح عليه السلام قبله لقومه لما رموه بالضلال: ﴿يَقْوِمُ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢]، وكما قال تعالى عن الرسل عموماً: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، أي: تجهلون عظمة الله تعالى، واستحقاقه وحده للعبادة، وحكمته في إرسال الرسل، وصدق وعده، وشدة عذابه؛ ولهذا استعجلتم العذاب؛ كما قال بعض مشركي قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وكان الأولى أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾، أي: فلما رأوا العذاب الذي تُوعِدُوا به ﴿عَارِضًا﴾: حال، و«العارض»: هو السحاب العظيم الذي يعترض في أفق السماء كالجبال. ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾، «مستقبل»: صفة لـ«عارضاً»، أو حال ثانية، أي: مقبلاً على أوديتهم، والسين والتاء: للمبالغة.

﴿قَالُوا﴾ فرحين مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، أي: هذا سحاب سيمطرنا. ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾، أي: قال الله لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾، «بل»: للإضراب، أي: بل هو الذي استعجلتم به من العذاب بقولكم: ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ

مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾ .

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ريح صرصر شديدة البرودة، عاتية شديدة الهبوب، فيها عذاب شديد مؤلم موجه حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغْنَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْحِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٦].

وهي «الريح العقيم»؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]. وهي «الدبور»؛ كما قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ»<sup>(١)</sup>، وهي الريح الغريبة.

﴿تُدْمِرُ﴾ التدمير: الإهلاك والتخريب والإفساد.

﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ أمرت بتدميره من الديار والنبات والإنسان والحيوان وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤٢]، أي: لا تذر من شيء أمرت بتدميره.

﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ الكوني، وإذنه ومشيتته.

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾؛ قرأ يعقوب وعاصم وحزمة وخلف: ﴿يُرَىٰ﴾ بياء مضمومة على الغيب، و﴿مَسَاكِنَهُمْ﴾ بالرفع، وقرأ الباقون بالتاء وفتحها على الخطاب: ﴿تَرَىٰ﴾، ونصب ﴿مَسَاكِنَهُمْ﴾.

أي: فصاروا لا تشاهدوا إلا مساكنهم، قد بادوا عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٨].

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿كَذَلِكَ﴾، أي: مثل هذا الجزاء الشديد، والعقاب الأليم، الذي جازينا به عادًا بسبب إجرامهم.

﴿نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: نجزي ونعاقب أمثالهم من المجرمين. وفي هذا تهديد لمشركي قريش، وتحذير لهم.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم هود: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنَا﴾» (١).

وفي رواية عنها رضي الله عنها، قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيماً - أو ريحاً - عُرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله، أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأته عَرَفْتُ في وجهك الكراهية؟ قالت: فقال: «يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُدِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنَا﴾» (٢).

وعنها؛ أن رسول الله ﷺ: كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته، ثم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «اللهم اجعله صيباً نافعاً» (٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعَادَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَادَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ

(١) أخرجه مسلم في الاستسقاء، التعوذ عند رؤية الريح والغيمة، والفرح بالمطر ٨٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحقاف ٤٨٢٩، ومسلم ٨٩٩، وأحمد ٦٦/٦.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠٩٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٩، وأحمد ٦/١٩٠.

مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾  
فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا  
يَفْقَرُونَ ﴿٢٨﴾:

قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾؛ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، «مكناهم»: جواب القسم المقدر.  
أي: ولقد مكنا عادا والأمم السابقة الذين أهلكتناهم، أي: أعطيناهم القوة والقدرة، وبسطنا لهم في الأموال والأولاد.

﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾، «ما»: موصولة، و«إن»: نافية، أي: في الذي لم نمكنكم فيه، والخطاب لمشركي قريش؛ ليعلموا أن الذي قدر على إهلاك عاد مع قوتهم وشدتهم، قادر على إهلاكهم من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمُ﴾ [الأنعام: ٦].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾، أي: خلقنا لهم كامل الحواس والقوى العقلية والفكرية؛ من السمع والأبصار والعقول؛ كما جعلنا لكم ذلك.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، أي: فما نفعهم، ولا دفع عنهم عذاب الله.  
﴿سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي: من أي شيء، لا قليل ولا كثير.  
﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، «إذ»: ظرف بمعنى حين، أي: حين كانوا يكذبون بآيات الله، ودلائل قدرته الدالة على وحدانيته، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، «ما»: موصولة، أي: وأحاط ونزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون ويكذبون، ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المشركون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ الخطاب لمشركي قريش، و«ما»: موصولة، أي: ولقد أهلكتنا الذي حولكم من القرى، أي: أهلكتنا أهلها بسبب تكذيبهم رسلهم، كعاد، وكانت مساكنهم في الأحقاف في اليمن جنوب الجزيرة، وشمود وكانت مساكنهم

في شمال الجزيرة، بين الحجاز والشام، وكذا سبأ في اليمن.

﴿وَصَرَفْنَا الْأَيْدِيَّ﴾، أي: نوعناها وبينناها ووضحناها، وكررتها لهم، تارة بالحجج والمجادلة والنظر، وتارة بالتذكير بالنعم، وتارة بالوعد والوعيد، وغير ذلك.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لأجل أن يرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب والضلال.

﴿فَلَوْلَا نَصْرَهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، و«لولا»: للتوبيخ، أي: فهلا نصرهم الآلهة .

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: الذين جعلوا غير الله ﴿قُرْبَانًا لِلْهِتَابِ﴾ يتقربون بهم إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾، «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل غابوا عنهم وذهبوا أحوج ما كانوا إليهم، فلم ينصروهم.

﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾، أي: كذبهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾، «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: والذي كانوا يفترونه، أو - وافترأؤهم، أي: وما كانوا يكذبون في زعمهم أن هؤلاء الآلهة يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَى اللَّهِ.

### الفوائد والأحكام:

١- التذكير بقصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وإنذاره إياهم، وأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتحذيرهم من عذاب يوم القيامة، ومحاجتهم وتكذيبهم له وإهلاكهم؛ تسلياً للنبي ﷺ، وتحذيراً للمكذبين له من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ أُمَّةَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه عاد، وإنذاره لهم، وأنه أخوهم، أي: منهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٢) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُونَ (١٣٤) [الشعراء: ١٢٣، ١٢٤].

٣- أن منازلهم كانت بالأحقاف، وهي رمال ممتدة في اليمن جنوب الجزيرة.

٤- أن النذر قد مضت قبل هود من بين يديه ومن خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتْ

النُّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۗ ﴿٢١﴾

٥- نبيه قومه عن عبادة غير الله، وتخويفهم العذاب؛ لقوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۗ﴾

٦- عظم يوم القيامة وشدته، وشدة عذابه وأهواله.

٧- محاجتهم ومجادلتهم بالباطل، وتمسكهم بالهتهم، واستعجالهم بما توعدهم به

من العذاب؛ إنكاراً له، وتكذيباً لهود عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَلْحِنَّا لِنَأْفِكَا عَنْ

ءَاهِنِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعُودُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ ۗ﴾

٨- أن العلم بإتيان العذاب في الدنيا والآخرة، وإتيان الساعة؛ من خصائص الله

عز وجل، لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ﴾

٩- أن مهمة الرسل عليهم السلام هي إبلاغ رسالات ربهم، وليس إليهم الإتيان

بالعذاب، ولا يعلمون متى يكون؛ لقول هود عليه السلام: ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ۗ﴾

١٠- جهل عاد؛ حيث أبوا إلا الشرك بالله، واستعجلوا العذاب، وكذبوا

رسولهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَلَكِنِّي أُرْسِلُكُمْ قَوْمًا بَجْهَلُونَ ۗ﴾

١١- أن الجهل داء قاتل، يورد أهله موارد البوار والخسار، وقد أحسن القائل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه (١)

١٢- ظنهم أن العذاب- لما رأوه مقبلاً على أوديتهم- عارض ممطرهم استبشاراً

به؛ غروراً منهم، وأمثاً من عقاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ

قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۗ﴾

١٣- تبكيتهم وتقريعهم بأن هذا العارض هو ما استعجلوا به من العذاب، وهي

ريح فيها عذاب مؤلم لهم، تدمر كل شيء أمرها الله بتدميره، وتسخيرها عليهم،

واستئصالهم عن آخرهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ۗ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ۗ﴾

(١) البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحلاج. انظر: «الإعجاز والإيجاز» ص ١٦١.

- ١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهَا﴾.
- ١٥- أن ما أوقعه الله بهم من العذاب إنما هو بسبب إجرامهم، وفي هذا تحذير من الإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.
- ١٦- أن عادًا- مع ما أعطاهم الله من التمكين والقوة، واكتئال الحواس والقوى العقلية- لم ينفعهم ذلك شيئًا، ولم يدفع عنهم عذاب الله، لما جحدوا آيات الله، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون ويكذبون.
- وفي هذا تهديد ووعيد للمشركين المكذبين للنبي ﷺ، وهم أقل من عاد قوة، وأضعف أسامعًا وأبصارًا وأفئدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾﴾.
- ١٧- تذكير المشركين بإهلاك ما حولهم من القرى، وتصريف الآيات وتنويعها لأولئك المهلكين ليرجعوا، وتحذير المشركين أن يصيبهم مثل ما أصابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾﴾.
- ١٨- أن الله لا يهلك قومًا حتى يُعذَرَ إليهم، ويقم الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
- ١٩- تخلي آلهة المشركين عن نصرتهم، وغياهم عنهم أحوج ما كانوا إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾.
- ٢٠- بطلان زعمهم- إفكًا وكذبًا وافتراء- أن هذه الآلهة تشفع لهم، وتقربهم إلى الله زلفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِمَكُم مِّنْ عَذَابِ الْبَئِيسِ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنَ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِنَّ بَقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَنْجِي الْمَوْتُ بَلَاءً إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِن الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِمَكُم مِّنْ عَذَابِ الْبَئِيسِ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنَ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾:

ذكر عز وجل هودًا عليه السلام وإنذاره لقومه، وتكذيبهم له، وإهلاكهم؛ موعظة للمشركين، وتهديدًا وتحذيرًا لهم، ثم ذكر صرف الجن إليه ﷺ، واستماعهم إلى قراءته، وإيمانهم، ورجوعهم إلى قومهم دعاة مندرين؛ موعظة للمشركين، وتوبيخًا لهم، وترغيبًا لهم بالإيمان.

قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾، أي: واذكر حين صرفنا إليك نفرًا من الجن، أي: بعثناهم ووجهناهم إليك، والنفر: الجماعة والعدد من عشرة فما دونها. قيل: وكان عددهم تسعة.

﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، أي: يستمعون قراءتك القرآن.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾، أي: فلما حضروا قراءتك القرآن.

﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾، أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَنْصِتُوا﴾، أي: أصغوا واستمعوا للقرآن؛ استجابة لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾، أي: فرغ من قراءته، ووعوه وآمنوا به؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ﴿٢﴾ [الجن: ١-٢].

﴿وَلَوْ﴾، أي: انصرفوا ورجعوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾، أي: محذرين لهم ونحو فينهم عذاب الله وعقابه.

عن علقمة، قال: قلت لابن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، لكننا فقدناه ذات ليلة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح - أو قال في السحر - إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله - فذكروا له الذي كانوا فيه - فقال: «إنه أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم. وفي رواية: «أتاني داعي الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن»، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله: «فلا تستنجوا بهما؛ فإنهما طعام إخوانكم»<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن، ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها، وانظروا ما هذا

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة الجن.

الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهمامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، واستمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم: «قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً»، وأنزل على نبيه ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ [الجن: ١]، وإنما أُوْحِيَ إِلَيْهِ قَوْلَ الْجِنِّ﴾ (١).

قال ابن كثير (٢) بعد أن ذكر الروايات في صرف الجن إليه ﷺ، وقراءته عليهم، ومنها الرواية عن ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما؛ قال: «فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله عز وجل، وشرع لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت، وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود».

﴿يَقَوْمَنَا﴾، أي: قائلين: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ﴾؛ يعنون: القرآن الكريم، ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، أي: من بعد موسى وكتابه الذي أنزل عليه، وهو التوراة، ولم يذكروا عيسى عليه السلام؛ لأن رسالة عيسى وكتابه الإنجيل، متمان لرسالة موسى عليه السلام وكتابه التوراة.

وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه، أول أمره قال: «هذا هو الناموس الذي كان ينزل على موسى» (٣).

ولما سمع النجاشي القرآن قال: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة» (٤).

(١) سيأتي تخرجه في تفسير سورة الجن.

(٢) في «تفسيره» ٢٧٩/٧.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤، ومسلم في الإيمان ١٦٠؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) انظر: «دقائق التفسير» ٣/٤/٥٢٥.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، «مصدقًا»: حال من «كتابًا»، أي: مصدقًا لما سبقه من كتب الله تعالى، شاهداً بصدقها وصحتها، ومصدق ما أخبرت وبشرت به من نزوله على النبي ﷺ، ومصدقًا لما دعت إليه من عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشرك، وغير ذلك؛ لموافقتها لها بذلك.

﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، أي: يدل ويرشد إلى الحق في الاعتقاد، بالتصديق والإيمان بالقلب.

﴿وَالْإِلَهَ لَطَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: عدل لا اعوجاج فيه في العمل، بكونه خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه، وهو صراط الله وطريق السائرين إليه، الموصل إلى مرضاته وجناته؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، فالهدى: العلم النافع، ودين الحق: العمل الصالح.

﴿يَقَوْمًا أٰجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَأٰمَنُوا بِهِ﴾، لما امتدحوا القرآن، وبيّنوا عظمته، دعوا قومهم إلى الاستجابة له بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والإيمان به. ويحتمل أن يكون المراد ب«داعي الله»: الرسول ﷺ، فهو داعي الله إلى العمل بالقرآن.

وفي هذا دلالة على أن الله عز وجل أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين: الإنس والجن؛ حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليمهم، ووعدهم ووعدهم، وهي سورة الرحمن.

﴿يَقْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها. ﴿وَيُجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيبِرِ﴾، أي: ويقكم من عذاب مؤلم موجه شديد، وهو عذاب النار.

وإذا غفر الله لهم ذنوبهم، وأجارهم من العذاب الأليم، فما ثم إلا إدخالهم جنات النعيم؛ لأنه ما ثمة بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا

حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾  
 قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ [الزمر: ٧١-٧٢]،  
 ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧٣].

قال الشاعر:

الموت باب وكل الناس داخله      ياليت شعري بعد الموت ما الدار؟  
 الدار جنة عدن إن عملت بها      يرضي الإله وإن فرطت فالنار  
 هما محلان ما للناس غيرهما      فاختر لنفسك ماذا أنت مختار (١)

﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣٢): بعد أن رغبوا من أجاب داعي الله من قومهم بمغفرة الله له، ووقايتهم من عذاب أليم، أتبعوا ذلك بترهيب من لم يجب داعي الله منهم، فجمعوا لهم بين الترغيب والترهيب.

قوله: ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ ﴾، أي: بامثال أمره، واجتناب نبيه.

﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾، أي: فليس بفائت من عذاب الله بالهرب في الأرض؛ لكمال قدرة الله تعالى، فلا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب.

﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ ﴾، أي: وليس له غير الله ﴿أَوْلِيَاءٌ﴾، أي: أنصار ينصرونه، ويمنعون عنه عذاب الله، ويدفعونه أو يرفعونه.

﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ الإشارة لمن لم يجب داعي الله، وكفر بالله. وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً.

﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾، أي: بعيد كل البعد عن الهدى والحق.

قوله تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يُقَدِّرْ عَلَيَّ ﴾

(١) الأبيات لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص ١٤١.

أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلُغٌ فَمَهْلِكُهُمْ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٥﴾

حُتِمَتِ السُّورَةُ بِإِثْبَاتِ الْبَعْثِ وَالِاحْتِجَاجِ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ؛ كَمَا بُدِئَتْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي أُولَٰهَا: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣].

قَوْلُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: أولم يعلم هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث، أن الله الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهن على غير مثال سبق.

﴿وَلَمْ يَعَىٰ بِمَخْلُقِهِنَّ﴾، أي: ولم يعجز ولم يكثرث أو يتعب بخلقهن، بل قال لهما: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

﴿يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾؛ قرأ يعقوب: ﴿يَقْدِرُ﴾، وقرأ الباقون: ﴿يَقْدِرُ﴾، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، أي: بقادر على إحياء الموتى. أي: أن الذي قدر على خلق السموات والأرض ولم يعجز ولم يكثرث بذلك، فهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة من باب أولى؛ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، «يوم»: ظرف متعلق بمحذوف، أي: يقال يوم يعرض الذين كفروا على النار: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟ أو اذكر يوم يعرض الذين كفروا، أي: يوم القيامة، يوم يعرض الذين كفروا على النار.

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾: الاستفهام: للتقرير والتوبيخ والتنديد؛ أي يقال لهم: أليس هذا الذي تشاهدونه وترونه عياناً؛ من إحيائكم بعد موتكم، وعرضكم على النار، ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: هو الحق المبطل لقولكم: ﴿إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾

[الدخان: ٣٥] ، وقولكم: ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾،  
[الصافات: ٥٨، ٥٩]، وزعمكم أن ذلك سحر؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا  
تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٥].

وأظهر في مقام الإضمار؛ لتسجيل الكفر عليهم، وأنه سبب عرضهم على النار،  
وقول هذه المقالة لهم.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، «بلى»: حرف جواب، أي: بلى هذا هو الحق، فلم يسمعهم إلا  
الاعتراف بالحق، والإقرار بتكذيبهم.

﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الأمر للإهانة، أي: فأحسوا بالعذاب وتجرعوه.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كفركم.

﴿فَأَصْبِرْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: فاصبر على أذى قومك وعنادهم وتكذيبهم.

﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ﴾ الكاف: للتشبيه، أي: مثل صبر أولي العزم.

و﴿أُولُو الْعَزْمِ﴾: ذوو الثبات والصبر، والتوكل على الله، وعدم التردد، قال تعالى:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ

مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ

عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

[الشورى: ٤٣].

﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾، «من»: تبعيضية، أي: من الرسل قبلك، وهم: إبراهيم وموسى

ونوح وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وقد فاقهم ﷺ في ذلك، فكان - وهو خاتم

الرسل - أول أولي العزم؛ كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ

مِيثَاقَهُمْ وَمِنَكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾

[الأحزاب: ٧]، فبدأ به ﷺ من بينهم.

ويحتمل أن تكون «من»: بيانية، فيكون قوله: ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾

مرادًا به جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾، أي: ولا تطلب منا تعجيل العذاب لهم، لطلبهم ذلك جهلاً منهم وحمقاً، أي: ولا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم؛ كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قِيلًا﴾ [الزمل: ١١]، وقوله: ﴿مَهَلِّ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوبًا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾: تعليل للنهي السابق، أو استئناف بياني، و«ما» موصولة، أي: كأنهم يوم يشاهدون الذي يوعدون، أي: الذي تُوعَدُوا به من العذاب يوم القيامة.

﴿لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: لم يمكثوا في الدنيا ويتنعموا فيها إلا ساعة واحدة قليلة من نهار، أي: يستقلون أعمارهم معها طالت في حياتهم الدنيا؛ من عظم ما يشاهدون من العذاب الذي وُعدوا به، وشدة الهول والكره؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب» الحديث (١).

﴿بَلِّغْ﴾، أي: هذا القرآن بلاغ، فيه تبليغ الناس رسالة ربهم، وموصل إلى مرضاته وجنته؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَلِّغُ لِلنَّاسِ لِئَسْأَلُوهُ عَنِّي وَيَلْبِغُوا عَلَيَّ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلِّغًا لِّقَوْمٍ عٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

وأيضاً فإن لبث الخلائق في الدنيا كله بلاغ، أي: بلُغَة، وسرعان ما ينقضي.

﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفٰسِقُونَ﴾ الاستفهام: للنفي، و«إلا»: أداة حصر، أي: لا يهلك ويعذب ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفٰسِقُونَ﴾، أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى بالكفر والشرك، وإنكار البعث وتكذيب وعد الله تعالى؛ لاستحقاقهم ذلك. وهذا من عدله عز وجل؛ فإنه لا يهلك على الله إلا هالك.

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢١.

## الفوائد والأحكام:

١- تشریف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾.

٢- إثبات وجود الجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾.

٣- إثبات شهود نفر منهم لقراءته ﷺ، واستماعهم لها، والتذكير بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾.

٤- أن تدبير الجن وتصريفهم، بيد الله، وأعمالهم كغيرهم من الخلق مخلوقة لله وبمشيئته. وفي هذا رد على المعتزلة الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم.

٥- حسن أدب الجن مع القرآن لما شهدوا قراءته؛ لأمر بعضهم بعضًا بالإنصات له؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾.

٦- وعيهم وفهمهم للقرآن لما سمعوه، ومبادرتهم بالإيمان به، والإنذار به، والدعوة إليه بعد فراغ قراءته؛ لقوله تعالى: ﴿يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٧- أن الجن فيهم نُذُرٌ منهم، لكن ليس فيهم رسل؛ لأن الرسل كلهم من الإنس؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وأما قوله تعالى: ﴿يَلْمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما، وهم الإنس؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، أي: من أحدهما.

٨- تعظيمهم للقرآن، وتأثرهم به، وامتداحهم له، ولما اشتمل عليه من الهداية؛ لقولهم: ﴿يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾.

وَالْكَرْبِ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٣﴾

٩- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإنزال التوراة عليه، وإيمان الجن بذلك؛ لقولهم: ﴿أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾.

١٠- إثبات أن القرآن منزل من عند الله، غير مخلوق، وكذا التوراة، وجميع كتب الله تعالى.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال يكون من أعلى.

١٢- أن القرآن يهدي إلى الحق، وإلى التي هي أقوم في الاعتقاد والعمل؛ لقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَالْكَرْبِ مُسْتَقِيمٌ﴾.

١٣- تظفهم مع قومهم في دعوتهم إلى إجابة الرسول ﷺ، والعمل بالقرآن، والإيمان بالله؛ لقولهم: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

١٤- ترغيبهم قومهم بقولهم: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْرِمِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

١٥- أن من استجاب للرسول ﷺ، وعمل بالقرآن، وآمن بالله من الثقلين، غفر الله له ذنوبه، وأجاره من عذاب النار، وأدخله جنته؛ لأنه ليس في الآخرة من دار إلا الجنة أو النار، فمن رُحِّحَ عن النار أُدْخِلَ الجنة.

أما الاستدلال بهذه الآية على أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة، وإنما يجارون من عذاب النار يوم القيامة، فإنه ليس بصحيح؛ للأدلة الثابتة على دخولهم الجنة، وتنعيمهم؛ كما سيأتي.

١٦- تهديدهم ووعيدهم لمن لم يجب داعي الله بأنه لن يعجز الله هرباً في الأرض، وليس له من دونه أولياء، وهو في ضلال مبين؛ لقولهم: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٣).

١٧- جمعهم في دعوتهم لقومهم بعد التلطف معهم بين الترغيب لهم والترهيب؛ ولهذا نجح ذلك في كثير من قومهم، فجاؤوا إلى النبي ﷺ وفوداً وفوداً.

١٨- أن الجن مكلفون بفعل المأمورات، وترك المنهيات، مجازون على أعمالهم، مثابون، أو معاقبون؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِيَعْبُدُونَهُ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١]، وقال تعالى مخاطبًا الإنس والجن: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ﴿٦﴾ فِآئِي ءآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِذْ نَسَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فِآئِي ءآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٦، ٥٧، ٧٤، ٧٥]؛ ولهذا قالت الجن: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد» (١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد استدل ابن القيم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ على تكليف الجن من سبعة أوجه (٢).

١٩- إثبات تمام قدرة الله تعالى على البعث والمعاد، وإحياء الأجساد؛ لقدرة التامة دون عجز أو تعب على خلق السموات والأرض التي من أعظم المخلوقات، وأكبر من خلق الناس؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ مِغْفَابًا يَحْتَفِلُ فِيهِ الْبَرُّ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٠].

٢٠- قدرته عز وجل التامة على كل شيء؛ لكمال قدرته، وتمام علمه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٢١].

٢١- التذكير بعرض الذين كفروا على النار، وتقريرهم وتوبيخهم على تكذيبهم بالبعث والحساب والعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٢٢].

٢٢- إقرارهم واعترافهم بأن البعث والعرض على النار حق بعدما شاهدوا الأمر

(١) سياقي تخريجه في سورة الرحمن.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ١٥٦/٤.

عياناً لا مجال لإنكاره؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَيْنَا﴾.

٢٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقولهم: ﴿وَرَيْنَا﴾.

٢٤- تبيكتهم وتقريعهم وإهانتهم بأمرهم بذوق العذاب بسبب كفرهم؛ لقوله

تعالى: ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٢٥- تسليته عز وجل للنبي ﷺ، وتقوية قلبه بأمره بالصبر على أذى قومه

وعنادهم؛ كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو

الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

٢٦- التنويه بصبر أولي العزم من الرسل قبله، وهم: إبراهيم وموسى ونوح

وعيسى عليهم السلام، أو جميع الرسل.

٢٧- نهي عزم وجل له ﷺ عن استعجال العذاب لهم؛ لطلبهم ذلك؛ جهلاً منهم

ومحماً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.

٢٨- استقلالهم مدة لبثهم وتنعمهم في الدنيا عند رؤيتهم ما يوعدون من

العذاب، من عظم الخطب، وشدة الهول والكره؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا

يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

٢٩- أن القرآن بلاغ للناس، فيه إبلاغهم رسالة الله، وإيصالهم إلى مرضاته

وجنته؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ﴾؛ كما أن الحياة الدنيا كلها بلاغ، أي: بلغة، وسرعان ما

تنقضي.

٣٠- أنه لا يهلك ولا يعذب إلا القوم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله تعالى

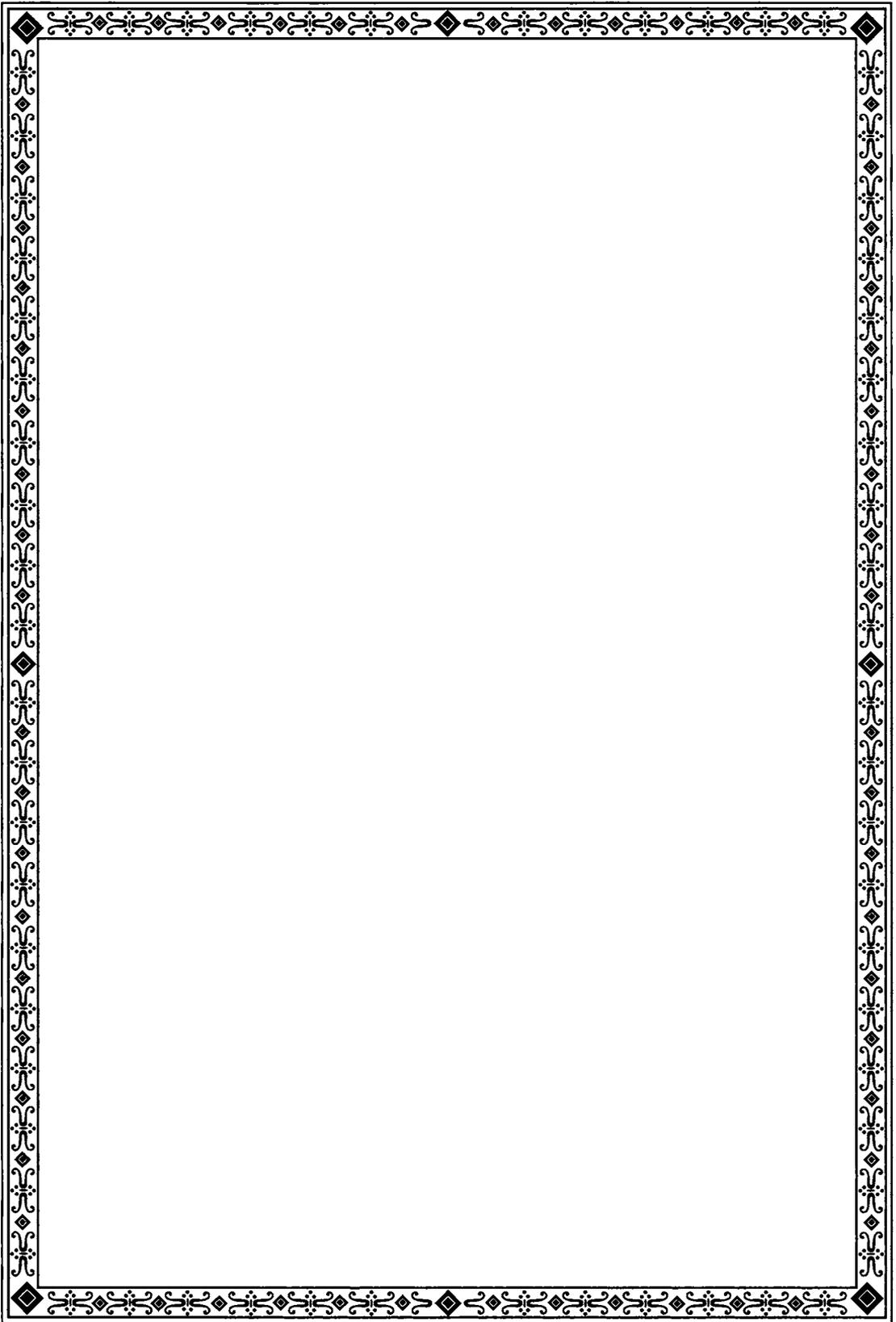
بالكفر، وإنكار البعث، وتكذيب وعد الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ

الْفَاسِقُونَ﴾.

٣١- التحذير من الفسق، وأنه سبب الهلاك والعذاب، وأنه لا يهلك على الله إلا

هالك.

تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ  
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة محمد»؛ لقوله تعالى في الآية الثانية منها:  
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [الآية: ٢].

وتسمى: «سورة القتال»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا  
الْقِتَالُ﴾ [الآية: ٢٠].

ويقال لها: «سورة الذين كفروا».

## ب- مكان نزولها:

مدينة.

## ج - موضوعاتها:

١- بدئت السورة بدم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وبيان إضلاله أعمالهم، بسبب اتباعهم الباطل، والثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم، بسبب اتباع الحق من ربهم  
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ  
أَمْثَلَهُمْ﴾.

٢- التهيج على قتال الكفار وضرب رقابهم وأسرهم، ووعد الله تعالى لمن قتلوا في سبيل الله بهدايتهم وإصلاح بالهم وإدخالهم الجنة، ووعد المؤمنين بالنصر وتثبيت أقدامهم، ووعد الذين كفروا بالشقاء وإضلال أعمالهم وإحباطها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

٣- توبيخ المكذبين للنبي ﷺ كيف لم يتأملوا ويعتبروا بعاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ  
أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

٤- إثبات ولاية الله للمؤمنين، وإدخالهم الجنات، وبيان أن الكافرين لا مولى لهم ومصيرهم إلى النار: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٠].

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَعَوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ  
الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ .

٥ - التهديد للمشركين بالهلاك كما أهلك كثير من القرى فلا ناصر لهم: ﴿وَكَايْنٍ  
مِنْ قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ .

٦ - شتان بين من كان على بينة من ربه مآله إلى الجنة وما فيها من الأنهار والثمرات  
ومغفرة الرب العظيم، وبين من زين له سوء عمله واتبع هواه، ومصيره إلى الخلود في  
النار والحميم: ﴿مِثْلَ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ  
وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِ بَيْنَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ  
فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيْمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾ .

٨ - ذم الذين كفروا في عدم انتفاعهم من سماع القرآن ودعوة الرسول ﷺ  
ومعاقبتهم بالطبع على قلوبهم، واتباعهم أهواءهم، وتهديدهم بقرب قيام الساعة:  
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَايَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ  
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ  
أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٦﴾﴾ .

٩ - التنويه بشأن الذين اتقوا ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ .

١٠ - وجوب العلم أنه لا إله بحق إلا الله عز وجل والاستغفار، وبيان أن العلم  
قبل القول والعمل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ  
يَعْلَمُ مَتَابِعَاتِكُمْ وَمَثَلَكُمْ ﴿١٨﴾﴾ .

١١ - تمنى بعض المؤمنين شرعية الجهاد واستعجالهم ذلك جهلاً منهم، ﴿وَيَقُولُ  
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿١٩﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ  
الْأَمْرُ فَلَوَّضَدُّوا قُلُوبَهُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ .

١٢ - التحذير من قطيعة الأرحام، وأنها من أعظم الفساد في الأرض، والذم  
والوعيد لمن قطع رحمه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢١﴾﴾ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٢﴾ \*

١٣- الوعيد للمعرضين عن تدبر القرآن والعمل به المرتدين على أديبارهم، ودمهم، وبيان سوء حالهم عند توفى الملائكة لهم: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَفْعَالًا ﴾ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ \*

١٤- التهديد للمنافقين ومرضى القلوب بفضيحتهم: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ ﴾ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمْسَأْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَسَبَلُونَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ \*

١٥- الوعيد للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ ﴿٣٢﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ﴿٣٤﴾ \*

١٦- حث المؤمنين على طاعة الله والرسول، ونهيهم عن الوهن والمسألة للأعداء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ﴿٣٣﴾، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتْرُكَنَّ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ﴿٣٥﴾ \*

١٧- التزهيد في الدنيا وبيان حقارتها والترغيب في الإيمان والتقوى والإنفاق في سبيل الله: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِن تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّلُوا فِيكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَأْذِنُكُمْ أَمْوَالِكُمْ ﴾ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِفْكُمْ يَخْلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَاتِنْتُمْ هَتُولَاءِ تُدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّن يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْعَنِيَّ وَأَنْتُمْ أَلْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾ \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ③ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِمَا مَاتَ بَعْدُ وَإِمَا فُتِدَ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُضِلُّهُمُ اللَّهُ وَيُضِلُّهُمُ اللَّهُ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ⑤ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَإِنْ تُصْرَبُوا اللَّهُ يَضْرِبْكُمْ وَيَنْتَبِتْ أَقْدَامَكُمْ ⑥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَمَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ⑦ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ⑧ ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ③ ﴾ .  
قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الذين كفروا بالله، وجحدوا ألوهيته، وكذبوا رسوله فيما جاء به.

أو علموا بصدقه ولم يتبعوه، قال ابن تيمية<sup>(١)</sup>: «الكفر يكون بتكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعتة مع العلم بصدقه، مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم». ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: انصرفوا بأنفسهم عن دين الله وصراطه المستقيم، وصرفوا غيرهم عنه من رؤساء الكفر وأئمة الضلال ونحوهم؛ كما في نهيمهم عن سماع القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالنَّوْءَ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ④﴾ [فصلت: ٢٦].

(١) في «دره تعارض العقل والنقل» ١/ ٢٤٢.

وفي إنفاقهم ليصدوا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وغير ذلك.

﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ أخطأها وأبطلها، سواء كانت من الأعمال السيئة التي يكدون بها للرسول ﷺ ولدعوته وللمؤمنين، فخيَّب الله سعيهم ولم يحصلوا على مرادهم.

أو من الأعمال التي يعتقدون أنهم يثابون عليها، كالكرم والنجدة، وحفظ الجوار، وصلة الأرحام ونحو ذلك، فلم يؤجروا عليها؛ وذلك لفقدان شرط قبولها، وهو الإيمان.

كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [١٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صدقوا بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرع الله تعالى بجوارحهم.

﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هذا من عطف الخاص على العام، أي: وآمنوا بالقرآن الذي أنزله الله على محمد، أي: آمنوا بما أنزل على رسل الله عموماً، وبالذي أنزل على محمد خصوصاً؛ لأنه لا يصح الإيمان إلا بالإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن نوح إلى محمد سيدهم وخاتمهم؛ ولهذا فإن من كذب من أهل الكتاب وغيرهم برسالته ﷺ، وأنكرها أو زعم أنها خاصة بالعرب، فليس بمؤمن.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الجملة: حالية، أو اعتراضية، والضمير «هو» يعود إلى «ما» الموصولة في قوله: ﴿بِمَا نُزِّلَ﴾، أي: إلى الذي أنزل على محمد، وهو القرآن الكريم.

﴿كَفَرَتْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، أي: تجاوزت وحما عنهم سيئاتهم، أي: ذنوبهم وخطاياهم، صغارها وكبارها، فنجاهم من عذابه في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، أي: وأصلح شأنهم، وأمر دينهم ودنياهم، فأسعدهم في دنياهم، وأنهم أعظم السعادة والثواب في آخرهم بجنته ورضوانه.

ولهذا جاء في تسميت العاطس الدعاء له بقوله: «يهديكم الله ويصلح بالكم»<sup>(١)</sup>.  
 ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة للمفهوم مما سبق، وهو إضلاله عز وجل أعمال الكافرين  
 الصادين عن سبيله، وتكفيره سيئات الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على  
 محمد، وإصلاحه بالهم.

﴿بَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا أَتَّبَلَّ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أن الذين كفروا اتبعوا  
 الباطل، أي: اختاروا الباطل، وسلكوا طريقه بالكفر والصد عن سبيل الله.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، أي: وبسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق من  
 ربهم، بالإيمان والعمل الصالح والإيمان بما أنزل على محمد.

وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾: تنويه به، وتشريف لهم.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة لما تقدم من ذكر الكفار  
 وأعمالهم وبطلانها، وذكر المؤمنين وأعمالهم وثوابها، أي: مثل هذا البيان يبين الله للناس  
 وصف أهل الخير، وأهل الشر، ومآل أعمالهم وجزائها؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ  
 وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمُ فَشدُّوا الوَثَاقَ فَإِمَّا مَتَّ بَعْدُ  
 وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرْتُمْ وَلَكِنْ لِيَسْأَلُوا بِعَظْمِ الَّذِينَ قُتِلُوا  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَبِّدِيهِمْ وَيُضْلِحْ بِأَلْمَمِ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأَيَّأُ  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾  
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾:

قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، أي: فإذا لقيتم - أيها المؤمنون - الذين  
 كفروا في الحرب، وفي ميدان المعركة، ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر،  
 و«ضرب»: مفعول مطلق، أي: فاضربوا رقابهم، أي: أعناقهم، واقتلوهم بلا هوادة،

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٥٢٤، وأبو داود في الأدب، ما جاء في تسميت العاطس ٥٠٣٣؛ من  
 حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا تحريض وتهييج للمسلمين على قتال الكفار المحاربين دين الله وأولياءه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنْخَسْتُمُوهُمْ﴾، أي: حتى إذا أرهقتموهم وأوهنتموهم وأضعفتموهم بكثرة القتل فيهم، وكسرتم شوكتهم، ورأيتم الأسر أولى وأصلح.

﴿فَشَدُّوا لِرَبَائِقِكُمْ﴾، أي: فأسروا من أمكنكم أسرهم منهم، وشدوا وثاقهم.

والوثاق: القيد والرباط، أي: أحكموا أسرهم وقبضهم؛ لئلا ينفلتوا ويهربوا.

﴿فَأَمَّا مَنْ بَدَأَ فِتْنًا فَأَدَّىٰهَا﴾ الفاء: عاطفة، و«ما»: حرف تخيير في الموضعين، «منًا»:

مفعول مطلق، ومثله: «فداء».

أي: فأنتم مخيرون فيهم بعد انتهاء الحرب، إن شئتم منتهم عليهم وأطلقتموهم بدون فداء، وإن شئتم أخذتم منهم الفداء من مال أو عرض، أو غير ذلك، وأطلقتموهم.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أوزَارَهَا﴾، أي: حتى تضع الحرب أثقلاها، أي: تنتهي وتنقضي، وتتم

المفاصلة بينكم وبينهم.

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ الإشارة لما سبق من الأمر بقتل الكفار وأسره،

أي: أمركم الله بذلك؛ لحكمة، ولو يشاء لانتصر منهم بنفسه، وأهلكهم، وأباد خضراءهم، دون قتال منكم.

﴿وَلَكِن لَّمْ يَشَأِ اللَّهُ الْإِنْتِصَارَ مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ عَزَّ وَجَلَّ، بل شرع الجهاد والقتال.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبلو، أي: يمتحن ويختبر

بعضكم ببعض، أي: ليبتلي المؤمنين بالكافرين.

كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [محمد:

٣١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمْهُم يُعَدِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ

وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَيُدْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

فابتلى الله المؤمنين بفرض الجهاد والقتال في سبيله ليتبين ويظهر من يجاهد في سبيله

ويصبر ممن ينكل عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾

[آل عمران: ١٤١].

وليُجزل للمؤمنين المجاهدين في سبيله الأجر، ويتخذ منهم شهداء، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتًا بَلْ ءَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١١٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وقال ﷺ: «تكفل الله لمن خرج، لا يخرج إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة» (١).

وقال ﷺ: «إن في الجنة مئة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيله» (١).

ولهذا قال هنا: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم: ﴿قُتِلُوا﴾ بضم القاف، وكسر التاء، من غير ألف بينها. وقرأ الباقون: «قَاتَلُوا» بفتح القاف والتاء وألف بينها.

أي: والذين قتلوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: لإعلاء كلمة الله، كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (١).

﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ خبر «والذين»، أي: فلن يحبط أعمالهم، ويبطل ثوابها، بل يقبلها منهم، ويحفظها لهم، ويضاعفها وينميها لهم.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ السين: للاستقبال وتحقيق الوعد، أي: سيهدمهم إلى طريق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُضِلُّ بِأَعْمَالِهِمْ﴾، أي: ويصلح شأنهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

(١) سبق تخرجه.

﴿عَرَفَهَا لَمْ﴾، أي: عرفها لهم في الدنيا، وبين لهم طريقها في كتبه وعلى ألسنة رسله، ورغبتهم فيها، بذكر صفاتها العظيمة، وما فيها من ألوان النعيم، وذكر الأعمال الموصلة إليها، ووقفهم إلى ذلك.

وعرفها لهم في الآخرة بتقريبها لهم، ومعرفة منازلهم فيها ومسكنهم.

كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١) [ق: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ (١٣) [التكوير: ١٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيَحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا أُذُنُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزَلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزَلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup>.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ﴾ بنصر دينه وشرعه بأقوالكم وأفعالكم، بالحجة واللسان، والسيف والسنان.

﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم ﴿وَرَبِّتِ أَقْدَامَكُمْ﴾ على الحق في الحرب والسلام، ويقوي قلوبكم، ويربط عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٨) هذا بخلاف ما وعد الله به المؤمنين من النصر والتثبيت؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

قوله: ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾، «تعسا»: مفعول مطلق، أي: خيبة لهم وشقاء، وهلاكًا وخذلانًا وانتكاسًا؛ كما قال ﷺ: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة؛ إن أعطيتي رضي وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: أحبط وأبطل أعمالهم مما يكيدون به للحق وأهله، فلم يبلغوا بها قصدهم، بل رد الله كيدهم في نحورهم.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، القصاص يوم القيامة ٦٥٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، وابن ماجه في الزهد، باب في الكثيرين ٤١٣٦؛ من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه.

ومما يزعمون طلبهم بها مرضاة الله، فلا يثابون عليها، ورُدت إليهم.  
﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الإشارة إلى تعسهم، وإضلال أعمالهم، والباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أي: ذلك بسبب أنهم كرهوا، أي: أبغضوا القرآن الذي أنزله الله، ولم يقبلوه، لما اشتمل عليه من الدعوة إلى التوحيد، وتقرير رسالته ﷺ، وإثبات البعث وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].  
﴿فَأَحْطَ أَعْمَالُهُمْ﴾، أي: أبطلها.

### الفوائد والأحكام:

- ١- ذم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وتحقيرهم، وبيان بطلان أعمالهم؛ توطئة لتحريض المؤمنين على قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَمْكَلُ أَعْمَالُهُمْ﴾.
- ٢- بطلان سعي الكافرين، وحبوط أعمالهم، وخيبة مسعاهم؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين.
- ٣- امتداح الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ، بتكفير سيئاتهم، وإصلاح باهم وأحوالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.
- ٤- لا بد من الجمع بين الإيثار بالقلب، والعمل الصالح بالجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا: خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه.
- ٥- إثبات رسالته ﷺ ونزول القرآن عليه، ووجوب الإيثار بذلك، وأنه الحق من عند الله تعالى.
- ٦- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ وأن القرآن كلامه، منزل من عنده، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾، وقوله: ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.
- ٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾.
- ٨- الجمع للمؤمنين بين زوال المرهوب بتكفير سيئاتهم، وحصول المطلوب بإصلاح باهم وأحوالهم؛ إذ لا يتم النعيم إلا بهذين الأمرين: حصول المطلوب،

والنجاة من المرهوب.

- ٩- أن الإيمان والأعمال الصالحة سبب لتكفير السيئات، وصلاح البال والحال.
- ١٠- أن الجزاء من جنس العمل، وأن الله جعل لكل شيء سبباً، فالسبب في إضلال أعمال الذين كفروا هو: كفرهم وصددهم عن سبيل الله واتباعهم الباطل.
- والسبب في تكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم هو: إيمانهم وعملهم الصالحات، وإيمانهم بما نزل على محمد ﷺ، واتباعهم الحق من ربهم.
- ١١- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب بذكر المؤمنين وأعمالهم، وما وعدوا به، وذكر الكافرين وأعمالهم، وما توعّدوا به؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء، وللتحذير من الكافرين وأعمالهم، والترغيب في سبيل المؤمنين وأعمالهم.
- ١٢- ضرب الأمثال للناس بذكر الكافرين وأعمالهم، ووعيدهم؛ للتحذير منهم ومن أعمالهم، وذكر المؤمنين وأعمالهم ووعدهم؛ لاتباع سبيلهم، والعمل بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾.
- ١٣- تحريض المؤمنين وتهيبهم على قتل الكفار المحاربين لدين الله ولأوليائه، وضرب أعناقهم بلا هوادة؛ لكفرهم بالله، وصددهم عن سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ﴾.
- ١٤- أن اتخاذ أسرى من الكفار لا يكون إلا بعد الإثخان بهم قتلاً، وخضد شوكتهم، مع شد وثاقهم وأسرهم لثلاثين يوماً ويهربوا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا أَلْوَاقَ﴾.
- وقد عاتب الله النبي ﷺ والمؤمنين في بدر، في اتخاذ الأسرى، حتى يشخن في الأرض، فقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُٗ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ تُولَا كِتَابًا مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].
- ١٥- تخيير المؤمنين بعد انتهاء الحرب بين المن على الأسرى بالإفراج عنهم بدون فداء، وبين الإفراج عنهم بفداء؛ من مال أو عرض أو غير ذلك، حسب الأصلح

والحال والحاجة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَابَعْدُ وَإِنَّمَا فَدَاءٌ حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا﴾. وقد يكون المن عليهم أولى؛ لتقديمه في الذكر، ما لم تدع الحاجة إلى الفداء، أو تكون المصلحة في أخذه.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾.

١٧- أن الله لو شاء لانتصر من الكفار دون أن يوجب الجهاد والقتال على المسلمين.

١٨- أن الحكمة في فرض الجهاد والقتال: الابتلاء والامتحان للمؤمنين بالكافرين؛ ليظهر من المؤمنين من يجاهد حقاً ويصبر، ممن ليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بَعْضًا﴾.

١٩- وعد الله تعالى الذي لا يُخلف وعده لمن قاتل أو قُتل في سبيل الله بقبول أعمالهم ومضاعفتها، وهدايتهم وإصلاح بهم في الدنيا والآخرة، وإدخالهم الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ٤ ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْمَمِ﴾ ٥ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ ٦.

٢٠- أن الجهاد والقتال ما كان في سبيل الله، أي: لإعلاء كلمة الله، وموافقاً لشرعه، أي: كما جاء في الكتاب والسنة، ومن أهم ذلك: قوة المسلمين وقدرتهم على القتال، وأن يكون بإذن ولي أمر المسلمين، وليس تحت راية عمياء، وألا يقتل النساء والصبيان والرهبان ومن لم يقاتل، إلى غير ذلك.

٢١- إثبات وجود الجنة، وأن الله أعدها لأوليائه.

٢٢- منة الله تعالى على الذين قاتلوا أو قتلوا في سبيل الله، بتعريفهم بالجنة وصفاتها ونعيمها، والطريق الموصلة إليها، في الدنيا قبل قتلهم وقتالهم، مما رغبتهم فيها وفي طلبها، وفي الآخرة بعد قتلهم وقتالهم بتقريبها لهم وتعريفهم منازلهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ ٦.

٢٣- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيمان؛ تشریفاً وتكريماً لهم، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما

بعده من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثال ذلك يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى:  
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٢٤- الإغراء والترغيب بنصر دين الله، بالحجة واللسان، والسيف والسنان، وأن  
من ينصر الله ينصره الله وثبت قدميه ويقويه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ وَيُنَبِّتْ  
أَقْدَامَكُمْ﴾.

٢٥- خيبة الذين كفروا وشقاؤهم، وخذلانهم وهلاكهم، وضلال أعمالهم؛ لقوله  
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾.

٢٦- أن سبب تعاستهم وشقائهم وخسرانهم وهلاكهم وإضلال أعمالهم  
وإحباطها هو: كراحتهم وبغضهم للقرآن الذي أنزله الله، وما دعا إليه من توحيد الله،  
وإثبات رسالته ﷺ، والبعث بعد الموت، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا  
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحَبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالْكٰفِرِينَ أَمْثَلَهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مِثْلَ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ تُذَكِّرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالْكٰفِرِينَ أَمْثَلَهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ .

قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ الاستفهام: للتقرير والتوبيخ والإنكار، أي: أفلم يسر هؤلاء الكفار المكذبون في الأرض بأبدانهم.

﴿ فَيَنْظُرُوا ﴾ بأبصارهم، ويتأملوا ببصائرهم.

﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين من قبلهم من الأمم لما كذبوا رسل الله، وكفروا بالله وبآياته.

﴿ دَمَرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: أهلكهم الله ودمر أموالهم وأعمالهم ومكرهم، وخرّب ديارهم ومساكنهم وهدمها، وأنجى عباده المؤمنين من بينهم.

﴿وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلَهَا﴾، أي: وللكافرين في كل زمان ومكان أمثال تلك العواقب الوخيمة، والعقوبات العظيمة، مما يوجب أخذ العظة والعبرة مما حل بأولئك، والسعي من وعظ بغيره.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ الإشارة إلى مضمون ما سبق وهو تدمير الكافرين وإنجاء المؤمنين، والباء: للسببية، أي: بسبب أن الله:

﴿مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: ناصرهم ومعينهم ومتوليهم بولايته الخاصة، ولاية التوفيق والحفظ والتأييد، والعون والتسديد.

﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾: معطوف على ما قبله، أي: وبسبب أن الكافرين لا مولى لهم، أي: لا ناصر لهم ولا معين؛ لتخليه عز وجل عنهم، وخذلانهم، وعدم توفيقه لهم، ومن لم ينصره الله فلا ناصر له سواه؛ كما قال تعالى: ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فلا هادي لهم، ولا ناصر، ولا منقذ لهم من عذاب الله، وإنما وليهم الشيطان يدعوهم إلى الكفر، ويقودهم إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَطْلُغُوهُمْ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ولهذا لما أخذ أبو سفيان يرتجز يوم أحد من نشوة النصر قائلاً: اعْلُ هبل، اعل هبل، قال النبي ﷺ لأصحابه: «ألا تحيوا له؟» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». قال: إن لنا العزى، ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «ألا تحيوا له؟» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ لما ذكر أنه تعالى مولى الذين آمنوا ذكر أعظم ما يتفضل به عليهم، وهو إدخالهم الجنات، وما فيها من الأنهار وألوان النعيم.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٩؛ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

أي: إن الله يدخل الذين آمنوا باطنًا وظاهرًا جنات تجري من تحت أشجارها وغرفها وقصورها الأنهار.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

ذكر عز وجل أن الكافرين لا مولى لهم، ثم ذكر سوء حالهم، حيث وكّلوا إلى أنفسهم، فصاروا في الدنيا كالأنعام، وفي الآخرة مثواهم النار.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ﴾، أي: في الدنيا بشهواتها وملذاتها وزينتها.

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾، «ما»: مصدرية، أي: كأكل الأنعام، ليس لهم همة إلا الأكل، قضمًا وهضمًا، ولا يكادون يشبعون.

قال ﷺ: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأتي في سبعة أمعاء»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، أي: مقرًا ومسكنًا ومأوى لهم، في الآخرة، وبئس المهاد.

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْنِكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وكثير من القرى،

﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾، أي: أهلها أشد قوة وبأسًا، وعددًا وعدة، وأموالًا وأولادًا.

﴿مِّن قَرْنِكَ﴾ مكة، والمراد: أهلها، ﴿الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾، أي: أخرجك أهلها، أي:

اضطروك وألجؤوك للخروج.

﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بأنواع العقوبات، لما كذبوا رسلنا، وكفروا بآياتنا، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

يدفع عنهم عذاب الله لما حل بهم، وفي هذا تهديد شديد، ووعد أكيد لمشركي مكة

المكذبين للرسول ﷺ، وهو أفضل الرسل وخاتمهم، فإذا كان الله قد أهلك الأمم قبلهم

بسبب تكذيبهم رسلهم، وقد كانوا أشد قوة منهم، فهم بالعذاب والإهلاك أولى

وأحرى وأجدر، فلا يغتروا بأنفسهم ويأمنوا عذاب الله - مع تكذيبهم محمدًا ﷺ سيد

الخلق، الذي أنزل عليه القرآن الكريم أعظم كتب الله وأفضلها وأجلها.

قوله تعالى: ﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيْتٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوهُ عَمَلِهِ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>(١٤)</sup> مثل الجنة

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٣٩٣، ومسلم في الأشربة ٣٠٦٠، والترمذي في الأطعمة ١٨١٨، وابن

ماجه في الأطعمة ٣٢٥٧؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾:

قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنِهِ مِّن رَّبِّهِ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أفمن كان في دينه على علم وبصيرة ونور.

﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ بما أنزله عز وجل في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ من الهدى والعلم ودين الحق؛ كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«من»: موصولة، أي: كالذي زُيِّنَ له سوء عمله، أي: زُيِّنَ وحُسِّنَ له عمله السيئ، من الكفر والتكذيب وارتكاب الموبقات، أي: زُيِّنَ له ذلك شيطانه وهواه ونفسه الأمارة بالسوء، وقرناء السوء من شياطين الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤، العنكبوت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

أو زين الله له ذلك كونًا وقدرًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤].

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: واتبعوا ما تهواه نفوسهم الأمارة بالسوء؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

فلا أضل ولا أردى ولا أبعد عن الهدى من اتبع هواه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ



وألذها شرباً.

﴿وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ لا بجموضة، ولا بغيرها، بل هو في غاية البياض والحلاوة والدسومة.

﴿وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾، أي: لذيد شربها، يلتذ بها الشاربون؛ لحسن طعمها، وطيب رائحتها، وبياض لونها، ونشوة شاربها، وليست كخمر الدنيا كريمة الطعم والرائحة، تغتال العقول، وتصدع الرؤوس، قال تعالى: ﴿بِضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) لا فيها غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾ [الصفات: ٤٦، ٤٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ﴾ (١٩) [الواقعة: ١٩].

﴿وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾، أي: من عسل مصفى من شمعته ومن جميع الشوائب، فهو في غاية الصفاء.

وهذه الأنهار تفجر من الفردوس؛ كما قال ﷺ: «فإذا سألت الله فاسأله الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» (١).

وعن حكيم بن معاوية، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد» (٢).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، أي: وللمتقين في الجنة - مع تنوع مشروباتهم فيها -

أنواع المأكولات من كل الثمرات؛ كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ﴾ (٥٥) [الدخان: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ (٥٢) [الرحمن: ٥٢]،

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (٦٨) [الرحمن: ٦٨].

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بستر ذنوبهم والتجاوز عنهم، فجمع الله لهم بين حصول المطلوب بالتنعم بأفضل المشروبات، وأطيب المأكولات، وزوال المرهوب بالمغفرة

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٧٩٠، وأحمد ٣٣٥ / ٢، من حديث أبي هريرة، وأخرجه الترمذي في صفة الجنة، ما جاء في صفة درجات أهل الجنة ٢٥٢٩؛ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة أنهار الجنة ٢٥٧١، وأحمد ٥ / ٥، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

والتجاوز عما ارتكبه من الذنوب والسيئات.

﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ الكاف: للتشبيه، و«من»: موصولة، أي: كالكافر، الذي هو خالد في النار، لا يخرج منها.

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾، أي: ماء في غاية الحرارة، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾، أي: فقطع أمعاءهم وأحشاءهم من شدة حرارته.

فجمع لهم بين العذاب لظاهر أجسامهم بالنار، والعذاب لباطنهم بشرب الماء الحار؛

كما قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا فِي حَمِيمٍ أَيْنَ﴾ ﴿٤٤﴾

[الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا

يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ نُحِرُوا فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ [غافر: ٧٢].

والمعنى: أنه لا يستوي المتقون الذين وعدهم الله الجنة وما فيها من الأنهار والثمار،

بمن في النار ويسقى الحميم من الكفار، ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هم في رفيع

الدرجات، كمن هم في حضيض الدرجات.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ

أَيْنَمَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَءَاتَاهُمْ

نُورَهُمْ﴾ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ط فَنَذَرَا أَشْرَاطَهَا فَأَنَّ لَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ

ذَكَرْتَهُمْ﴾ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثَلِكُمْ﴾ ﴿١٩﴾

قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، أي: ومن المنافقين من يستمع إليك، أي: يجلسون

إليك، ويستمعون قراءتك القرآن وكلامك، استماعاً لا يتجاوز آذانهم، من غير رغبة،

ولا تدبر، ولا تفهم.

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا

أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ ولهذا قال:

﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾، أي: من مجلسك.

﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، أي: للذين أعطاهم الله تعالى العلم به، وبها ينزل على

رسوله ﷺ، من الصحابة رضي الله عنه.

﴿مَازَا قَالُ﴾، «ماذا»: اسم استفهام، أي: ماذا قال محمد؟ أو «ما»: اسم استفهام، و«ذا»: اسم موصول، أي: ما الذي قاله محمد.

﴿مَافِعًا﴾ ظرف متعلق ب«قال»، أي: ماذا قال الساعة؟ أو حال.

وهذا يدل على عدم اهتمامهم بسماع ما قال، وعدم اكتراثهم به؛ تقيلاً لشأنه، وتشكيكاً لغيرهم به، وأنه لا معنى له، ولا قيمة، وتهكمًا به ﷺ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: الذين ختم على قلوبهم، وسد منافذ وصول الخير إليها، فلا تقبل الحق ولا تعيه ولا تفهمه، بسبب نفاقهم، واتباعهم أهواءهم الباطلة، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿وَالَّذِينَ آهَدُوا﴾ سلكوا طريق الهدى، بالإيمان والإخلاص، واتباع ما يرضي الله، وانتفعوا بسماع قراءته ﷺ القرآن وكلامه.

﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾، أي: زادهم هداية وتوفيقاً تفضلاً منه وكرماً؛ لإخلاصهم وسلوكهم طريق الهدى، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَأَنَّهُمْ تَقَوُّهُمْ﴾، أي: وأعطاهم تقواهم، فألهمهم رشدهم، ووقفهم للخير، وحفظهم من الشر؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وكان من دعائه ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»<sup>(١)</sup>.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ الاستفهام: للنفي، و«إلا»: أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من «الساعة»، «بغتة»: حال، أي: ما ينتظر هؤلاء الكفار المكذبون، المتبعون لأهوائهم، إلا القيامة أن تأتيهم فجأة

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨؛ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

وهم غافلون عنها؛ لأنها لا تأتي إلا بغتة، وقد قرب إتيانها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١].

وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَمَرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١].

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ الفاء: تعليلية، و«قد»: حرف تحقيق، أي: فقد ظهرت علاماتها الدالة على قربها، ومن أول علاماتها: بعثته ﷺ.

قال ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى (١). ولهذا قال ﷺ: «وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي» (٢).

فهدهم عز وجل بقرب الساعة؛ لأن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَقِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿فَأَنِّي لَمُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: فكيف للكافرين إذا جاءتهم الساعة، وانقضت آجالهم أن يتذكروا؟ وأين لهم التذکر، حين لا ينفعهم ذلك؟ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ءَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبأ: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَأَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، أي: أنه لا معبود بحق إلا الله.

قال ابن كثير (٣): «وهذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه أمراً بعلم ذلك».

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٦، ومسلم في الفتن ٢٩٥٠؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٩٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠؛ من

حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٢٩٨/٧.

وقال السعدي<sup>(١)</sup>: «العلم لا بد فيه من إقرار القلب، ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه، وتماه: أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائناً من كان، بل كل مضطر إلى ذلك».

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، أي: اطلب من الله تعالى المغفرة لذنبك ولذنوب المؤمنين والمؤمنات، وقد كان ﷺ يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطيئي وعمدي، وكل ذلك عندي»<sup>(٢)</sup>.

وكان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»<sup>(٣)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله، إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»<sup>(٤)</sup>.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مئة مرة»<sup>(٥)</sup>.

وعن عبدالله بن سرجس رضي الله عنه، قال: رأيت النبي ﷺ، وأكلت معه خبزاً ولحماً، أو قال: ثريداً. قال: فقلت له: أستغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ص ٧/ ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت» ٦٣٩٩، ومسلم في الذكر ٢٧١٩.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٢؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٣٠٧، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٥٩.

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٢.

(٦) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣٤٦.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ﴾، أي: تصرفكم في نهاركم ويقظتكم.  
 ﴿وَمَوْتِكُمْ﴾: مستقركم في ليلكم ومنامكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي  
 يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي  
 الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

### الفوائد والأحكام:

١- تقرير المشركين المكذبين للنبي ﷺ بسيرهم في الأرض بأبدانهم، ونظرهم  
 بأبصارهم آثار ما حل بالكافرين من الأمم قبلهم، والإنكار عليهم كيف لا يتعظون  
 بسوء عاقبة أولئك الأقوام؟ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

٢- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد للكافرين، بأن لهم أمثال عقوبات الكافرين  
 قبلهم ممن دمر الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّكْفِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾.

٣- إثبات ولاية الله تعالى الخاصة للذين آمنوا وتوفيقه لهم ونصرهم وحفظهم؛  
 لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٤- نفي ولايته الخاصة عن الكافرين، وأن من لم يتوله الله فلا مولى له؛ لقوله  
 تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾. وهذا لا ينافي ولايته العامة لجميع الخلق؛ كما قال  
 تعالى: ﴿ثُمَّ رَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

٥- إثبات الأسباب وتعلق مسبباتها بها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا﴾ الآية.

٦- وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم جنات تجري من تحتها  
 الأنهار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
 الْأَنْهَارُ﴾.

٧- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح الخالص لله تعالى، الموافق  
 لشرعه، بالجوارح.

٨- ذم الكافرين في تمتعهم في الدنيا وأكلهم كالأنعام، وتهديدهم ووعيدهم بالمستقر في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

٩- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح بذكر ما أعد للمؤمنين من دخول الجنات، وما فيها من النعيم، والتحذير من الكفر؛ لدم الكافرين، وتوعدهم بالنار وعذابها الأليم.

١٠- تشریفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾.

١١- أن القرية تطلق على المدينة الكبيرة، مأخوذة من «القرى»؛ لأنها تجمع أناساً كثيرين؛ كما تطلق القرية على أهلها؛ لأن المراد بالقرية هنا: أهلها.

١٢- أن كفار مكة ألبؤوا النبي ﷺ واضطروه للخروج منها، والهجرة إلى المدينة هو وأصحابه.

١٣- إهلاك كثير من القرى المكذبة للرسول فلا ناصر لهم، مع أنهم أشد قوة من كفار مكة، فلم تنفعهم قوتهم، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد ووعيد للمشركين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

١٤- أنه لا ناصر من عذاب الله، ولا واعي منه، ولا عاصم ولا دافع، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

١٥- شتان بين من كان مؤمناً وعلى بينة وبصيرة ونور من ربه، وبين من زين له عمله السيئ من الكفر والتكذيب واتبعوا أهواءهم، فلا يستوي هذا وهذا؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه المؤمنين؛ لقوله: ﴿مَنْ رَبِّي﴾، وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

١٧- أن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

١٨- ينبغي الحذر من تسويل الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، ومن اتباع الهوى.

١٩- إثبات وجود الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين، وعظم صفتها، وما فيها من الأنهار، وما لهم فيها من الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنَ الْأَنْهَارِ، وَمَا لَمْ يَنْفَسْ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ يَخْتَلِفُ أَلْوَانُهُمْ فِيهَا شَرِبُوا مِنْهَا وَعَرَسَتْ فِيهَا خَيْرُ الْأَنْهَارِ﴾.

٢٠- تعدد أنهار الجنة وكثرتها وتنوعها وحسنها وطيبها، ففيها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر في غاية اللذة، وأنهار من عسل في غاية الصفاء؛ لقوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾.

٢١- أن ما في الجنة من الشراب والطعام وغير ذلك من ألوان النعيم لا يقاس به ما في الدنيا؛ لأن كل ما في الدنيا يعتره التغير والنقص والفناء، فالماء يأسن، واللبن يتغير طعمه، وخمرها كريمة الطعم والرائحة، تغتال العقول، وتصدع الرؤوس، وعسلها لا يخلو من الكدر، وجميع ما فيها يبلى ويفنى، والإنسان فيها عرضة للأمراض والآفات، والهرم ثم الموت.

٢٢- الجمع لأهل الجنة بين أنواع الشراب، وأصناف المأكول من كل الثمرات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَارٌ عَلَى الْأَعْيُنِ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الرعد: ٣٥].

٢٣- الجمع لهم بين حصول المطلوب بالجنة وما فيها من ألوان النعيم، وبين النجاة من المرهوب بمغفرة الذنوب.

٢٤- شتان بين ما وعد الله به المتقين من الجنة وما فيها من النعيم، وبين ما توعد به

الكفار من الخلود في النار وشرب الحميم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

٢٥- الجمع لأهل النار بين عذابها وحرها الشديد، وبين الحميم الشديد الذي يقطع أمعاءهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ إِنْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مِنْ قَبْلِهَا﴾ [الرحمن: ٤٤].

٢٦- استماع بعض المنافقين إلى قراءته ﷺ وكلامه، وجلسهم إليه من غير رغبة، ولا تفهم لما يسمعون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

٢٧- إظهارهم عدم اهتمامهم بما سمعوا؛ تقليلاً لشأنه، وتشكيكاً لغيرهم به، وأنه لا معنى له ولا قيمة، وتهكمًا به ﷺ وبقوله؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا﴾.

٢٨- عقوبة الله لهم بالطبع على قلوبهم فلا يصل إليها خير، واتباعهم أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

٢٩- إثبات القدر، وأن من كتب الله عليهم الكفر والضلال فلا سبيل إلى هدايتهم.

٣٠- ذم اتباع الأهواء؛ لأن الهوى يُعمي ويُصم عن الحق والهدى.

٣١- التنويه بشأن الذين سلكوا طريق الهدى بالإيمان والإخلاص، وانتفعوا بسماع القرآن واتبعوا هدى الله، وزيادتهم هدى، وإيتائهم تقواهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقُولَهُمْ﴾ (١٧).

٣٢- أن الجزاء من جنس العمل، فمن أعرض عن استماع القرآن طبع الله على قلبه فاتبع هواه، ومن اهتدى زاده الله هدى وتقوى.

٣٣- تهديد الكفار بقرب الساعة وعذابها، لظهور علاماتها، وإتيانها بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُ﴾ [القمر: ٤٦].

٣٤- إثبات الساعة والقيامة، وبعث الخلائق، وحسابهم وجزائهم، وأن علاماتها قد ظهرت، وأولها: بعثته ﷺ، والحث على الاستعداد لها.

٣٥- أنه بعد إتيان الساعة، لا ينفع نفساً تذكروها ولا إيمانها؛ لفوات وقته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾.

٣٦- أنه لا معبود بحق إلا الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.  
 ٣٧- الحث على سؤال مغفرة الذنوب؛ لأن الله أمر النبي ﷺ بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات، وهو أمر له ولأمته، بل الأمة مأمورة بذلك من باب أولى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.  
 وفيه مشروعية استغفار المؤمن لإخوانه المؤمنين.

٣٨- فضل العلم، وأنه مقدم على القول والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾.

قال البخاري: «باب العلم قبل القول والعمل؛ لقوله الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم»<sup>(١)</sup>.

٣٩- علم الله التام بتصرفات العباد في نهارهم ويقظتهم، ومستقرهم في ليلهم، وجميع أحوالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثَوْنَكُمْ﴾.

٤٠- وجوب مراقبة الله في جميع الأوقات والأحوال، في السر والعلن.

\* \* \*

(١) انظر: «فتح الباري»، كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل ١/١٥٩.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَاِذَا اُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ اِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَاِذَا عَزَمَ الْاَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ اِنْ تَوَلَّيْتُمْ اَنْ تُفْسِدُوا فِي الْاَرْضِ وَتَقَطَّعُوا اَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ اُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَاَصَمَّهُمْ وَاَعَمَّيْ اَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ اَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَقَانَ اَمْ عَلَي قُلُوبِ اَقْفَالِهَا ﴿٢٤﴾ اِنَّ الَّذِينَ اَرْتَدُّوا عَلَي اَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَاَمَلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِاَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْاَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ اِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ اِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهُهُمْ وَاَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِاَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا اَسْحَطَ اللهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ اَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَاِذَا اُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ اِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَاِذَا عَزَمَ الْاَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ اِنْ تَوَلَّيْتُمْ اَنْ تُفْسِدُوا فِي الْاَرْضِ وَتَقَطَّعُوا اَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ اُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَاَصَمَّهُمْ وَاَعَمَّيْ اَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ اَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَقَانَ اَمْ عَلَي قُلُوبِ اَقْفَالِهَا ﴿٢٤﴾ ۞

قوله: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۞ ﴾، أي: هلا نزلت سورة وذكر فيها القتال، بدليل قوله بعده: ﴿ فَاِذَا اُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۞ ﴾. والمعنى: انهم تمنوا شرعية الجهاد، واستعجلوا ذلك.

﴿ فَاِذَا اُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ۞ ﴾ لا نسخ فيها ولا تشابه، ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۞ ﴾، أي: مشروعيته والأمر به.

﴿ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ۞ ﴾، أي: شك ونفاق، ﴿ يَنْظُرُونَ اِلَيْكَ ۞ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ ۞ ﴾، «نظر»: مفعول مطلق، أي: نظر المغمى عليه ﴿ مِنْ الْمَوْتِ ۞ ﴾، أي: لأجل الموت، وذلك بسبب شدة خوفهم وجبنهم من لقاء العدو، ونكلوا عن القتال وكرهوه؛ كما قال تعالى: ﴿ اَلرَّتَرَّ اِلَى الَّذِيْنَ قِيْلَ لَهُمْ كُفُّوا اَيْدِيَكُمْ وَاَقْبِسُوا

الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ اللَّهُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَبَيِّنًا ﴿٧٧﴾ [النساء: ٧٧].

﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ﴾، أي: فأولى لهم من النكول عن القتال والتخوف منه.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي: أن يسمعوا ويطيعوا، ويقولوا قولاً معروفاً؛ كما قال تعالى عن المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾، أي: جد الحال، وحضر القتال.

﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾، أي: أخلصوا له النية، وصدقوا في القتال ابتغاء مرضاته.

﴿لَكَانَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لكان صدقهم مع الله ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ خيرية مطلقة في الدنيا والآخرة.

قال السعدي (١): ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي: فأولى لهم أن يمثلوا الأمر الحاضر المتحتم عليهم، ويجمعوا عليهم هممهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله وعفوه. ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾، أي: جاءهم أمر جد، وأمر حتم، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ في هذه الحال بالاستعانة به، وبذل الجهد في امثاله، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ من حالهم الأولى.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ قرأ نافع بكسر السين: «عَسَيْتُمْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿عَسَيْتُمْ﴾.

وروى رويس: «تَوَلَّيْتُمْ» بضم التاء والواو وكسر اللام، وقرأ الباقون بفتحهن: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾.

أي: فلعلكم إن أعرضتم بقلوبكم عن الإيثار، وتوليتهم بأبدانكم عن الجهاد، وعن العمل بشرائع الإسلام.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٧/ ٧٨.

﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان، فتعودوا إلى ما كنتم عليه من الجاهلية الجاهلاء.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ قرأ يعقوب بفتح التاء، وإسكان القاف، وفتح الطاء وتخفيفها: «وَتَقَطَّعُوا».

وقرأ الباقر بضم التاء، وفتح القاف، وكسر الطاء وتشديدها: ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾. وهذا أشبه بعطف الخاص على العام؛ لأن من أعظم الفساد في الأرض قطعة الأرحام.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً».

وهو أيضاً: من ذكر السبب والمسبب، فإن الإفساد في الأرض بالكفر وسفك الدماء والفجور وشرب الخمر ونحو ذلك من أعظم أسباب قطيعة الأرحام،

كما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى في الخمر والميسر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٩١]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧].

فمن تولى وأعرض عن طاعة الله تعالى حرم كل خير، وما ثم أمامه إلا الإفساد في الأرض وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقو الرحمن - عز وجل، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ فقالت: بلى. قال: فذاك، قال: اقرؤوا

(١) في تفسيره ٧/ ٣٠٠.

إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿١﴾. ﴿أُولَئِكَ﴾ الإشارة للذين تولوا وأفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم. وأشار لهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ﴾، أي: طردهم وأبعدهم من رحمته وجنته، فاستحقوا سخطه وأليم عقابه؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ﴿٢٥﴾ [الرعد: ٢٥]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْنَمُهُمْ﴾، أي: عن سماع الحق والإصغاء إلى سماعه سماع فهم وتدبر وانتفاع، ﴿وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ﴾ عن النظر في آيات الله والتأمل فيها، وعن رؤية الحق، وسلوك طريقه، فلا يسمعون ما ينفعهم، ولا يبصرونه. وتلك والله قاصمة الظهر، وأعظم المصائب.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، أي: أفلا يتفكرون في القرآن وألفاظه ومعانيه ويتفهمونه، ويعملون بأحكامه.

﴿أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، «أم»: هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أعلى قلوبهم أقفالهم؟ أي: أغلقها وأغطيها، فهي مقفلة مغلقة، لا تتدبر القرآن، ولا يصل إليها بسبب غفلتها وإعراضها.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِيْ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوْا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِيْ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ نَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة محمد ﷺ ٤٨٣٢، ومسلم في البر، صلة الرحم وتحريم قطعها ٢٥٥٤.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ آدْبُرِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ آدْبُرِهِمْ﴾، أي: رجعوا كفارًا بعد إسلامهم وإيمانهم.  
﴿مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾، «ما»: مصدرية، أي: من بعد تبين الهدى لهم وظهوره، ومعرفتهم طريق الحق والهدى من طريق الباطل والضلال.

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾، أي: زين لهم ذلك وحسنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

﴿وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الهمزة، وكسر اللام: «وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾، وقرأ الباقون بفتح الهمزة واللام، وقلب الياء ألفًا: ﴿وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: مد لهم في الأمل، وخدعهم وغرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ آدْبُرِهِمْ﴾ الآية، ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ الباء: للسببية، أي: ارتداد هؤلاء المنافقين بسبب أنهم:

﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾، «ما»: موصولة، أي: قالوا لإخوانهم من اليهود الذين كرهوا الذي أنزل الله من القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الحشر: ١١].

ويحتمل أيضًا أن يراد بهم: المشركون؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد: ٩].

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ وهو ما يوافق أهواءهم من الكيد للمسلمين،

وإفشاء أسرارهم، ونحو ذلك، فتملاً هؤلاء المنافقون في الباطن على الباطل مع هؤلاء الكفار، وهذا شأن المنافقين يظهر خلاف ما يبطنون، ولكن الله فضحهم، وهتك أستارهم، وأظهر للمؤمنين عوارهم حتى لا يغتروا بهم؛ ولهذا قال:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بكسر الهمزة:

﴿إِسْرَارَهُمْ﴾، مصدر: «أسر»، وقرأ الباقر بفتح الهمزة: «أَسْرَارُهُمْ»: جمع «سر».

أي: والله يعلم ما يسرونه ويخفونه من الكفر والخبث والكيد للحق وأهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: ٨١].

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، أي: كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾، أي: يضربون وجوههم، وأقفيتهم وظهورهم بالمقامع بعنف وشدة، عندما تستعصي أرواحهم عن الخروج من أجسادهم؛ لإخراجها بالقوة والقهر.

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة لتوفي الملائكة لهم على هذه الكيفية من ضرب وجوههم وأدبارهم ﴿يَأْتَهُمُ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم:

﴿اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾، «ما»: موصولة، أي: اتبعوا الذي أسخط الله من الكفر والنفاق والفسوق والعصيان، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾، أي: وكرهوا الذي يرضيه من الإيثار والإخلاص والطاعة، فلم يرغبوا فيه.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥٠﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظالم للعبيد ﴿٥١﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وبين قوله: ﴿اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ مقابلة.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: أبطلها، فلم يثابوا على شيء منها، ولم يبلغوا فيها مرادهم.

## الفوائد والأحكام:

- ١- العتاب للمؤمنين في تمنيهم واستعجالهم مشروعية القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾، والمعنى: لولا نُزِّلَتْ سورة فيها ذكر القتال ومشروعيته، بدليل ما بعدها.
- ٢- تفسير القرآن بالقرآن، وأنه قد يُحذف من الجملة ما تبينه الجملة بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾، أي: وذكر فيها القتال؛ لقوله في التي بعدها: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةً مُّحْكَمَةً وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾.
- وهذا كقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِمَاتِ﴾ [النساء: ١٧٦].
- ٣- أن الله وحده الحكم، والحكمة فيما حكم، وفيما يحكم به من أحكام شرعية، أو كونية، أو جزائية، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.
- ٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، وأنه غير مخلوق.
- ٥- نكول كثير ممن في قلوبهم شك ونفاق عن القتال بعد فرضه، وشدة فزعهم وفرقهم من لقاء العدو؛ لقوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَنْظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.
- ٦- تشريفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.
- ٧- بلاغة القرآن، ودقة تصويره لحال هؤلاء الجبناء.
- ٨- أن الأولى لهؤلاء أن يطيعوا أمر الله ويقولوا قولاً معروفاً، فيقولوا: سمعنا وأطعنا، فإذا حضر القتال صدقوا الله في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ﴾.
- كما أن الأولى لهم امتثال الأمر الحاضر الواجب عليهم، وألا يطلبوا شرع ما هو شاق عليهم، فإذا أمروا بذلك فعليهم أن يصدقوا الله ويستعينوا به على امتثال ذلك.
- ٩- وجوب الصدق والإخلاص لله في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وأن الخير كل الخير في ذلك.

١٠- أن من تولى وأعرض عن الإيمان وعن الجهاد والعمل بشرائع الإسلام حُرْم من كل خير، فما ثم أمامه إلا الإفساد في الأرض بالكفر والفجور وقطيعة الأرحام؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢).

١١- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد لمن فعل ذلك بلعنة الله تعالى لهم، والحيلولة دون وصول الحق إليهم؛ بالصمم في آذانهم، والعمى في أبصارهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ (٢٣).

١٢- التحذير من الإفساد، وذم المفسدين في الأرض.

١٣- التحذير من قطيعة الأرحام، وأنها من أعظم الفساد في الأرض، والتأكيد على وجوب صلة الأرحام.

عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بئته» (١).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه، يبلغ به النبي ﷺ، قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم: شُجْنَةٌ من الرحمن، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعته الله» (٢).

وعن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» (٣).

١٤- الإنكار على المفسدين في الأرض بقطيعة الرحم وغير ذلك، وتقريرهم وتوبيخهم؛ لعدم تدبرهم القرآن، وإقفالهم قلوبهم عن وصوله إليها بسبب غفلتهم وإعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤).

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، صلة الرحم ١٦٩٤، والترمذي في البر، ما جاء في قطيعة الرحم ١، وأحمد ١٩١ / ١، وقال الترمذي: «حديث صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٢٤، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، ليس الواصل بالمكافئ ٥٩٩١، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٧، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٨.

١٥- وجوب تدبر القرآن الكريم؛ ألفاظه ومعانيه وأحكامه، وأهم ذلك ولُبُّه: العمل به، فكم من زاعم أنه متدبر للقرآن، يعتقد أن التدبر ثقافة تدور حول بعض ألفاظه ومعانيه، وليس معه من تدبر القرآن إلا إقامة الحجة عليه؛ لأنه لم يعمل به، وما أكثر هؤلاء في هذا الزمن، وما أكثر الدعاة إليه.

١٦- التحذير من الردة عن الإسلام، واتباع الشيطان، وذم الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، وإلى الضلال بعد الهدى، وأن ذلك من تسويل الشيطان، وإمداده لهم في الأمل وغرورهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۗ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ (٢٥).

١٧- أن ارتداد هؤلاء المنافقين بسبب تمائلهم في الباطن على الباطل مع الذين كرهوا ما أنزل الله من اليهود والمشركين بطاعتهم لهم فيما يوافق أهواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۗ﴾.

١٨- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ ۗ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۗ﴾ (١٨).

١٩- علم الله تعالى بالسرائر، وما تخفيه الضمائر، من الكفر والنفاق، والكيد والخداع، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۗ﴾، وفي هذا تهديد لهم. ٢٠- التحذير من إضمار الشر، ووجوب مراقبة الله في السر والعلن؛ لأنه عز وجل يعلم السر وأخفى.

٢١- تهديدهم ووعيدهم بسوء حالهم عند توفى الملائكة الموكلين بقبض أرواحهم لهم؛ بضربهم وجوههم وأدبارهم بمقامع الحديد بعنف وشدة عندما تستعصي أرواحهم عن الخروج من أجسادهم؛ لإخراجها بالقوة والقهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۗ﴾ (٢٧).

٢٢- أن توفى الملائكة لهم على هذه الكيفية من الإهانة والضرب، إنما هو بسبب اتباعهم الذي أسخط الله من الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان، وكرهاتهم ما

يرضيه من الإيمان والإخلاص والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا  
 آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

٢٣- بطلان أعمال الكفار وحبوطها، فلا يثابون على شيء منها، ولا يصلون بها إلى  
 مرادهم.

٢٤- التحذير من اتباع وارتكاب ما يسخط الله بالكفر والمعاصي، وكرهية ما فيه  
 رضاه من الطاعات، من الإيمان والطاعات.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْسَلْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣٢﴾ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَيَتَنَبَّأُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّرُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَآؤُنْتُمْ هَآؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْسَلْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾:

قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أحسب، أي: بل أظن ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، أي: شك ونفاق.

﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ﴾، «أن» والفعل «يُخْرِجُ» في تأويل مصدر في محل نصب سد مسد مفعولي «حَسِبَ».

أي: أظن هؤلاء المنافقون أن لن يظهر الله أحقادهم، وما في قلوبهم من العداوة للحق وأهله؟ أي: بل سيظهر أحقادهم ويكشفها لعباده المؤمنين، ويفضحهم، وقد جلى حقيقتهم، وعدد فضائهم وقبائحهم في كيدهم للإسلام وأهله في سورة براءة؛ ولهذا سماها بعض أهل العلم: «الفاضحة»؛ لكثرة ما جاء فيها من فضائحهم، وهذا ما كانوا يحذرونه؛ كما قال تعالى فيها: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ

بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ أَسْتَهْزِئُ وَإِنَّ اللَّهَ مَخْرُجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ ﴿٦٤﴾ [التوبة: ٦٤].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ﴾ الواو: عاطفة، و«لو»: حرف شرط غير جازم، واللام في قوله: ﴿لَأَرَيْنَاكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَعَرَفْنَهُمْ﴾ واقعة في جواب «لو»، والخطاب للنبي ﷺ. ﴿فَلَعَرَفْنَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فلعرفتهم بعلاماتهم الظاهرة، التي لا يستطيعون إخفاءها.

﴿وَلَعَرَفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لتعرفنهم في لحن القول، وهو تعريض الخطاب وإشارته، وفحوى الكلام ومغزاه، فيظهر ما في قلوبهم من كلامهم، وفتلات ألسنتهم.

قال ابن القيم: «واللحن ضربان: صواب، وخطأ، فلحن الصواب نوعان؛ أحدهما: الفطنة، ومنه الحديث: «ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»<sup>(١)</sup>.

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية». قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن الخطاب على شرط، بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم، فقال: ﴿وَلَعَرَفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه»<sup>(٢)</sup>.

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفتلات لسانه»<sup>(٣)</sup>.

وقد قالوا في المثل: «كاد المرئيب أن يقول: خذوني».

وقال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تحفى على الناس تعلم

قال ابن القيم: «والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن الخطاب، فإن

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٨، ومسلم في الأفضية ١٧١٣، وأبو داود في الأفضية ٣٥٨٣، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٠١، وابن ماجه في الأحكام ٢٣١٧؛ من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ١٦٢/٤.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣٠٤/٧، ٣٤٣.

معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه أقرب من معرفته بسيماه، وما في وجهه؛ فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السماء المرئية، والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر، والسمع<sup>(١)</sup>.

وقد عرف ﷺ جماعة من المنافقين، وأخبر بهم صاحب السر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، فعن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً...» الحديث<sup>(٢)</sup>.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾، أي: لا يخفى عليه شيء منها، قبل فعلها وبعده.  
 ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم بالياء: «وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ»،  
 «حَتَّى يَعْلَمَ»، «وَيَبْلُوَ»، وقرأ الباقر بالنون: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾، ﴿وَنَبْلُوا﴾.  
 أي: ولنختبرنكم ونمتحن إيمانكم وصبركم بإيجاب الجهاد عليكم؛ ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ﴾، أي: علماً يترتب عليه الجزاء والثواب، وذلك بعد حصول الجهاد منهم، وإلا فهو سبحانه قد علم في الأزل قبل أن يخلقهم من سيجاهد منهم من غيره.  
 ﴿وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ روى رويس بإسكان الواو: ﴿وَنَبْلُوا﴾، وقرأ الباقر بفتحها: ﴿وَنَبْلُوا﴾، أي: ونختبر أقوالكم وأفعالكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَسَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكُمَ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٥﴾:

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسوله، ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: انصرفوا بأنفسهم عن دين الله عز وجل، وصدوا الناس وصرفوه عن دينه، بتزويدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل، وتزيينه لهم.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٦٣.

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم ٢٧٧٩.

﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ﴾، أي: وخالفوا الرسول وحاربوه وكذبوه، عن عمد وعناد، لا عن جهل وضلال؛ لقوله:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى﴾، «ما»: مصدرية، أي: من بعد تبين الهدى وظهوره لهم. ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾؛ لأن الله عز وجل غني عن الخلق كلهم، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» (١).

وإنما ضرر ذلك عائد إليهم، ووباله واقع عليهم؛ ولهذا قال:

﴿وَسَيَحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: وسيبطل أعمالهم ومسايعهم للنيل من الحق ونصرة الباطل، فلا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران.

وسيبطل أعمالهم التي يرجون بها الثواب، فلا يثابون عليها بسبب كفرهم، وصددهم عن سبيل الله، وردتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) [محمد: ٢٥-٢٨].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بامثال ما أمركم الله به ورسوله، واجتناب ما نهاكم الله عنه ورسوله.

وفي إعادة الفعل «أطيعوا»: دلالة على أن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالاً، فيطاع ﷺ في امتثال أمره ونهيه وإن لم يرد ذلك في القرآن الكريم؛ لأن الكل من عند الله تعالى؛

(١) سبق تخرجه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ مُّوحَىٰ ۖ﴾ [النجم: ٣، ٤].

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بالردة عن الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فِمَمْتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

أو بفعل ما يبطل الأعمال ويفسدها، من الإعجاب والفخر، والسمعة والرياء، وقد قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر»، فسئل عنه، فقال: «الرياء»<sup>(١)</sup>.

أو بإتباع الصدقة بالمن والأذى؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

أو بعمل الموبقات والمعاصي التي تضيع معها الأعمال الصالحة، ويخف وزنها، ويحبط أجرها.

أو بالخروج من الفرض بعد الدخول فيه؛ كقطع صلاة الفريضة، وصوم رمضان، والحج والعمرة بعد الدخول فيهما فرضًا كانا أو نفلًا.

ومفهوم هذا كله: الأمر بإصلاح الأعمال وإكمالها وإتمامها علمًا وعملاً، إخلاصًا لله تعالى، ومتابعة لشرعه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الجملة حالية، أي: وماتوا حال كونهم كفارًا من غير توبة.

﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ الجملة في محل رفع خبر «إن»، أي: فلن يغفر الله لهم؛ لأنهم ماتوا على الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾

[النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ

وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [١١٦] خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [١١٧]

[البقرة: ١٦١، ١٦٢]. ومفهوم هذه الآيات: أنهم إن تابوا قبل موتهم فإن الله يغفر لهم.

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾، أي: فلا تضعفوا ولا تجبنوا عن مقاتلة أعدائكم الكفار.

(١) سبق تحريجه.

﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾، أي: ولا تدعوا إلى المسالمة والمصالحة والمهادنة بينكم وبين عدوكم، ووضع القتال بينكم وبينهم طلباً للراحة.

﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ الجملة: حالية، أي: والحال أنكم أنتم الأعلىون، أي: لكم الظهور عليهم بقوتكم وعددكم وعدتكم، كما أنكم الأعلىون بدينكم وإيمانكم. قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك؛ كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم عشر سنين، فأجابهم إلى ذلك».

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بمعيته الخاصة لأوليائه المتقين، وجنده المفلحين، معية النصر والعون والتوفيق، والتسديد والحفظ والتأييد.

﴿وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، أي: ولن ينقصكم ثواب أعمالكم، بل سيؤتيكم أجوركم، ويضاعفها لكم، ويزيدكم من فضله، والله ذو الفضل العظيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُمْ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَنَنَفُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾<sup>(٣٦)</sup> إن يستلكموها فيخفكم تبخلوا ويخرج أضغاثكم<sup>(٣٧)</sup> هاتان هاتان تدعوت لئن نفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه<sup>(٣٨)</sup> والله الغني وأنتم الفقراء وإت تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم<sup>(٣٨)</sup>.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ﴾، «إنها»: أداة حصر، أي: ما الحياة الدنيا إلا لعب، أي: لعب في الأبدان، لا فائدة منه، تشغل به عن الطاعات، والعمل لدينها ودنياها. ﴿وَلَهُمْ﴾ للقلوب تشغل به عن التفكير في آيات الله وعظمته، والإخلاص له.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌّ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٦٤)</sup> [العنكبوت: ٦٤].

وفي هذا تزهيد في الدنيا، وبيان لحقارتها، وأن حاصلها لعب وهو، فلا ينبغي أن

(١) في «تفسيره» ص ٣٠٦/٧.

يُغْتَرِبَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ، ثُمَّ يَهِيجُ فَرَنَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَعْفَرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي الحديث: «ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»<sup>(٢)</sup>.

ولهذا قال هنا: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ فبعد أن زهد في الدنيا رغب في الإيمان والتقوى، والعمل للآخرة.

أي: وإن تؤمنوا وتصدقوا بقلوبكم، وتتقوا بجوارحكم بفعل المأمورات، وترك المحظورات.

﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، أي: يعطكم ثواب إيمانكم وتقواكم من غير نقص، وأعظم ذلك وأجله: إدخالهم جنات النعيم، والنظر إلى وجهه الكريم.

﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾، أي: ولا يسألكم أموالكم مقابل دعوته إياكم للإيمان والتقوى، ومقابل قبوله منكم ذلك؛ لكمال غناه عز وجل عن خلقه؛ ولهذا أمر عز وجل رسوله محمداً ﷺ أن يقول لقومه ذلك، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وهكذا نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، كل منهم قال لقومه: ﴿وَمَا

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٢، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) سبق تحريجه.

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].  
 فما سأل عز وجل العباد أموالهم على دعوته إياهم للإيمان والتقوى، وقبول ذلك منهم، وأمر رسله أن يقولوا ذلك لأنفسهم؛ لئلا يجعلوا ذلك ذريعة لعدم الانقياد لرسله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرُورٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القلم: ٤٦].

كما أن ما أوجهه الله من الحقوق في المال، إنما هو لمواساة المسلم لإخوانه الفقراء، ويعود نفعه عليه، ويرجع ثوابه إليه، وهو قليل من كثير.

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ عَنْهَا﴾، أي: إن يسألكم أموالكم.

﴿فِيْخُونَكُمْ بِبَخْلٍ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيحرجكم ويجهدكم، تبخلوا.

﴿وَيُخْرِجُ أَضْعَانَكُمْ﴾ قرأ يعقوب بالنون: «وَنُخْرِجُ»، وقرأ الباقون بالياء:

﴿وَيُخْرِجُ﴾، أي: ويظهر أحقادكم لحبكم للمال، وكرهيتكم بذله.

﴿هَاتِئِنَّ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: على هذا الوجه الذي فيه

مصلحتكم الدينية والدنيوية.

﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾، أي: فمنكم الذي يبخل ويمتنع عن الإنفاق في سبيل الله،

فكيف لو طلب منكم أموالكم؟ لكان ذلك أحرى بامتناعكم منه.

﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ﴾، أي: فإنما يعود وبال وضرر بخله على نفسه؛

لأنه حرمها الأجر والثواب، ولن يضر الله شيئاً؛ ولهذا قال:

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ عن جميع خلقه غني تاماً مطلقاً؛ لأن الغنى وصف لازم له.

﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ المحتاجون إليه عز وجل في جميع أموركم وأوقاتكم

وأحوالكم، لا غنى لكم عنه طرفة عين؛ لأن الفقر وصف لازم للخلق لا ينفكون عنه.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: وإن تعرضوا عن الإيمان بقلوبكم، وتولوا عن تقوى الله

وعن الإنفاق في سبيله والعمل بطاعته بجوارحكم.

﴿يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، أي: يذهبكم ويأتي بغيركم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ

يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال

تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرِّدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا امْتِلَاجًا﴾ في التولي والإعراض، بل يؤمنون بالله، ويتقونه، وينفقون في سبيله، ويسمعون، ويطيعون.

### الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المنافقين ومرضى القلوب ظنهم الباطل: أن الله لن يظهر ما في قلوبهم من الأحقاد على الحق وأهله؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ (٢٩).

٢- إظهاره عز وجل أضغانهم وأحقادهم، وفضحهم بذكر صفاتهم القبيحة، وموافقهم المخزية، في سورة براءة، وسورة المنافقين، وفي غير ذلك من سور القرآن الكريم.

٣- حقد المنافقين وعداوتهم وكيدهم للحق وأهله، وهذا ديدنهم في كل زمان ومكان، مما يوجب الحذر منهم؛ كما قال عز وجل: ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

٤- علم الله التام بما تنطوي عليه الصدور والقلوب من المضمرات والسرائر؛ مما يوجب مراقبته عز وجل في السر والعلن.

٥- أن الله عز وجل لو شاء لأرى النبي ﷺ هؤلاء المنافقين بأشخاصهم وأعيانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ﴾، وله الحكمة في عدم مشيئته ذلك.

٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

٧- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له.

٨- معرفته ﷺ المنافقين بعلاماتهم الظاهرة، ومن كلامهم وفتلات ألسنتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعَرَفْنَاهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

٩- أن معرفتهم بلحن القول أظهر وأكد؛ لهذا أقسم الله تعالى عليه، بخلاف معرفتهم بالسيما والنظر، فقد علقه على المشيئة.

١٠- علم الله تعالى التام بأعمال العباد، فلا تخفى عليه منها خافية؛ لقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٣٠﴾ مما يوجب مراقبته.

١١- ابتلاء الله تعالى العباد بفرض الجهاد؛ ليظهر المجاهدون منهم والصابرون، من غيرهم، وابتلاء أقوالهم وأفعالهم؛ لمجازاتهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ ﴿٣١﴾.

١٢- أن الجنة حُفَّتْ بالمكاره، وأن سلعة الله غالية، فلا بد لنيل ذلك من الابتلاء والجهاد والصبر؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢].

١٣- تحقير شأن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وخالفوا رسوله بعد تبين الهدى لهم، وأنهم لن يضرروا الله شيئاً، بل ضررهم على أنفسهم، وسيبطل أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَسَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَالِهِمْ﴾ ﴿٣٢﴾.

١٤- تصدير الخطاب للمؤمنين بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام، ونداؤهم بوصف الإيثار تشريفاً لهم وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امثال ما بعده من مقتضيات الإيثار، وعدم امثاله نقص في الإيثار؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

١٥- وجوب طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ، وأن طاعته ﷺ تجب استقلالاً؛ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وفي هذا رد على الذين يرون الاستدلال بالقرآن دون السنة.

١٦- نهى المؤمنين عن إبطالهم أعمالهم بالردة عن الإسلام، أو بفعل ما يبطلها كالمزنى والأذى بالصدقة، والإعجاب بالعمل، والسمعة والرياء، أو ارتكاب الموبقات والمعاصي التي تطيش بالحسنات، أو قطع العبادة الواجبة بعد الدخول فيها؛ كقطع صلاة الفريضة وصوم رمضان، والحج والعمرة بعد الإحرام بهما، فرضاً كانتا أو نفلاً، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، ومفهوم هذا: وجوب إصلاحها.

١٧- حرمان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وماتوا على الكفر من مغفرة الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٣٤﴾.

١٨- أن كل وعيد بإحباط العمل مقيّد بموت صاحبه على الكفر؛ كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فِيمَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

١٩- نهي المؤمنين عن الوهن والضعف أمام الكفار، والدعوة إلى السلم، مع أنهم هم الأعلون، ووعد عَزَّ وجل لهم بأنه معهم بتوفيقه ونصره وعونه، وبإيائاتهم أجور أعمالهم ومضاعفتها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾.

٢٠- إثبات معية الله تعالى الخاصة للمؤمنين، معية النصر والعون والتوفيق، والحفظ والتأييد والتسديد.

٢١- تحقير الحياة الدنيا، وأن حاصلها لعب في الأبدان، وهو للقلوب، والتحذير من الاغترار بها، ونسيان الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾.

٢٢- الحث على الإيثار والتقوى، والاستعداد للآخرة، والترغيب في ذلك بالوعد على ذلك بإيثار الأجور العظيمة، من غير غرم مالي؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾.

٢٣- تسميته عز وجل ثواب المؤمنين المتقين أجرين؛ تفضلاً منه؛ لأنه عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقهم.

٢٤- أن الناس لو سئلوا أموالهم مقابل دعوتهم إلى الإيثار والتقوى، ومقابل قبول ذلك منهم، لامتنع كثير منهم من ذلك بخلاً بالمال، وظهرت أضعفانهم بسبب طلب أموالهم؛ ولهذا لم يسألهم عز وجل أموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْئَلْكُمْ عَنْهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَنُخْرِجْ أضعفانكم﴾.

٢٥- شدة محبة الإنسان للمال، وبخله به، وتشبته فيه، حتى ولو كان على حساب دينه، وموالاته ومعاداته من أجله، إلا من رحم الله ووفقه.

٢٦- أن الله عز وجل إنما دعا العباد إلى الإنفاق في سبيله - ومع ذلك يبخل الكثير منهم - فكيف لو سألهم أموالهم؟ لقوله تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهُ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ ﴿٢٧﴾ .

٢٧- أن من بخل وامتنع عن الإنفاق في سبيل الله، فإنها وبال وضرر بخله على

نفسه، بحرمانها من ثواب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ﴾ .

٢٨- إثبات اسم الله: «الغني»، وغناه التام المطلق عن جميع خلقه، وأن الغنى

صفة لازمة له سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ .

٢٩- إثبات فقر الخلاق كلهم، وحاجتهم إلى الله تعالى، وأن افتقارهم إليه صفة

لازمة لهم لا تنفك عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ .

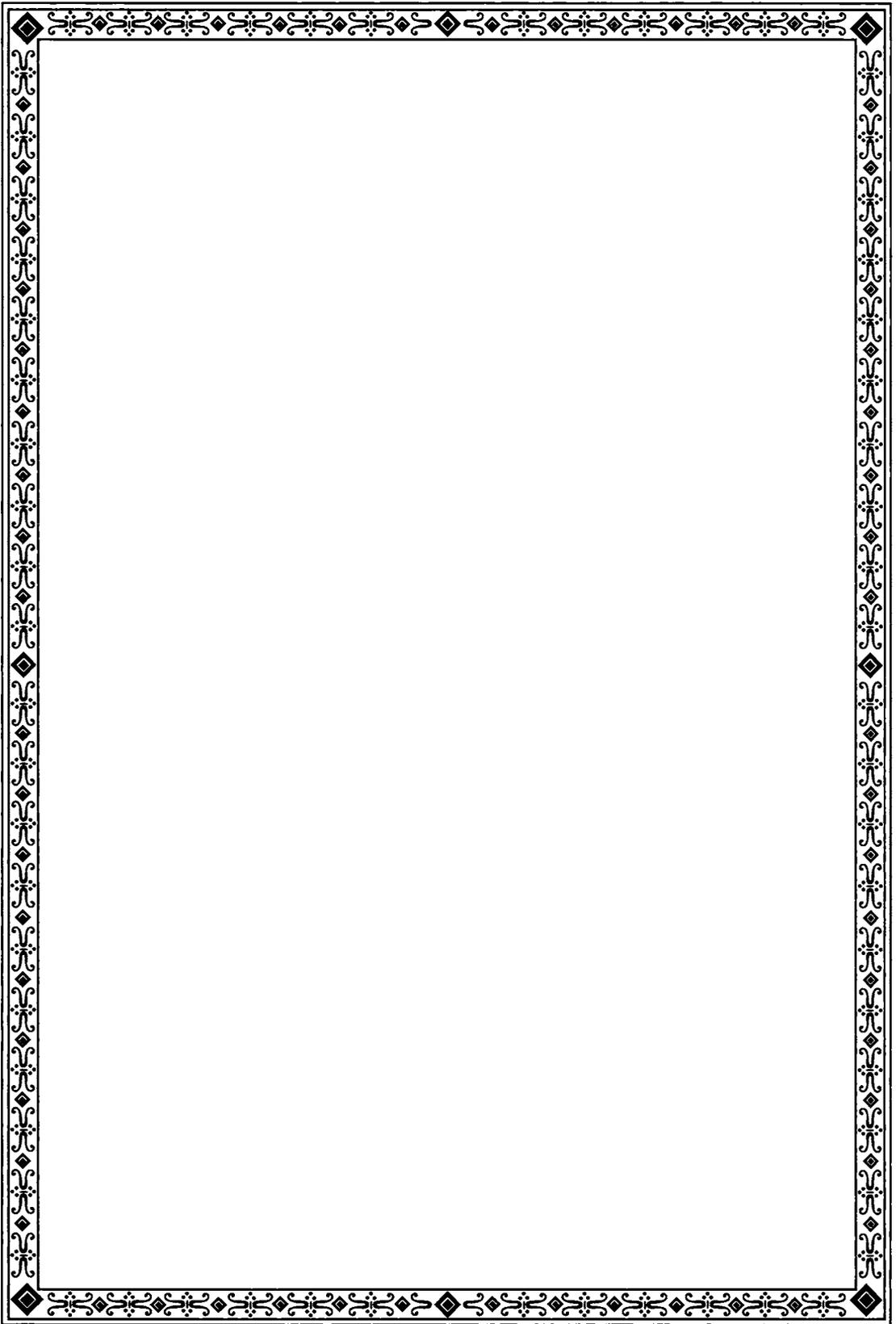
٣٠- التحذير من التولي والإعراض عن الإيمان بالله وتقواه، وتهديد من تولوا

باستبدالهم بقوم غيرهم، يؤمنون ويتقون، ولا يكونون أمثالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن

تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ .

\* \* \*

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت: «سورة الفتح بهذا الاسم»، لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] وتضمنها هذا الفتح العظيم وقصته.

## ب- مكان نزولها:

مدينة

## ج - فضلها:

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: «قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة «سورة الفتح» فرجع فيها»<sup>(١)</sup>.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أنزلت علي الليل سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾<sup>(١)</sup> لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴿[الفتح: ١]﴾<sup>(٢)</sup>.

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾<sup>(١)</sup> لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴿ إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢-٥] مرجعه من الحديدية، وهم يخاطبون الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديدية. فقال: «لقد أنزلت على آية هي أحب إلي من الدنيا جميعاً»<sup>(٣)</sup>.

## د- موضوعاتها:

١- ابتدأ الله عز وجل هذه السورة بالأخبار والبشارة للنبي ﷺ بالفتح المبين والمغفرة له وإتمام نعمته تعالى عليه، وهدايته صراطه المستقيم ونصره: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾<sup>(١)</sup> لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنْزِلْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا<sup>(٢)</sup> وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح ٤٨٣٥، ومسلم في الصلاة ٧٩٤، وأحمد ٤/ ٨٥-٦٨، ٤٤/٥ ومعنى «فرجع فيها»، أي: ردد القراءة.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٧٧، والترمذي في تفسير سورة الفتح ٣٢٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٦٣.

٢ - الامتنان على المؤمنين بإنزاله عز وجل السكينة في قلوبهم؛ ليزداد إيمانهم؛ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٤﴾.

٣ - وعد المؤمنين والمؤمنات بإدخالهم الجنات والفوز العظيم، ووعد المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات بالغضب واللعنة، وبجهنم وساءت مصيرا.

٤ - بيان عظمة ملكه عز وجل، وقوة سلطانه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧﴾.

٥ - بيان الحكمة من إرساله ﷺ وهي الشهادة على الأمة، والبشارة والإنذار: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٨﴾ ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۖ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٩﴾.

٦ - أن مبايعة الرسول ﷺ مبايعة لله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُتْ عَلَى نَفْسِهِ ۚ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠﴾.

٧ - كشف نفاق المخلفين من الأعراب، وفضحهم، وقولهم بألستهم ما ليس في قلوبهم، وظنهم ظن السوء، بهلاك الرسول والمؤمنين، وطمعهم: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ﴾، إلى قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١١﴾.

٨ - بيان ما يعذر فيه بترك الجهاد: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ۚ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧﴾.

٩ - ذكر رضاه عز وجل عن المؤمنين أهل بيعة الشجرة وإنزاله السكينة عليهم وإثابتهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة وكف أيدي الناس عنهم، وهدايتهم صراطًا مستقيمًا: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

لَوْلَا الْأَدْبَرُ لَمْ لَا يَجِدُونَ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ .

١٠- امتنانه تعالى بكف أيدي المشركين عن المؤمنين، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين ببطن مكة: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ .

١١- تهيبج المؤمنين على قتال المشركين: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ .

١٢- تأكيد صدق الله عز وجل رسوله ﷺ رؤياه في دخول البيت الحرام: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لِنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ .

١٣- امتنانه عز وجل على العباد بإرسال محمد ﷺ بالهدى ودين الحق: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ .

١٤- ثناء الله عز وجل على النبي ﷺ وصحابته الكرام، وامتداحهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَبُوهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ① لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ② وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ③ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا ⑤ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَابِرَةُ السُّوءِ وَعَظِيبٌ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ⑥ وَلِلَّهِ جُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ⑦ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ⑧ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑨ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَكَ فَإِنَّمَا يَنْكُكُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ⑩ ﴾

## سبب النزول:

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: «أيها الناس، اتهموا أنفسكم؛ فإننا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال: أليس قاتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟ أترجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً. فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً. فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال: أوفتح هو؟ قال: نعم» (١).

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يجبه

(١) أخرجه البخاري في الجزية، ثم من عاهد ثم غدر ٣١٨٢، ومسلم في الجهاد والسير، صلح الحديبية

رسول الله ﷺ، ثم سأله، فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب: ثكلت أم عمر: نَزَرَتْ (١) رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري، ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل في القرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، قال: فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، وجئت رسول الله ﷺ، فسلمت عليه، فقال: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا

فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾» (٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزلت هذه الآية: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾»، قال المسلمون: يا رسول الله، هنيئاً لك ما أعطاك الله، فما لنا؟ فنزلت: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح: ٥]» (٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيُنْصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾﴾:

قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾﴾، أي: إنا فتحنا لك يا محمد وللمؤمنين فتحاً عظيماً بيناً ظاهراً جليلاً، وأكد ذلك بقوله: «إنا»، وعظمه بتكبير «فتحاً»، وبوصفه بقوله: «مبيناً».

و«الفتح»: النصر، والمراد به هنا: صلح الحديبية، وقد جعل الله هذا الصلح العظيم فتحاً ونصراً؛ لما ترتب عليه من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة، والعاقبة الحميدة، والمآل الحسن؛ كما قال ﷺ لما سأله عمر رضي الله عنه: أوفتح هو؟ قال: «نعم».

وعن مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ على الناس:

(١) أي: ألححت عليه بالمسألة. انظر: «النهاية»، مادة: «نزر».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٧٧، والترمذي في التفسير، باب: ومن سورة الفتح ٣٢٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الحديبية ٣٩٣٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٨٦، والترمذي في

التفسير، باب ومن سورة الفتح ٣٢٦٣.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (١)، فقال رجل من أصحاب رسول الله: أي رسول الله، وفتح هو؟ قال: «والذي نفسي بيده إنه لفتح» (١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية» (٢).

وعن جابر رضي الله عنه: «وما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية» (٣).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «وتعدون الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية» (٤).

قال الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك الستين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك، أو أكثر» (٥).

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ اللام: للتعليل، و«ما» في الموضعين: موصولة، أي: لأجل أن يغفر لك الله الذي تقدم من ذنبك والذي تأخر منه؛ وذلك لتعظيمه ﷺ وأمر الله ونواهيته، وشعائره وحرماته؛ ولهذا قال ﷺ حين بركت الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطة يعظمون به حرمت الله، إلا أعطيتهم إياها» (٦).

ولهذا أجابهم إلى الصلح مع ما رأى فيه بعض أصحابه من غضاضة عليهم، وكان من ثمرة ذلك أن رتب الله عليه ما لا يحصى من الأجور والمصالح الدنيوية والدنيوية

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب فيمن أسهم سهمًا ٢٧٣٦، وأحمد ٣/٤٢٠.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/٣٠٧.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/٢٤٢، ٢٤٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الحديبية ٤١٥٠.

(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٣٦، وانظر: «الأم» ٤/١٨٩، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/١٧.

(٦) أخرجه البخاري في الشروط في الجهاد ٢٧٣٤، وأبو داود في الجهاد، صلح العدو ٢٧٦٥، وأحمد

٢/٣٢٣، ٣٢٩، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

والأخرية.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «هذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره: «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، وهذا فيه تشریف عظيم لرسول الله ﷺ».

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»<sup>(٢)</sup>.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفطر رجلاه، فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَبِئْتَنَا نِعْمَتُهُ عَلَيْنَا﴾، «نعمة» مفرد مضاف، فيعم جميع النعم، الدينية والدينية والأخرية.

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾، أي: طريقاً عدلاً لا اعوجاج فيه، بما يشرعه لك من الشرع العظيم، والدين القويم.

﴿وَيَنْصُرْكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾<sup>(٤)</sup>، أي: قوياً مؤزراً تاماً، لا يتضعع. فجمع عز وجل له ﷺ في هذه الآية خمس عطايا عظيمة، الأولى: الفتح المين، والثانية: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والثالثة: إتمام نعمته عليه، والرابعة: هدايته الصراط المستقيم، والخامسة: نصره نصراً مؤزراً.

وجمع له بين الهدى والنصر، وهذان الأصلان بهما كمال السعادة والفلاح، فالهدى: العلم النافع بالله ودينه، والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع، والعمل الصالح.

(١) في «تفسيره» ٣١٠/٧.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣٠، ومسلم في صفة القيامة، إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة، ما جاء في الاجتهاد في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقام الصلاة، ما جاء في طول القيام في الصلاة ١٤١٩.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٧، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٢٠، وأحمد ٦/١١٥.

والنصر: القدرة التامة على تنفيذ دينه. وهو عز وجل كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين؛ إذ بهما تمام الدعوة، وظهور دينه على الدين كله؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] (١).

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۗ بِاللَّهِ ظَنَنَ السُّوءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾، أي: الطمأنينة والثبات، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فاستسلموا لحكم الله ورسوله، وانقادوا له، مع ما في هذا الصلح وشرطه في الظاهر من شدة وثقل عليهم؛ طاعة لله ورسوله، وإيقانًا منهم بأن الخيرة فيما يختاره الله لهم ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿لِيَرْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يزدادوا إيمانًا، أي: ليزيدهم الله تعالى إيمانًا مع إيمانهم، بسبب ثباتهم، وتوطينهم أنفسهم، وصرهم على تلك الشروط التي في ظاهرها غضاضة عليهم، وإجحاف في حقهم، مما لا تكاد تصبر عليه النفوس، فأثابهم الله تعالى على ذلك بأن زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ولله وحده - خلقًا وملكًا وتديرًا - جميع جنود السموات والأرض، من الملائكة والمؤمنين من الإنس والجن، والريح والمطر وغير ذلك، ولو شاء لأرسل جنودًا من جنوده، فانتصر من هؤلاء الكافرين، وأباد خضراءهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾، أي: ذا العلم الواسع المحيط بكل شيء، ﴿حَكِيمًا﴾، أي: ذا الحكم

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٦٧.

التمام، والحكمة البالغة.

ولسعة علمه عز وجل، وتمام حكمه وحكمته، شرع الجهاد والقتال، وجعل الأيام دولاً بين الناس، للابتلاء والامتحان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ﴾ [محمد: ٤].

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ<sup>٥</sup> وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

سبق في ذكر سبب نزول هذه السورة قول أنس رضي الله عنه: «لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتَبِّعَهُ نِعْمَةٌ مِنْ عَيْنِكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾، قال المسلمون: يا رسول الله، هنيئاً لك ما أعطاك الله، فما لنا؟ فنزلت: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ<sup>٥</sup> وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ (١).

قوله: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يدخل الله المؤمنين والمؤمنات ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وغرفها وقصورها الأنهار المختلفة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبداً، لا يُخرجون منها، ولا يبغون عنها حولاً. ﴿وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، أي: يمحو ويزيل عنهم خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يغفرها لهم، ويتجاوز ويعفو ويصفح عنهم. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ المذكور من إدخالهم الجنات وخلودهم فيها، وتكفير سيئاتهم.

﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾، الفوز: الفلاح والظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، و﴿عَظِيمًا﴾: صفة لـ«فوزاً»، أي: فوزاً وفلاحاً لا أعظم منه، ولا يقدر عظمته إلا من وصفه بذلك، وهو العلي العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ

(١) سبق تخرجه.

فَقَدْ قَارَءُ ﴿ [آل عمران: ١٨٥].

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ عذاباً حسياً ومعنوياً في الدنيا، بقتل المشركين، وفضح المنافقين، وإقامة الحججة عليهم، وإغاثتهم جميعاً بنصر المسلمين؛ كما قال تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْزِعُكُمْ عَنْهُمْ وَيَسْخِطُ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وعذاباً في الآخرة بالنار، وبس القرار؛ كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَعَذَّبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].  
وقدم المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات؛ لأن المنافقين جمعوا الكفر في الباطن والمخادعة في الظاهر، فهم أشد كفراً، وأشد ضرراً على الإسلام وأهله، وأشد عذاباً؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنِبَ السُّوءِ﴾: صفة للمنافقين.

و﴿ظَنِبَ السُّوءِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الظانين بالله الظن السيئ، أي: بأنه لا ينصر دينه ونبيه، وأن الرسول ﷺ وأصحابه سيقتلون ويُسْتَأْصَلُونَ، ونحو ذلك.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «السُّوء» بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿السُّوءِ﴾.

أي: عليهم تدور دائرة العذاب والدائرة السيئة، وعليهم تدور الدوائر. وهذا حكم من الله عليهم بذلك، وإخبار منه بذلك، وليس دعاء عليهم.  
﴿وَعَذَّبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، أي: وسخط الله عليهم فاستحقوا نقمته؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم عن رحمته، وطردهم من جنته؛ ولهذا قال:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾، أي: هيا وجهاز لهم نار جهنم، هي مصيرهم ومثواهم؛ لأن من طُرد من الجنة ليس له في الآخرة إلا النار؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦].

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، أي: وقبحت مستقرًا ومثوى لهم.

فليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، وقد أحسن القائل:

الموت باب وكل الناس داخله      يا ليت شعري بعد الموت ما الدار  
الدار جنة عدن إن عملت بما      يرضي الإله وإن فرطت فالنار  
هما محلان ما للناس غيرهما      فاختر لنفسك ماذا أنت تختار (١)

وقد ذكر أن الإمام أحمد كثيرًا ما كان يتمثل بهذه الآيات.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كرر الإخبار بهذا؛ لتأكيد كمال عظمته وقوته وقدرته على إهلاك أعدائه، ونصر أوليائه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنُدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٧٣) [الصافات: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦) [المائدة: ٥٦].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾، أي: ذا العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

﴿حَكِيمًا﴾ ذا الحكم التام، والحكمة البالغة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٠):

قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا﴾، «شاهدًا»: حال، أي: إنا أرسلناك شاهدًا لله تعالى

(١) الآيات سبق تخريجها.

بالوحدانية؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وشاهدًا على أمتك بإبلاغك إياهم رسالة ربك، وعلى أعمالهم خيرا وشرها. كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وشاهدًا للرسول بصدقهم، وتبليغهم رسالات ربهم إلى أقوامهم.

وشاهدًا على الخلائق؛ كما قال تعالى: ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهذا يشملهم هو وأمته عليه الصلاة والسلام؛ لأن شهادة أمته على الناس شهادة بما أخبرهم به ﷺ عن الناس من الأمم قبلهم.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن آمن وأطاع الله بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة. والتبشير: الإخبار بما يسر.

﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن كفر وعصى الله من الشقاء في الدنيا والآخرة، والنار. والإنذار: التحذير والتخويف مما يضر.

ومن لازم كونه مبشرًا ونذيرًا: تبليغ التكليف والأوامر والنواهي، ومن ثم البشارة لمن امتثل ذلك، والندارة لمن خالفه؛ ولهذا قال:

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿١﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في: «لِيُؤْمِنُوا» وما عطف عليه، وقرأ الباقون بقاء الخطاب: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾، وكذا ما عطف عليه.

واللام: للتعليل، أي: إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا؛ لأجل أن تؤمنوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية.

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

والإيمان بالرسول ﷺ: شهادة أنه رسول الله، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ الضمير يعود إلى الرسول ﷺ، أي: وتناصروه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، أي: وتعظموه وتحترموه وتأدبوا معه.

ويحتمل عود الضمير إلى الله، أي: ﴿وَتَعَزَّوْهُ﴾، أي: وتعزروا الله، أي: تنصروه بنصر دينه، ﴿وَتُوقِرُوهُ﴾، أي: وتعظموا الله وتجلوه.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ الضمير يعود إلى الله تعالى، أي: وتنزهوا الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وتعبدوه وتذكروه.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره، وهذا ينتظم الصلوات الخمس وأذكار الصباح والمساء، والتعبد لله وتسيحه في جميع أوقات الليل والنهار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والذين بايعوه هم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: إن مبايعتهم لك ما هي إلا مبايعة لله.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ ولهذا قال:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: هو معهم، يسمع كلامهم، ويرى مكانهم، ويعلم سرهم ونجواهم، وبواطنهم وظواهرهم، فهو المبايع لهم بواسطة رسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْلِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلِنُونَ وَيُقْلِنُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١] (١).

﴿فَمَنْ نَكَتْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فمن نكث البيعة، أي: نقضها، ولم يف بها عاهد عليه الله.

﴿فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط في الموضعين، و«إنما»: أداة حصر، أي: فإنما يعود وبال وضرر نكثه البيعة على نفسه، وعقوبته واقعة عليه، والله غني عنه.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾، أي: ومن أتم الذي عاهد عليه الله، أي: أتى به تاماً

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣١٢.

واقياً كاملاً.

﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي وعاصم ورويس بالياء: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «فَسُنُؤْتِيهِ».

أي: فسيعطيه الله ثواباً جزيلاً، وجزاءً عظيماً، لا يقدر قدر عظمته إلا من منحه لهم، ووصفه بذلك، وهو العظيم سبحانه وتعالى.

والمراد بهذه البيعة: «بيعة الرضوان»، التي بايع بها الصحابة رسول الله ﷺ يوم الحديبية تحت الشجرة، وكان سبب هذه البيعة العظيمة: أنه لما أرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش؛ ليلبغهم أنه ﷺ لم يأتِ لحرب، وأنه إنما جاء معتمراً زائراً لهذا البيت، معظماً حرمة، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت «بيعة الرضوان» تحت شجرة سمرة في الحديبية؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] (١).

وكان عدد الصحابة رضي الله عنهم الذين شهدوا هذه البيعة العظيمة ألفاً وأربع مئة، أو ألفاً وخمس مئة، وقيل غير ذلك.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «كنا يوم الحديبية ألفاً وأربع مئة» (٢).  
وعنه رضي الله عنه: «كنا خمس عشرة مئة» (٣).

وعن قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: بلغني أن جابر بن عبد الله كان يقول: «كانوا أربع عشرة مئة». فقال لي سعيد: حدثني جابر: كانوا خمس عشرة مئة الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية» (٤).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: «قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٣١٥-٣١٦، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣١٤.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح ٤٨٤٠، ومسلم في الإمارة، استحباب مبايعة الإمام الجند عند إرادة القتال وبيعة الرضوان ١٨٥٦.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، غزوة الحديبية ٤١٥٢، ومسلم في الباب السابق ١٨٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في الباب السابق ٤١٥٣.

ونحن أربع عشرة مئة»<sup>(١)</sup>.

وعن عبدالله بن أبي أوفى، قال: «كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلاث مئة»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن كثير<sup>(٣)</sup> بعدما ذكر قول سعيد بن المسيب أن جابرًا حدثه أنهم كانوا خمس عشرة مئة: «والمشهور الذي رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مئة، وهذا هو الذي رواه البيهقي... عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربع مئة». وكذا هو في رواية سلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار والبراء بن عازب، وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي».

واختلف: هل مبايعتهم رسول الله ﷺ كانت على ألا يفروا، أو كانت على الموت؟ فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: «بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبايعون؟ قال: على الموت»<sup>(٤)</sup>.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: «كنا يوم الحديبية ألفاً وأربع مئة، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت»<sup>(٥)</sup>.

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه، قال: «لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر»<sup>(٦)</sup>.

والخلف في هذا يسير، والمراد: أنهم بايعوا رسول الله ﷺ ألا يفروا ولو هلكوا عن آخرهم.

وقد بايع ﷺ بيده الشريفة عن عثمان رضي الله عنه، فعن أنس بن مالك رضي الله

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، غزوة ذي قرد ١٨٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٥٥، ومسلم في الموضوع السابق ١٨٥٧.

(٣) في «تفسيره» ٣١٣/٧.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٩٦٠، ومسلم في الموضوع السابق ١٨٦٠، والنسائي في البيعة ٤١٥٩، والترمذي في السير ١٥٩٢.

(٥) أخرجه مسلم في الموضوع السابق ١٨٥٦، والنسائي في البيعة ٤١٥٨، والترمذي في السير ١٥٩١.

(٦) أخرجه مسلم ١٨٥٨.

عنه، قال: «لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان، كان عثمان بن عفان رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله، فضرِبْ بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم»<sup>(١)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله عز وجل على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين بصلح الحديبية، وأنه فتح عظيم بين ظاهر جلي؛ لما ترتب عليه من المصالح العظيمة، والمنافع الكثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الآيات.

٢- تشریفه ﷺ بخطاب الله تعالى له، وتكريمه بما أجزل عز وجل له من العطايا في هذه الآيات، من الفتح المبين، ومغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عز وجل عليه، وهدايته إياه الصراط المستقيم، ونصره نصراً مؤزراً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٢﴾.

٣- أن فتح القلوب للإيمان أعظم من فتح البلدان؛ حيث كان هذا سبباً في دخول كثير من الناس في الإسلام.

٤- اختصاص الله عز وجل له ﷺ من بين سائر الخلق بمغفرته له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

٥- إتمام نعمته عليه في الدين والدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾.

٦- هدايته له الصراط المستقيم، بما شرع له من الشرع العظيم، والدين القويم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢﴾.

٧- نصر الله عز وجل له ﷺ نصراً قوياً مؤزراً، وإظهاره لدينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٢﴾.

٨- نعمة الله تعالى العظيمة على المؤمنين في إنزال السكينة والطمأنينة عليهم،

(١) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٧٠٢، وذكره ابن كثير من رواية البيهقي ٣١٥/٧، وقال الترمذي:

«حديث حسن صحيح غريب».

وتثبيت قلوبهم في هذا الموقف الصعب؛ حيث صدهم المشركون عن البيت، واشتروا في الصلح تلك الشروط التي في ظاهرها غضاضة عليهم، فاستسلموا وانقادوا لحكم الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٩- زيادة إيمانهم بسبب ثباتهم وتوطينهم أنفسهم وصبرهم، واستسلامهم وانقيادهم لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَزِدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾.

١٠- إثبات أن الإيمان يزيد وينقص؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَزِدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾.

وفي هذا رد على المرجئة وغيرهم ممن ينفون زيادة الإيمان ونقصانه.

١١- كمال قوة الله وتمام قدرته؛ فله جنود السموات والأرض خلقًا وملكًا وتديرًا، فلو شاء أرسل على هؤلاء الكافرين جنودًا من جنده فأهلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

١٢- إثبات سعة علمه عز وجل، وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾.

١٣- إثبات صفة الحكم والحكمة له عز وجل، وأنه سبحانه ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾.

١٤- أن الله عز وجل أنزل السكينة في قلوب المؤمنين، وثبتهم ليزداد إيمانهم؛ ليدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ويمحو ذنوبهم، وعدًا عليه حقًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

١٥- أن هذا هو الفوز العظيم عند الله؛ لأن الله جمع لهم فيه بين حصول المطلوب، بدخول الجنات، والتمتع بها فيها من النعيم، وبين السلامة من المرهوب، بتكفير سيئاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

١٦- أن الفوز لا يتم إلا بحصول المطلوب، والنجاة من المرهوب؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

١٧- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للمنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات

ذوي الظن السيئ بالله، بأنه لا ينصر دينه ونبيه، وأن الرسول ﷺ وأصحابه سيقتلون ويستأصلون؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ يَا اللَّهُ ظَنُّكَ السَّوْءُ﴾.

١٨- أن المنافقين أشد كفراً وخطراً على الإسلام وأهله، وأشد عذاباً؛ ولهذا قدمهم على المشركين.

١٩- التحذير من النفاق والشرك وسوء الظن بالله؛ لأن ذلك موجب للعذاب.

٢٠- حكم الله تعالى وقضائه بأن الدائرة السيئة عليهم، عقوبة لهم، وتخييباً

لظنهم؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

٢١- غضب الله تعالى عليهم، وطردهم من رحمته وجنته، وإعداده نار جهنم

منزلاً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾.

٢٢- أن جهنم موجودة الآن معدة للكافرين، وأنها بنس المصير والمنزل والمثوى

لأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

٢٣- تأكيد قوته عز وجل وكثرة جنده، وتمام قدرته على إهلاك الكافرين، ونصرة

المؤمنين، وكمال عزته وتمام حكمه وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٧).

٢٤- إثبات صفة العزة لله تعالى بأقسامها: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة

الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

٢٥- إثبات رسالته ﷺ، وأن الله أرسله شاهداً بوحدانيته عز وجل، وشاهداً على

أمته بإبلاغهم رسالة ربه، وعلى أعمالهم، وعلى الرسل بصدقهم وتبليغهم رسالات

ربهم، وشاهداً هو وأمته على الأمم السابقة، ومبشراً لمن أطاعه بالجنة، ونذيراً لمن عصاه

بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨).

٢٦- أن الحكمة من إرساله ﷺ دعوة الناس إلى الإيمان بالله، وعبادته وتسيححه،

وتصديقه ﷺ، ونصرته، وتوقيره؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ

وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٩).

- ٢٧- مشروعية تسبيح الله تعالى وعبادته بكرة وأصيلاً، وفي جميع الأوقات.
- ٢٨- تعظيم شأن مبايعة المؤمنين له ﷺ، وأنها مبايعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.
- ٢٩- إثبات اليد لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.
- ٣٠- التحذير من نقض البيعة، وأن من نقضها فوبال وضرر نقضه على نفسه، والله غني عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾.
- ٣١- فضيلة أهل بيعة الرضوان، وعظم ما أعد الله لهم من الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.
- ٣٢- الترغيب بالوفاء بعهد الله، والتنويه بشأن من أتم ما عاهد عليه الله، ووعد الله له بإيتائه أجراً عظيماً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.
- ٣٣- تكفله عز وجل بثواب من أوفى بما عاهد عليه الله؛ لتسميته له أجراً.
- ٣٤- أخذ بعض أهل العلم من الآية استحباب مبايعة الإمام الجند عند إرادة القتال.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ مَنْ يَمَلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا هَا ذُرُونَا تَتَّبِعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَقْفَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَىٰ قَوْمِ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَامُونِ إِنْ أَرَادْتُمْ أَنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ \* لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِهِ كِبِيرَةٌ يَأْخُذُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ \* .

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ مَنْ يَمَلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا هَا ذُرُونَا تَتَّبِعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَقْفَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ \* .

قوله: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾، أي: سيقول لك يا محمد، والسين: للاستقبال.

﴿ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾، أي: الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى مكة، عند

رجوعك إلى المدينة، معتذرين عن تخلفهم كذبًا ونفاقًا.

وأطلق عليهم: ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾، ولم يقل: «المتخلفون»؛ تحقيراً لهم.  
 ﴿شَغَلْتَنَا﴾، أي: شغلتنا عن الخروج معك ﴿أَمْوَالَنَا﴾، أي: انشغلنا بأموالنا، من  
 المواشي والمزارع والتجارة وغير ذلك، ﴿وَأَهْلُونَا﴾ من الأزواج والأولاد.  
 ﴿فَأَسْتَغْفِرُ لَنَا﴾، أي: فاطلب من الله واسأله المغفرة لنا، وهذا منهم ليس على  
 سبيل الاعتقاد، وإنما على سبيل النفاق والمصانعة؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله:  
 ﴿يَقُولُونَ بِآلِسْتِهِمْ﴾ ظاهراً ﴿مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، «ما»: مصدرية، أي: قولاً ليس  
 في قلوبهم.

أي: قولاً مخالفاً لما في قلوبهم، فظاهر قولهم هذا: الاعتذار والتوبة والندم بطلب  
 الاستغفار، ولكن الذي في قلوبهم وباطنهم: الشك والنفاق وسوء الظن والكفر  
 الكُبار.

كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ  
 فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٣).

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الاستفهام للنفي، و«شيئاً»: نكرة في سياق  
 النفي فتعم، أي: لا أحد يملك لكم من الله أي شيء.  
 ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الضاد:  
 «ضُرًّا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ضَرًّا﴾.

أي: لا أحد يقدر على دفع ما أراد الله بكم، فإن أراد بكم ضراً فلا أحد يدفعه، وإن  
 أراد بكم نفعاً فلا أحد يمنعه.

والضر: كل ما يضر به، والنفع: كل ما يُنتفع به.

﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، «بل»: للإضراب في الموضوعين، و«ما» موصولة، أو  
 مصدرية، أي: بل كان الله بعملكم، أو بالذي تعملونه.

﴿خَيْرًا﴾، أي: عليماً مطلعاً على باطنه وظاهره، ودقيقه وجليله، وخفيته وجلية،  
 فهو أعلم بسر أئركم وضما أئركم وإن صانعتمونا، وأظهرتم لنا خلاف ذلك.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾، أي: بل اعتقدتم أن لن

يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدأ، أي: أنهم سيقتلون ويُسْتَأْصَلُونَ، ولا يرجع منهم مخبر، وأن الله لن ينصر رسوله ودينه.

﴿وَزَيَّنْتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أي: وزَّيْنَتْ ذلك الظن السيئ في قلوبكم الشيطان والأنفس الأمارة بالسوء.

أو زَيْنَ ذلك قدرًا في قلوبكم، أي: قدر الله ذلك عليكم وزينه في قلوبكم، وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تحقيرًا له.

﴿وَوَلَّيْنَاكَ الظن السيئ﴾، أي: الظن السيئ، وهو أن الله لن ينصر دينه ورسوله ومن معه من المؤمنين، وأنهم سيقتلون، وتُستَبَادُ خضراؤهم.

﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾: البور، والبوار: الهلاك والخسار، أي: قومًا هالكين خاسرين، لا خير فيكم.

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: وينقذ لما أمر الله به ورسوله.

﴿فَأِنَّا آَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: فإننا أعددنا وهيأنا وجهزنا للكافرين أمثاله.

﴿سَعِيرًا﴾، أي: نارًا مسعورة متوقدة. وفي هذا تهديد ووعيد له.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: والله وحده جميع الذي في السموات والأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أي: يغفر للذي يشاءه من عباده بفضله عز وجل، وهم الذين آمنوا به واتقوه، فيستر ذنوبهم عن الخلق، ويتجاوز عنهم، فلا يعذبهم بها.

﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: ويعذب الذي يشاءه من عباده بعدله، وهم الذين كفروا به وعصوه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، أي: ذا مغفرة واسعة لمن تاب وأناب إليه، وذا رحمة واسعة لعباده.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُسْتَدُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥):

قوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾، أي: الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية. ﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعنون: مغنم خيبر التي وعد الله بها أهل الحديبية خاصة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾.

﴿ذُرُونًا نَتَّبِعَكُمْ﴾، أي: اتركونا نتبعكم ونخرج معكم، أي: لنشارككم المغنم، وفي هذا ما يشعر أن الرسول ﷺ وأصحابه منعوهم من الخروج معهم. تخلفوا عن الجهاد والقتال، ومبايعة الرسول ﷺ على الثبات وعدم الفرار حتى الموت، ويطمعون في مغنم خيبر، يريدون مغنمًا بلا مغرم!

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «كَلِمَ» بكسر اللام من غير ألف، وقرأ الباقون: «كَلِمَ» بفتح اللام وألف بعدها. و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «يريدون»، أي: يريدون تبديل كلام الله، وهو وعده أهل الحديبية خاصة بمغنم خيبر.

﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾، أي: لن يقع ذلك؛ لأن الله لم يأذن بذلك لا شرعًا ولا قدرًا، ولن يأذن به، وذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فحيث تخلفوا عن الجهاد والقتال، عوقبوا بحرمانهم من الغنيمة.

﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: وعد أهل الحديبية مغنم خيبر، وخصهم بها قبل سؤالكم اتباعهم ومشاركتهم المغنم.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾، «بل»: للإضراب في الموضوعين، أي: بل تحسدوننا أن نشارككم في المغنم، أي: ليس السبب في منعكم لنا من اتباعكم قول الله، بل حسد منكم لنا أن نشارككم في المغنم.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: ليس الأمر كما يزعمون أن منعنا إياهم حسدًا لهم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لا يفهمون إلا قليلًا، ولهذا لم يعرفوا الحكمة في منعهم من المشاركة في المغنم، وأن ذلك بسبب امتناعهم من الجهاد والقتال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ أُولَىٰ بِأَسِ شَدِيدٍ فَقَتَلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ﴾ مستقبلاً ﴿إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ أُولَىٰ بِأَسِ شَدِيدٍ﴾، أي: أصحاب قوة وشدة في الحرب.

﴿فَقَتَلُونَهُمْ﴾ إن لم يسلموا، ولم يدفعوا الجزية، ﴿أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ فتركون قتالهم. وقد اختلف المفسرون في المراد بهؤلاء القوم على أقوال، ليس على شيء منها دليل ولا برهان، فهم قوم أولو بأس شديد، وكفى.

﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾، أي: وإن تمثلوا وتستجيبوا لأمر الله ورسوله، وتنفروا للجهاد مع المؤمنين.

﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو ما وعد به عز وجل المجاهدين في سبيله من الأجر العظيم.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: وإن تعرضوا بقلوبكم، وتولوا بأبدانكم عن طاعة الله ورسوله، والجهاد في سبيله.

﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: كما توليتهم وأعرضتم عن ذلك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي: زمن الحديبية، حيث دُعيت للجهاد فتخلفتم.

﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلماً موجعاً، حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب، في الدنيا والآخرة.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، أي: ليس على هؤلاء الثلاثة إثم ولا ذنب في ترك الجهاد بسبب هذه العلة، وهي: العمى وفقدان البصر، والعرج الذي لا يستطيع صاحبه معه مجابهة الأصحاء، والمرضى الذي لا يستطيع صاحبه معه القتال.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بفعل ما أمر الله به ورسوله، والجهاد في سبيل الله.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرأ نافع وابن عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون، وقرأ

الباقون بالياء: ﴿يُدْخِلْهُ﴾. وفي هذا ترغيب في الجهاد وطاعة الله ورسوله.  
 ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون: «نُعَذِّبُهُ»، وقرأ الباقون:  
 ﴿يُعَذِّبُهُ﴾، أي: ومن يتول وينكل عن الجهاد، ويعرض عن طاعة الله تعالى ورسوله،  
 يعذبه الله في الدنيا والآخرة.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلماً موجعاً، ومنه المذلة في الدنيا، والنار في الآخرة. وفي هذا  
 تحذير من ترك الجهاد، والتولي عن طاعة الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي  
 قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا  
 حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾:

قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ اللام: لام  
 القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق.

أي: والله لقد رضي الله عن المؤمنين، أي: أحل رضاه عليهم، وكانوا- كما تقدم-  
 ألفاً وأربع مئة.

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾، «إذ»: ظرف في محل نصب، والخطاب للنبي ﷺ، أي: إذ  
 يبایعونك على الأياف ولو هلكوا عن آخرهم.

﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، «تحت»: ظرف في محل نصب، أي: في ظل الشجرة، وهي:  
 سمرة في الحديبية.

فأخبر عز وجل برضاه عنهم، وأقسم على ذلك؛ ولهذا سُمِّيَتْ: «بيعة الرضوان»،  
 فرضي الله عنهم وأرضاهم، وأذل الرافضة ولعنهم، وأهلكهم وأخزاهم. كما يقال لها  
 أيضاً: بيعة أهل الشجرة؛ لأنها وقعت في ظل شجرة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الفاء: عاطفة في الموضعين، و«ما»: موصولة، أي: فعلم الذي  
 في قلوبهم من قوة الإيمان واليقين، والإخلاص والصدق، والوفاء والسمع والطاعة،  
 والثقة بوعد الله ونصره.

وعلم ما في قلوبهم أيضاً: من الغيظ والقلق والاضطراب بسبب منع المشركين لهم

من دخول البيت، وحبس الهدى، ومنعه من بلوغ محله، واشترطهم في الصلح تلك الشروط الجائرة الظالمة، التي يصعب تحملها، والصبر عليها، لولا لطف الله بهم، وعونه لهم بإنزاله السكينة عليهم، فشهد عز وجل لهم بالإخلاص له، وبإلّا بقلوبهم بسبب انتهاك حرمانه، وصددهم عن الحرم، ومنع الهدى من وصول محله.

﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فأنزل الطمأنينة والثبات على قلوبهم؛ كما قال في أول

السورة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤].

﴿وَأَنْبَهُمْ﴾، أي: وأعطاهم ثواباً وجزاءً عاجلاً على يقينهم وثباتهم وصبرهم،

﴿فَتَحَا قَرِيبًا﴾ هو فتح خبير، فخصهم بها وبمغانمها؛ ولهذا قال:

﴿وَمَعَانِهِ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، أي: من خبير وأرضها.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كرر هذا في السورة؛ لتأكيد أنه عز وجل ذو العزة التامة،

والحكم التام، والحكمة البالغة، وأنه لو شاء لانتصر من الكفار، ولكنه أراد ابتلاء

المؤمنين وتمحيصهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ (١٤١)

[آل عمران: ١٤١].

ومما ينبغي أن يُعلم: أن الحكمة في تكرار ذكر أسماء الله تعالى وصفاته، وبعض

الأحكام والأخبار والقصص وغير ذلك: هي ترسيخ وتثبيت المعاني العظيمة

المستخلصة من تلك النصوص في القلوب والأذهان، وأهمها عظمة الله وكمال أسائه

وصفاته، وتربية النفوس بذلك؛ لأن القرآن منهج حياة؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها

لما سئلت عن خلقه ﷺ، قالت: «كان خلقه القرآن»<sup>(١)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

١- اعتذار الذين تحلفوا من الأعراب عن الخروج إلى مكة من النبي ﷺ عند

رجوعه، بانشغالهم بأموالهم وأهليهم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ

سَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا﴾، وقد جمعوا في هذا بين الكذب، والاعتذار بها ليس بعذر.

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٠١.

- ٢- تشریفه ﷺ بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾، ﴿إِذْ يَأْبُغُونَكَ﴾.
- ٣- علم الله تعالى الغيب، وما سيكون؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنْ الْأَعْرَابِ﴾ الآية، وقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الآية.
- ٤- أن الأعراب سكان البوادي أقرب إلى الجفاء وضعف الإيمان؛ لبعدهم عن العلم وأهله.
- ٥- لا يجوز الانشغال بالأموال والأهل وغير ذلك عن طاعة الله تعالى، والجهاد في سبيله.
- ٦- طلب هؤلاء المتخلفين من النبي ﷺ الاستغفار لهم؛ إمعاناً منهم في النفاق؛ لقولهم: ﴿فَأَسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.
- ٧- فضح الله لهم، وبيانه نفاقهم، وأنهم يقولون بألسنتهم قولاً يخالف ما في قلوبهم، من الكفر والنفاق والكذب؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.
- ٨- وجوب الإخلاص لله، والحذر من النفاق ومخالفة الباطن للظاهر.
- ٩- أنه لا أحد يملك لأحد من الله شيئاً، لا دفع ضرر، ولا جلب نفع؛ لأن جلب الضرر ودفعه، وجلب النفع ومنعه كل ذلك بيد الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾.
- ١٠- ذم هؤلاء المتخلفين وتحقيرهم؛ حيث يظهرون الحسن للناس الذين لا يملكون لهم نفعاً ولا ضرراً، ويجاهرون الله بالنفاق والكفر والكذب في قلوبهم؛ لأن الله يعلم سرهم ونجواهم؛ ولهذا ساهم الله: ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ ولم يقل: «المتخلفون».
- ١١- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، وهي المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾، وقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ١٢- علم الله تعالى التام بأعمالهم، دقيقها وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليلها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وفي هذا تهديد ووعد لهم بمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم.

١٣- ظنهم السيئ بأن الله لن ينصر رسوله ودينه، وأن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهلهم أبداً، بل سيقتلون ويستأصلون، وتزيين ذلك في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

١٤- توبيخهم على هذا الظن السيئ الباطل، وذمهم وعتهم بالبوار والهلاك والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَدَّعَيْنَا لَظُنُوظَكُمُ السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢).

١٥- الترغيب بالإيمان بالله ورسوله، وتحذير من لم يؤمن بالله ورسوله، وأنه كافر، ومصيره النار المسعورة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣).

١٦- أن النار موجودة مسعرة الآن، أعداها الله للكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

١٧- سعة ملك الله عز وجل، وأن له وحده جميع الذي في السموات والأرض؛ خلقاً وملكاً وتديراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

١٨- مغفرته عز وجل لمن يشاء من عباده بفضله، وتعذيبه من يشاء منهم بعدله؛ لقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

١٩- إثبات صفتي: «المغفرة» و«الرحمة» الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

٢٠- طلب هؤلاء المخلفين المشاركة في المغانم مع تخلفهم عن الجهاد؛ طمعاً في المغنم دون الغرم؛ لقولهم للمؤمنين: ﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَعَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾.

٢١- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مجبور على أفعاله وأقواله.

٢٢- وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خيبر، وأنها لهم خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾، وهو وعده لهم بذلك؛ لقوله: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

٢٣- أنه لا تبديل لكلمات الله، ولا خلف لوعده.

٢٤- أمر الله للنبي ﷺ بمنعهم من اتباعهم؛ لأنه عز وجل لن يأذن لهم بذلك، لا قدرًا ولا شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

٢٥- زعمهم أن منع المؤمنين لهم من اتباعهم حسد من المؤمنين لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

٢٦- قلة فقههم وفهمهم، وعظم جهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٢٧- إخبارهم بأنهم سيُدعون مستقبلًا امتحانًا لهم إلى قوم أصحاب قوة وشدة في الحرب، يقاتلونهم إن لم يسلموا، أو يسلمون فلا يقاتلونهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾.

٢٨- حثهم على طاعة الله والجهاد في سبيله، ووعدهم بالأجر الحسن، وتحذيرهم من التولي والإعراض عن ذلك كما تولوا من قبل، وتهديدهم بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢٩- تكفله عز وجل بأجرهم إن هم أطاعوا؛ لتسميته له: «أجرًا».

٣٠- أنه لا حرج ولا إثم على الأعمى والأعرج والمريض في تركهم الجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

٣١- رفع الحرج عن هذه الأمة بهذه الشريعة المطهرة، وأن المشقة تجلب التيسير.

٣٢- الترغيب بطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، بذكر ما أعد الله لمن امتثل ذلك من الجنات، وما فيها من النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

٣٣- الترهيب من التولي عن طاعة الله ورسوله، وعن الجهاد في سبيله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٣٤- إخباره عز وجل برضاه عن المؤمنين حين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة على الثبات وعدم الفرار، وتأكيده عز وجل رضاه عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُواكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

ورضاه عز وجل من أعظم وأفضل ما أعطاه لعباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»<sup>(١)</sup>.

٣٥- علمه عز وجل ما في قلوبهم من الإيمان واليقين، والإخلاص والصدق، والوفاء، والثقة بنصر الله ووعدده، وما فيها من الغيظ والقلق بسبب منع المشركين لهم عن البيت، وحبسهم الهدي، وامتنانه بإنزال السكينة والطمأنينة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

٣٦- إثابته عز وجل ومجازاته إياهم على ذلك بفتح قريب، هو فتح خبير ومغانمها، وتخصيص ذلك لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾.

٣٧- إثبات صفة العزة التامة، والحكم التام، والحكمة البالغة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

\* \* \*

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٩، ومسلم في الإيمان ١٨٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبُرَ لِمَ لَا يَجِدُونَ وِلْيَاءَ وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُمُو أَنْ يُبَلَغَ مَجْلَهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فُضِّبِكُمْ مِنْهُمَ مَعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلَيْهِمْ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَو تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحْلِقِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۗ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَنُجٍ أَخْرَجَ شَطْرَهُ ۚ فَتَارَهُ فَتَارَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبُرَ لِمَ لَا يَجِدُونَ وِلْيَاءَ وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ۝

قوله: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي كل غنيمة يغنمها المسلمون في حروبهم إلى يوم القيامة؛ لأن الله اختص هذه الأمة لشرف نبيها، وفضلها بالغنائم من

بين الأمم؛ كما قال ﷺ: «وأحلت لي الغنائم ولم نحل لأحد قبلي» (١).

﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ وهي فتح خيبر وغنيمتها.

قال ابن كثير (٢): «فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه، بعضها عنوة وبعضها صلحًا، وهي إقليم عظيم، كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدا أحد غيرهم، إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه وأبو موسى الأشعري وأصحابه».

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾، أي: منع أيدي الناس من مشركي مكة وغيرهم من أن تمتد لقتالكم أو أذاكم بسبب هذا الفتح المبين، والصلح العظيم المبارك، وهذا تنبيه على نعمة عظيمة غفلوا عنها، وهي نعمة السلم، وامتنان عليهم بها.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتعليل، أي: ولتكون هذه الغنيمة التي عجلها الله للمؤمنين، وهي غنيمة خيبر ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: علامة لهم على صدق وعد الله عز وجل لهم بالمغانم الكثيرة.

وأيضًا: لتكون هذه المنة من الله عليهم بكف أيدي الناس عنهم آية وعلامة لهم على عناية الله بهم، وحفظه ونصره لهم، وأنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لهم، وإن كرهوه في الظاهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، أي: ويهديكم طريقًا عدلًا قويمًا، يدلکم عليه، ويوفقكم إليه وفيه، بسبب طاعتكم، وانقيادكم لأمر الله ورسوله.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾، أي: ووعدكم غنيمة أخرى لم تقدرُوا عليها، ولم تحصل لكم الآن.

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٧ / ٣٣٧.

﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾، أي: علمها، وقدر عليها، وأعدّها لكم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، أي: لا يعجزه شيء.

واختلف المفسرون في المراد بهذه الغنيمة الموعود بها، فمنهم من قال: فتح مكة، ومنهم من قال: فارس والروم، ومنهم من قال: كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة، وهذا أعم وأشمل.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، «لو»: حرف شرط غير جازم. ﴿لَوْلَوْ أَلَدَبَرُ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لانهم ولا هم؛ لانهم وولوكم ظهورهم؛ لإلقائه عز وجل الرعب في قلوبهم، وجبنهم وشدة خوفهم، وتأبيده عز وجل ونصره لكم.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَيَأْتِيَا﴾ يتولاهم ويحلب لهم النفع والخير، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويدفع عنهم الضر والشر؛ لخذلان الله عز وجل لهم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾، أي: هذه سنة الله وطريقته وعادته التي قد مضت من قبل بنصرة أوليائه المؤمنين، وهزيمة أعدائه الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أي: فسنته ثابتة لن تبدل ولن تتغير، بنصرة أوليائه، وهزيمة أعدائه، وإنجاء المؤمنين، وإهلاك المكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَن أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

#### سبب النزول:

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، قال: «قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مئة - ثم ذكر دعوة النبي ﷺ للبيعة، ومبايعته أول من بايع.. إلى أن قال: «فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض أتيت شجرة فكسحت

شوكها<sup>(١)</sup>، فاضطجعت في أصلها، قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم، فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قُتل ابن زُنَيْم. قال: فاخترت سيفي، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم فجعلته ضغثًا في يدي<sup>(٢)</sup>. قال: والذي كرم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه. قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات، يقال له: مكرز يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مُجَفَّف<sup>(٣)</sup> في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه<sup>(٤)</sup>»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٥)</sup>.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم مسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٦)</sup>.

وفي حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما: أن سبب نزول هذه الآية: قصة أبي جندل، قالوا: «خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق».

فذكروا الحديث، إلى أن قالوا: «وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي

(١) أي: كنست وأزلت شوكتها.

(٢) أي: حزمة في يدي.

(٣) أي: عليه تجفاف، وهو شيء من سلاح يترك على الفرس يقبه الأذى.

(٤) أي: أوله وآخره.

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، غزوة ذي قرد وغيرها ١٨٠٧.

(٦) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ ١٨٠٨، وأبو داود في الجهاد،

المن على الأسير بغير فداء ٢٦٨٨، والترمذي في التفسير، تفسير سورة الفتح ٣٢٦٤، وأحمد ٣/١٢٢.

بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم: لما أرسل: فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ: ﴿الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقرأوا أنه نبي الله، ولم يقرأوا بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت<sup>(١)</sup>.

قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾، أي: وهو سبحانه الذي كف أيدي المشركين عنكم، أي: منع أيديهم أن تمتد إليكم بقتل أو أذى، والمراد بهم: الذين هبطوا من التنعيم يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، وكانوا ثمانين رجلاً، وقيل: أقل من ذلك. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾، أي: وكف أيديكم عنهم، أي: منع أيديكم أن تمتد إليهم بقتل أو أذى؛ حيث أخذهم النبي ﷺ سلماً فاستحياهم، وعفا عنهم.

﴿بِطْنِ مَكَّةَ﴾، أي: بالحديبية أسفل مكة<sup>(٢)</sup>. و«البطن»: يطلق على أسفل المكان. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: من بعد أن أقدركم عليهم، وأمسكتم بهم. وفي هذا امتنان على المؤمنين في كف أيدي المشركين عنهم، وكف أيديهم عن المشركين، ومن ثم الصلح بينهم، مما كان فيه الخيرة والعاقبة الحسنة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، أي: بعلمكم أو بالذي تعملونه، بصيراً، أي: عالماً به مطلعاً عليه، وسيحاسبكم ويمجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَ تَفَعَلُوهُمَ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُم مَّعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلِيمٌ

(١) أخرجه البخاري في الشروط في الجهاد ٢٧٣٤، وأحمد ٢/٣٢٣ - ٣٢٩.

(٢) الحديبية موضع مشهور بين مكة وجدة في طريق جدة القديم، ويعرف اليوم بالشمسي، وهي ليست من الحرم، وتبعد عن حدود الحرم حوالي: ١.٥ كم، وتبعد عن الحرم قرابة ٢٥ كم.

لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ اللَّعِينَةَ حِمَّةَ الْجَنَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٦﴾ .

قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، «هم» يعني: مشركي قريش، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ بالله وبكل ما أوجب الله الإيمان به، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: ومنعوكم من دخول المسجد الحرام، وأداء مناسك العمرة، بغياً وعدواناً، وأنتم أهل الحرم وأحق به.

﴿وَالْهُدَى﴾، أي: وصدوا الهدى، وهي البدن التي ساقها رسول الله ﷺ؛ ليهديها في الحرم.

﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، أي: محبوساً ممنوعاً، ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾: «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من بلوغ محله، الذي يحل به نحره، وهو الحرم.

﴿وَلَوْلَا﴾، أي: ولولا وجود ﴿رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ مستضعفون مستخفون بإيمانهم بين أظهر المشركين خوفاً على أنفسهم منهم.

﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾، أي: لم تعلموا أعيانهم وأماكنهم من بين الكفار، والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: خشية أن تطؤوهم، أي: تتعرضوا لهم بقتل أو أذى؛ لعدم تمييزهم عن الكفار. ﴿فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: إثم وذنب وتبعة وغرم بغير علم منكم بذلك، وبغير قصد.

﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يدخل الله في رحمته الذي يشاء منهم، فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر، والهدى بعد الضلال.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾، أي: لو تزيل الكفار من المؤمنين، أي: تميزوا، وانفصل بعضهم عن بعض بأعيانهم وأماكنهم.

﴿لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لعذبنا الذين كفروا عذابًا مؤلماً موجعاً، بتسليطكم عليهم، وقتلهم وإهلاكهم. فمنع الله العذاب عنهم، وأخر عقوبتهم؛ لوجود بعض المؤمنين والمؤمنات بين ظهرانيهم، وليدخل عز وجل في رحمته من يشاء منهم، فيمن عليهم بالهداية والإيمان.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾، أي: الأنفة القبيحة السيئة.

﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الباطلة المقيتة، وذلك بصددهم الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام في تلك السنة؛ لثلاثي يقال: إن محمداً دخلها هو وأصحابه قهراً عن قريش، وامتناعهم من كتابة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ومن كتابة «محمد رسول الله».

كما جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما: فقال النبي ﷺ: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»؛ كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: هذا ما قاضى عليه رسول الله ﷺ». قال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله. فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبدالله»<sup>(١)</sup>.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: أنزل عليهم السكينة في قلوبهم، وهي الطمأنينة والثبات والأناة والتعقل، ودفع عنهم العجلة والانتقام.

﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ بألسنتهم، وهي قول: لا إله إلا الله، وامثال ما أمر الله به ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله بجوارحهم، فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله ورسوله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمة الله، مع ما فيها من غضاضة عليهم.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾، أي: وكان المؤمنون أحق وأجدر بكلمة التقوى ولزومها، ﴿وَأَهْلَهَا﴾، أي: وكانوا أهلها خاصة دون غيرهم.

(١) سبق تخرجه.

فبسبب إنزاله عز وجل سكينته عليهم، وإلزامهم كلمة التقوى، وكونهم أحق بها وأهلها، اهتموا بها إلى كل خير، وبسبب جعل الذين كفروا في قلوبهم حمية الجاهلية، صدوا المسلمين عن المسجد الحرام، ولم يقرؤا بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، ولا بأنه ﷺ رسول الله، فقادتهم إلى كل شر.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

ومن واسع علمه عز وجل علمه بأن المؤمنين أحق وأولى وأجدر بكلمة التقوى من غيرهم، وأنهم هم أهلها دون من سواهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾:

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو في المدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك، على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء». «

كما جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: قال عمر: «أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرت أنك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا. قال: «فإنك أتية ومطوف به». فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر... أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنت أتية العام؟ قلت: لا. قال: فإنك أتية وتطوف به»<sup>(٢)</sup>.

قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: صدق الله رسوله الرؤيا التي أراها إيها في المنام من دخوله

(١) في «تفسيره» ٣٣٧/٧.

(٢) سبق تخريجه.

البيت والطواف به، ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: بالحق الثابت الواقع، أي: لا بد من وقوعها وصدقها.

﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم.

﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء.

﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، أي: حال كونكم آمنين في حال دخولكم.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، أي: حال كون بعضكم محلّقين رؤوسهم، وبعضكم مقصرين لها، وقدم التحليق؛ لأنه أفضل وأولى من التقصير.

قال ﷺ: «اللهم اغفر للمحلّقين». قالوا: وللمقصرين. قال: «اللهم اغفر

للمحلّقين». قالوا: وللمقصرين. قال: «اللهم اغفر للمحلّقين». قالوا: وللمقصرين. قال: «وللمقصرين»<sup>(١)</sup>.

وفي ذكر التحليق والتقصير فقط دون بقية مناسك العمرة إشارة إلى تمكنهم من إتمام عمرتهم؛ لأن الحلق أو التقصير آخر أعمال العمرة.

﴿لَا تَخَافُوتُمْ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير «مقصرين»، وهي مؤكدة في

المعنى للحال «آمنين».

فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال أدائهم عمرتهم، وإتمامهم لها، وحال مكثهم في الحرم، وكان هذا في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أقام بها ثلاثاً أمروه أن يخرج، فخرج»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في الحج، الحلق والتقصير ١٧٢٨، ومسلم في الحج، تفضيل الحلق على التقصير، وجواز

التقصير ١٣٠٢، وابن ماجه في المناسك ٣٠٤٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح ٢٧٠١.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خرج إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون، فلما كان قريباً من مر الظهران، بعث محمد بن مسلمة بالخيول والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رُعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه نكث العهد الذي بينه وبينهم، من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم<sup>(٢)</sup>، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج<sup>(٣)</sup>، وسار بالسيوف مغمدة في قُرُوبها؛ كما شارطهم عليه، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج». فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفر من مكة؛ لثلاث ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه غيظاً وحنقاً، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى<sup>(٤)</sup>، وهو راكب ناقته القصواء، التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبدالله بن رواحة أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها».

﴿فَعَلِمَ﴾، أي: فعلم الله ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾، «ما»: موصولة، أي: ما لم تعلموه من الحكمة والخيرة والمصلحة والمنافع العظيمة.

﴿فَجَعَلَ مِنْ ذَلِكَ﴾، أي: من دون ذلك الدخول، أي: قبل دخولكم الذي وعدكم الله به فيما أراه لنيبه ﷺ.

﴿فَتَحَا قَرِيْبًا﴾ وهو: صلح الحديبية الذي كان بينكم وبين أعدائكم المشركين، ومن ثم فتح خيبر.

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٣٧-٣٣٨.

(٢) علامات حدود الحرم.

(٣) يأجج على ثمانية أميال من مكة.

(٤) موضع عند مكة.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾، أي: بالبيان والعلم النافع.

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وهو العمل الصالح، فمن وفق للأخذ بهذين الأمرين فهو موفق حقًا؛ لأنهما رأس مال المؤمن في هذه الحياة.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ اللام: للتعليل، أي: ليعلي ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق على الأديان كلها.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق رسالته ﷺ، وأنه جاء بالهدى ودين الحق. قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سَاجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍ أَخْرَجَ سَطْرَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾﴾:

هذه الآية مع قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [الآية: ١٥٤]، هما أجمع آيتين لحروف الهجاء.

قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين.

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، أي: أعزة أقوياء على الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿أَعَزَّوْا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُوا عَلَىٰ جِهَدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُوا عَلَىٰ الَّذِينَ ءَامَنُوا فَذَلِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: متراحمون فيما بينهم، متحابون متعاطفون.

كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الناس والبهائم ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة، تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٦؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه<sup>(١)</sup>.

﴿تَرْتَهُمُ﴾ الخطاب لغير معين، أي: تشاهدهم.

﴿رُكْعًا سَجْدًا﴾، أي: حال كونهم ركعاً سجدًا، أي: تراهم في أكثر الأحوال يصلون ويتعبدون.

وذكر حالة الركوع والسجود؛ لأنها من أعظم أركان الصلاة؛ ففي الركوع تعظيم الرب، وفي السجود القرب منه.

وذكر الصلاة؛ لأنها أعظم العبادات، وسبب للقيام بما دونها من العبادات.

﴿يَتَّبِعُونَ﴾، أي: مخلصون لله، يطلبون ويريدون في شدتهم على الكافرين، ورحمتهم فيما بينهم، وكثرة صلاتهم وعبادتهم.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: ثواباً من الله وأجرًا في الدنيا بالحياة الطيبة وسعة الرزق، وفي الآخرة الجنة ونعيمها.

﴿وَرِضْوَانًا﴾، أي: رضاه عز وجل، وهو أكبر من الأول؛ كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فغايتهم ومقصودهم: بلوغ رضا ربهم وفضله وثوابه.

﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾، أي: علاماتهم ظاهرة في وجوههم حسناً وضياءً.

﴿مِنَ أُنْفِ السُّجُودِ﴾ على جباههم، والخشوع والخضوع لربهم.

﴿ذَلِكَ مِثْلَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، أي: ذلك المذكور وصفهم الذي وصفهم الله به في التوراة، فوصفوا بهذا الوصف في القرآن؛ كما وُصفوا به قبل ذلك في التوراة.

﴿وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾، أي: ووصفهم الذي وصفوا به في الإنجيل.

﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ قرأ ابن كثير وابن ذكوان بفتح الطاء: «شَطْأَهُ»، وقرأ الباقون بإسكانها: ﴿شَطْأَهُ﴾، أي: كمثل زرع أخرج فراخه وفروعه.

(١) أخرجه البخاري في المظالم، نصر المظلوم ٢٤٤٦، ومسلم في الباب السابق ٢٥٨٥، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٨؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

﴿فَتَأْزِرُهُ﴾، أي: فشدته وقواه، ﴿فَأَسْتَعْلَظُ﴾، أي: غلظ وقوي، ﴿فَأَسْتَوِي عَلَى سُوقِهِ﴾، أي: اعتدل واستقام على سيقانه وأصوله.

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ من كثرة فراخه، وشدته وقوته واستوائه، واكتماله وحسنه وجودته. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ اللام: للتعليل، أي: جعل الله عز وجل أصحاب النبي ﷺ بهذه المثابة والأوصاف العظيمة كالشطاء مع الزرع؛ آمنوا به، وعزروه، وأزروه، ونصروه، ووقروه، وعظموه؛ ليغتاظ بهم الكفار حين يرون اجتماعهم وشدتهم وقوتهم على أعدائهم الكفار، وتراحمهم فيما بينهم.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾، «من»: لبيان الجنس؛ لأنهم كلهم مؤمنون.

﴿مَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم، بسترها والتجاوز عنها.

﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، أي: وثوابًا جزيلاً، ورزقاً كريماً واسعاً، لا يناله أحد سواهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»<sup>(١)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

- ١- وعد الله تعالى وبشارته للمؤمنين بما أعد لهم من المغانم، وامتنانه عليهم بتعجيل غنيمة خبير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾.
- ٢- فضل الله تعالى على هذه الأمة بإحلال الغنائم لهم خاصة من بين سائر الأمم.
- ٣- امتنانه عز وجل على المؤمنين بكف أيدي المشركين والكفار عن قتالهم وأذاهم بهذا الفتح المبين، والصلح العظيم، وبنعمة السلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾.
- ٤- أن في تعجيل غنيمة خبير للمؤمنين علامة على صدق وعده عز وجل لهم

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ٢٥٤٠؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالمغانم الكثيرة، وفي كفه أيدي المشركين عنهم علامة على عنايته تعالى بهم، وحفظه ونصره لهم، وعلى علمه بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لهم وإن كرهوه في الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥- أن الله عز وجل أراد بهذا الفتح والصلح العظيم: هداية المؤمنين صراطه المستقيم؛ وتوفيقهم بسبب طاعتهم وانقيادهم لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

٦- وعد الله تعالى لهم بغنيمة أخرى بعد خبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.

٧- تشجيع المؤمنين على الجهاد في سبيله؛ بوعد عزم وجل وبشارته لهم بما لهم من المغانم الكثيرة، وأنه لا بأس أن يستبشر المؤمنون بها ما دام أن قتالهم خالص لله تعالى، لإعلاء كلمته.

٨- علمه عز وجل التام بالغيب، وتقديره كل شيء عنده؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾، أي: علمها وقدرها وكتبها لكم.

٩- قدرته تعالى التامة على كل شيء، فلا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

١٠- تقوية قلوب المؤمنين على القتال ببيان جبن الكفار، وأنهم لا يصمدون أمامهم، بل يولون الأدبار، وليس لهم ولي ولا نصير؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

١١- أن العامل المعنوي بتقوية قلوب المقاتلين، ببيان ضعف عدوهم ونحو ذلك، من أعظم أسباب إقدامهم ونصرهم.

١٢- أن من لم يتوله الله وينصره، فليس له من دون الله ولي ولا نصير.

١٣- أن سنة الله تعالى وطريقته في نصر أوليائه وهزيمة أعدائه ثابتة لا تتبدل ولا تتغير؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن يَجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

١٤- امتنانه عز وجل على المؤمنين بكفه أيدي المشركين الذين أرادوا غرتهم في

الحديبية، وتمكينه ﷺ من أخذهم سلمًا وعفوه عنهم، فكف أيدي كل من الفريقين عن الآخر؛ ليلم ما أراد الله من أمر الصلح والفتح المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

١٥- علم الله الواسع، واطلاعه التام على أعمال العباد، ومحاسبته ومجازاته إياهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

١٦- أن الله عز وجل أخر تعذيب الكافرين وقتلهم على أيدي المؤمنين لحكمتين عظيمتين؛ الأولى: وجود رجال ونساء بين ظهرانيهم، يُخفون إيمانهم، لم يعلمهم المؤمنون؛ خشية أن ينالوهم بقتل أو أذى، فيكون بذلك معرفة على المؤمنين.

والحكمة الثانية: أن الله أخر عقوبتهم؛ ليدخل في رحمته من يشاء منهم، فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُم فَتَضَيَّبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلِيمٌ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٧- حرمة قتل الأنفس المعصومة بالإيمان، أو غير ذلك، وأن قتلها بغير حق معرفة وإثم وذنب وغرم، ووجوب التحرز في القتال من قتل الأنفس المعصومة التي لا تقاتل، وهي نفس المؤمن والمعاهد والذمي والمستأمن.

١٨- الوعيد والتهديد للكافرين، باستحقاقهم العذاب الأليم.

١٩- فضل الله تعالى، وسعة رحمته، وعظيم عفوه؛ حيث أخر عقوبة الكافرين؛ ليتوب على من شاء منهم.

٢٠- إثبات صفة المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾،

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

٢١- أنفة المشركين والكفار المقيتة، وحميتهم حمية الجاهلية الباطلة، في صدهم الرسول ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام وهم أهلها، وامتناعهم من كتابة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ومن كتابة: «محمد رسول الله»؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

٢٢- منة الله تعالى على المؤمنين في تثبيت قلوبهم، وإنزال الطمأنينة عليهم، وإلزامهم كلمة التقوى، وطاعة الله ورسوله، والانقياد لأمر الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾.

٢٣- أن الرسول ﷺ والمؤمنين أحق وأجدر بكلمة التقوى، وطاعة الله عز وجل، وهم أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

٢٤- إثبات علم الله تعالى الواسع المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

٢٥- تحقيق الله تعالى وعده لرسوله ﷺ الرؤيا التي أراه إياها في دخوله وأصحابه المسجد الحرام، وإتمامهم مناسك العمرة آمنين غير خائفين؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾.

٢٦- أن رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حق وصدق؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «رؤيا الأنبياء وحي»<sup>(١)</sup>.

٢٧- مشروعية الحلق أو التقصير للمعتمر، وأنها من أحكام العمرة.

٢٨- أهمية نعمة الأمن؛ لأن بها يستطيع الناس القيام بأمور دينهم وديناهم؛ ولهذا امتن الله به على الناس بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤].

٢٩- حكمة الله تعالى التامة، وعلمه - بعلمه الواسع - ما لم يعلمه المؤمنون من المصالح والمنافع، بجعله من قبل دخولهم المسجد الحرام وأدائهم العمرة فتحاً قريباً، وهو صلح الحديبية وفتح خيبر؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

٣٠- أن على المؤمن أن يعلم ويتيقن أن الخيرة فيما يختاره الله له، فيطمئن ويُسَلِّم.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٢٢١.

لأمر الله، ويرضى به، ولو لم يعلم وجه الحكمة فيه.

٣١- إثبات تمام قدرته عز وجل، وعظيم نعمته بإرساله رسوله بالهدى ودين الحق، أي: بالبيان والعلم النافع والعمل الصالح؛ ليظهره على الأديان كلها؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

٣٢- أن دين الإسلام هو أعلى الأديان وأكملها وأتمها؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

٣٣- كفى به عز وجل شهيداً على صدق رسوله ﷺ، وصحة ما جاء به من الهدى والدين الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

٣٤- ثناء الله عز وجل على رسوله محمد ﷺ والذين آمنوا معه بقوتهم في الحق، وشدتهم على الكفار، وغلظتهم عليهم، وتراحيمهم وتعاطفهم فيما بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ حَمَّذُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٣٥- مداومتهم على الصلاة والعبادة، وإخلاصهم لله تعالى؛ طلباً لفضله تعالى ومرضاته؛ لقوله تعالى: ﴿تَرَبَّؤُهمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

٣٦- إثبات صفة الرضا لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانًا﴾.

٣٧- ظهور آثار وعلامات السجود والعبادة والخضوع والخشوع نوراً وضياءً وحسناً في وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

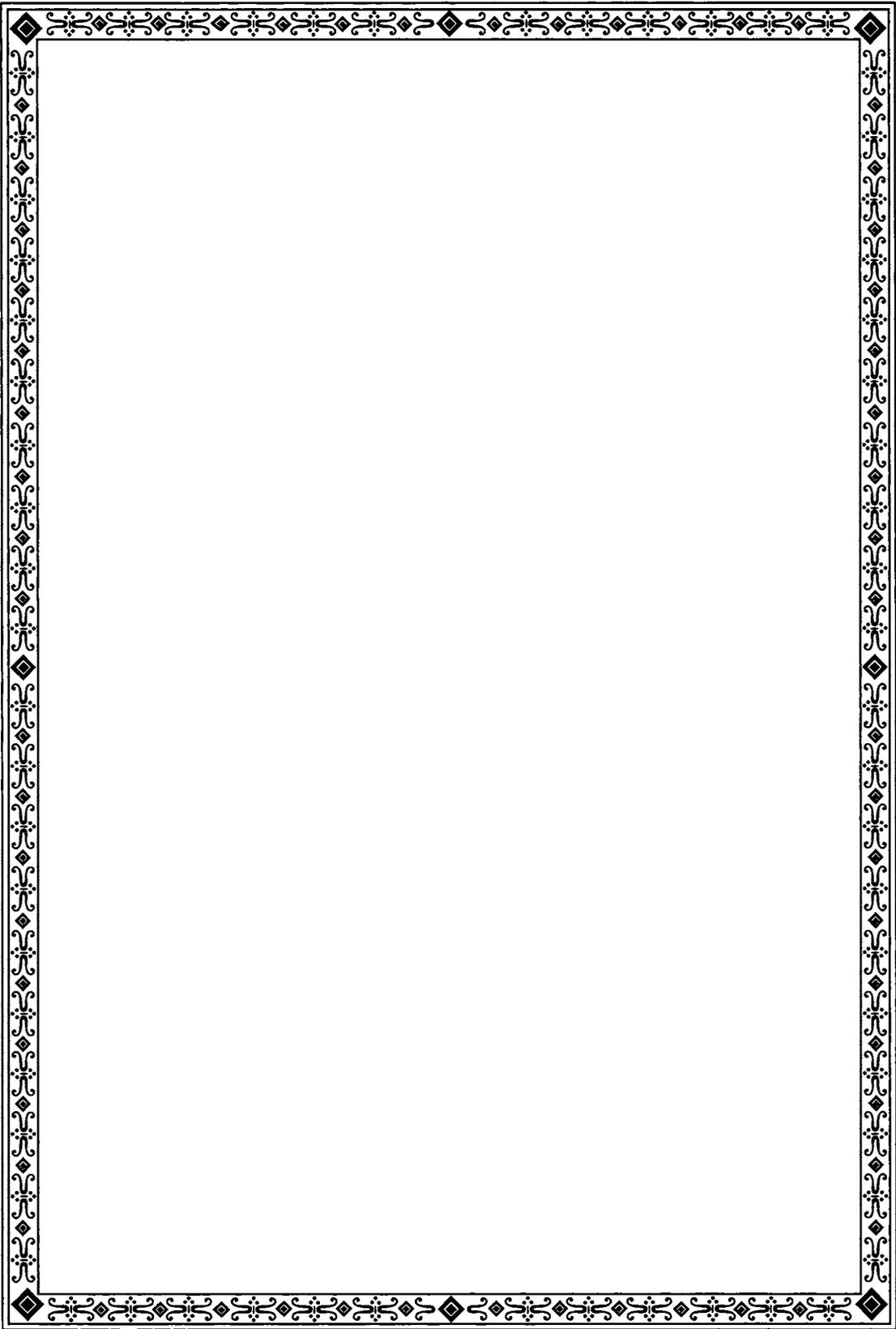
٣٨- أن ما وصفهم الله به في هذه الآيات هو مثلهم في التوراة، أعظم كتب الله بعد القرآن؛ حيث وصفهم الله فيها وامتدحهم بهذا الوصف العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّوْرَةِ﴾.

٣٩- أن الله مدحهم ووصفهم في الإنجيل، فشبهم بتعاضدهم وتعاونهم، وشدتهم وغلظتهم على الكفار، واكتمال قوتهم بزرع أخرج فراخه، فاشتد قوي بها، وغلظ واستوى على أصوله وسيقانه، يعجب الزراع بكثرة فراخه وشدته وقوته وغلظته، واستوائه واستقامته على سيقانه وأصوله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَآزَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزَّارِعَ﴾.

- ٤٠- إثبات أن من كُتِبَ اللهُ عز وجل: «التوراة»، و«الإنجيل».
- ٤١- أن الله عز وجل جعل الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بهذه المثابة، ووصفهم بهذين المثليين والوصفين العظيمين؛ لإغاطة الكفار بهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعِظَتْ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾.
- ومن هذا يؤخذ: كفر الرافضة الذين يبغضون الصحابة ويغتاضون منهم، ويسبونهم ويكفرون. قطع الله دابرهم، وأراح الإسلام والمسلمين من شرهم.
- ٤٢- وعده عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واسعة منه، وأجرًا عظيمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وفي هذا ترغيب بالاعتداء بهم.
- ٤٣- لا بد من الجمع بين الإيمان والعمل، ولا بد من كون العمل صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.
- ٤٤- تكفله عز وجل بثوابهم؛ لأنه سماه: أجرًا مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.
- ٤٥- جمعه لهم بين زوال المهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالأجر العظيم، وبهذا تمام النعيم.

\* \* \*

# تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ



## المقدمة

## أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الحجرات»؛ لذكر الحجرات فيها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

## ب- مكان نزولها:

مدنية.

## ج- موضوعاتها:

١- نهى المؤمنين عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وأمرهم بتقوى الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَانْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٢- نهى المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي والجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض توقيراً واحتراماً له ﷺ، والثناء على الذين يغضون أصواتهم عنده ﷺ، وتسفيه عقول الذين ينادونه من وراء الحجرات، وبيان أنهم لو صبروا لكان خيراً لهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٣- بيان وجوب تبين خبر الفاسق والتثبت في صحة الأخبار: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِي فَتَيَيْنَا أَنْ تُصِيبُوا قَوْلًا يَجْهَلُونَ فَنُصِِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَتْمِينِ﴾.

٤- بيان فضل الله على المؤمنين بوجود الرسول فيهم وما جاء به من الحنيفية السمحة، ورفع الحرج عنهم، وتحبيب الإيمان إليهم وتزيينه في قلوبهم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليهم: ﴿فَضَلًّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ؕ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٥- بيان وجوب الإصلاح بين طوائف المسلمين، ومقاتلة الفئة الباغية: ﴿وَإِنْ طَافَيْنَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْسَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٦- نهى المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ

قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَابِ بِغَدَبٍ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْفَاسِقُونَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ ❀.

٧- أمر المؤمنين باجتنباب كثير من الظن؛ لأن بعض الظن إثم، ونهيهم عن التجسس والغيبة والتفكير منها وأمرهم بتقوى الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَEْعُضُكُم بَEْعَضًا ءَأُحِبُّ ءَأَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ ءَأَخِيهِ مِيثًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ❀.

٨- إخبار الناس أنه- عز وجل- خلقهم من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً ليتعارفوا، لا ليتفاخروا، وبيان أن أكرمهم على الله أتقاهم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ❀.

٩- ذكر دعوى الأعراب الإيـان ولما يدخل الإيـان في قلوبهم، والرد عليهم: ❀ ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَعْلَمْتُوكَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ءَأَللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ءَأَلَّهُ بِصِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ❀.

\* \* \*

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، إذ أن المنادى في الأصل مفعول به، فمعنى (يا فلان): أَدْعُوكَ، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح صفة لـ «أي» أو بدل، و«آمنوا» صلة الموصول. والحكمة من نداء المؤمنين بوصف الإيِّان: الحث والإغراء على الاتصاف بهذا الوصف، وتكريم المؤمنين وتشريفهم بهذا الوصف- كما يقال للجواد: يا جواد، وللشجاع: يا شجاع. ويبان أن امثال ما بعده إن كان أمراً، والانتهاه عنه إن كان نهياً، وتصديقه إن كان خبراً كل ذلك من مقتضيات الإيِّان، وأن عدم ذلك يعد نقصاً في الإيِّان.

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعاها سمعك فهو خير يأمر به، أو شر ينهى عنه» (١).

والقرآن كله دائر بين أمر ونهي، أو خبر مقتضاه الأمر والنهي كأخبار السابقين وأخبار القيامة فمقتضى ذلك سلوك طريق الأنبياء وأتباعهم، وما فيه النجاة من أهوال يوم القيامة، وهذا معناه الأمر، كما أن من مقتضى هذه الأخبار التحذير من سلوك طرق المكذبين وأعداء الرسل، وما فيه الهلاك في الدنيا والآخرة، وهذا معناه النهي.

والإيِّان في اللغة: التصديق، كما قال تعالى ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] وقال إخوة يوسف لأبيهم فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧] أي: وما أنت بمصدق لنا.

والإيِّان في الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح.

بهذا قال أكثر الأئمة، بل حكى الإجماع عليه عدد من الأئمة منهم الشافعي وأحمد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) ٣/٩٠٢ - الأثر ٩٠٢٧.

وأبو عبيد - رحمهم الله - : فالإيهان: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية (١).

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ﴿١﴾ قرأ يعقوب: (لا تَقَدِّمُوا) بفتح التاء والقاف والذال، وقرأ الباقر: (لا تُقَدِّمُوا) بضم التاء وكسر الذال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة» (٢).

أي: لا تتعجلوا ولا تتسرعوا في الأشياء لا بقول ولا بفعل قبل أن يقول الله ورسوله، فلا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يحكم، ولا تفعلوا حتى يفعل رسول الله، ولا تقطعوا أمراً حتى يحكم الله فيه ورسوله.

كما قال ﷺ: «لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين» (٣).

وقال ﷺ: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ» (٤).

قال ابن القيم (٥): «والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل».

وفي حديث معاذ رضي الله عنه لما بعثه النبي ﷺ قال له: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي: فضرب في صدره. وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله» (٦).

فأخر معاذ رضي الله عنه اجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة.

(١) انظر (تفسير ابن كثير) ١/٦٢-٦٣.

(٢) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ١١٦/٢٦.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم - لا يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين ١٩١٤، ومسلم في الصيام - لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين ١٠٨٢، وأبو داود في الصوم ٢٣٣٥، والنسائي في الصيام ٢١٧٢، والترمذي في الصوم ٦٨٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٥٠ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الصوم - إذا رأيتم الهلال فصوموا - معلقاً، وأخرجه موصولاً أبو داود في الصوم ٢٣٣٤، والنسائي في الصيام ٢١٨٨، والترمذي في الصوم ٦٨٦ - من حديث عمار بن ياسر - رضي الله عنه.

(٥) انظر (بدائع التفسير) ٤/١٧٨.

(٦) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٥٩٢، والترمذي في الأحكام ١٣٢٧.

وقال ﷺ: «إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال: رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً: فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» (١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرماً ما سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته» (٢).

فكل من خالف أمر الله ورسوله ﷺ من أهل الكفر والنفاق، وكذا أهل البدع والمعاصي فهو ممن تقدم بين يدي الله ورسوله وكل منهم بحسب عظم مخالفته، قد يخرج بذلك من الملة، وقد لا يخرج.

وقد عطف قوله (ورسوله) على اسم الله بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن هذا من باب التشريع والطاعة، فطاعة الرسول ﷺ طاعة لله - عز وجل -، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بخلاف باب المشيئة فلا يجوز العطف فيه بالواو في هذا المقام؛ لأن مشيئة الرسول ﷺ ومشيئة جميع الخلق تابعة لمشيئة الله - عز وجل - ولهذا قال ﷺ للرجل الذي قال له: ما شاء وشئت: «أجعلني لله نداً ما شاء الله وحده» (٣).

ويؤخذ من الآية تحريم اتباع الأهواء وآراء الرجال والقوانين الوضعية ووجوب اتباع الكتاب والسنة، والرد على جميع طوائف الضلال.

قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» (٤).

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ١، ٢ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦١٠.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة - لزوم السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم - ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب

كما يؤخذ من الآية مشروعية الأدب مع الوالد والعالم والأمير والكبير وغيرهم من ذوي المكانة، وعدم التقدم بين يديهم، وفي الحديث: «كبر كبر» (١).

﴿وَأَنْفُوا اللَّهَ﴾ بفعل أو امره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾، أي سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون.

أي: ذو السمع الذي يسمع الدعاء ويحييه ويسمع جميع الأقوال والأصوات ما خفي منها وما ظهر، كما قالت عائشة - رضي الله عنها: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾» (٢).

وإثبات السمع لله عز وجل يتضمن وعداً ووعداً، وعداً لمن أحسن كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُ إِنِّي مَعَكُمْ آسَمُ وَأَرْى﴾ [طه: ٤٦]، ففي هذه الآية وعد بالحفظ، وكما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ففي هذه الآية وعد بالإجابة، أي: يسمع الدعاء ويحييه. ومثل هذا قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» (٣) أي: سمع واستجاب. ويتضمن وعداً لمن أساء كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الذي وسع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، والعلم أشمل وأعم من السمع، لأن السمع يتعلق بالمسموعات، أما

البدع ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة - اتباع سنة الخلفاء الراشدين ٤٢ - من حديث العرياض بن سارية - رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(١) قاله ﷺ لمحيصة بن سهل لما ذهب يتكلم قبل أخيه حويصة وكان حويصة أكبر منه، أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٢، ومسلم في القسامة ١٦٦٩، وأبو داود في الليات ٤٥٢٠، والنسائي في القسامة ٤٧١٤، والترمذي في الليات ١٤٢٢، وابن ماجه في الليات ٢٦٧٧ - من حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٦٨٩، ومسلم في الصلاة ٤١١، وأبو داود في الصلاة ٦٠١، والنسائي في الإمامة ٧٩٤، والترمذي في الصلاة ٣٦١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٧٦ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

العلم فيتعلق بكل شيء؛ لأن الله عز وجل أحاط بكل شيء علماً ومن ذلك أيضاً المسموعات فهو يعلمها. قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء، كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. ولهذا لما سئل موسى عليه السلام عن القرون الأولى ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]، فلا يعترى علمه - عز وجل - جهل سابق، ولا نسيان لاحق. وفي إثبات سعة علمه - عز وجل - وعد لمن أطاع الله ورسوله واتقى، ووعد لمن خالف وعصى.

والعلم: إدراك الأشياء على ما هي عليه، إدراكاً جازماً. والناس في ذلك أقسام ثلاثة: عالم، وجاهل جهلاً بسيطاً، وجاهل جهلاً مركباً، فمثلاً من قال: عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، فهذا عالم - يعني بالنسبة لهذه المسألة فهذا يدري ويدري أنه يدري.

ومن قال: لا أدري، فهذا جاهل جهلاً بسيطاً، لا يدري، ويدري أنه لا يدري. ومن قال: بل عددها مائة وعشرون سورة، فهذا جاهل جهلاً مركباً، لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

وما أكثر هذا الصنف

**الفوائد والأحكام:**

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَّيَبًا﴾.  
٢- تشریف المؤمنين وتكريمهم بندايمهم بوصف الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَّيَبًا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٣- الترغيب بالاتصاف بهذا الوصف.

٤- أن امثال ما ذكر بعد هذا النداء يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امثاله يعد نقصاً في الإيمان.

٥- تحريم مخالفة أمر الله ورسوله بقول أو بفعل، ووجوب طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

٦- جواز عطف اسم الرسول ﷺ أو وصفه على اسم الله بالواو التي تقتضي

التشريك في باب الطاعة، بخلاف باب المشيئة.

٧- وجوب تقوى الله - بفعل أو امره واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.  
 ٨- إثبات أنه- عز وجل- ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء وفي ذلك وعد لمن لم يتقدم بين يدي الله ورسوله واتقى الله، ووعد لمن خالف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٩- في اقتران وصفه عز وجل بكمال السمع، وكمال العلم، كمال إلى كمال.  
 ١٠- في تقديم السمع على العلم إشارة إلى أن السمع هو أحد وسائل العلم.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْضِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

### سبب النزول:

عن عبد الله بن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره: «أنه قدم على النبي ﷺ ركب من بنى تميم، فقال أبو بكر: يا رسول الله أمر عليهم الأقرع بن حابس، وقال عمر: أمر عليهم القعقاع بن معبد، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، وارتفعت أصواتها عند النبي ﷺ، فأنزل الله قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾». قال ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية - حتى يستفهمه» (١).

قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: لا تجعلوا أصواتكم عند مخاطبتكم للنبي ﷺ وفي مجلسه أعلى وأجهر من صوت النبي ﷺ، بل لتكن أصواتكم أغض من صوته ﷺ. ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، أي: غضوا أصواتكم عند مخاطبته وخاطبهه بسكينة ووقار؛ تعظيماً وتوقيراً واحتراماً له ﷺ.

وهكذا يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ؛ لأنه محترم حياً وميتاً صلوات الله وسلامه عليه، كما يكره رفع الصوت في مسجده ﷺ، وفي سائر المساجد.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم، أي: إنما نهيناكم عن رفع أصواتكم فوق صوت النبي، وعن الجهر له بالقول، كما يجهر بعضكم لبعض لئلا تحبط أعمالكم أو خشية أن تحبط أعمالكم، أي: يبطل ثوابها فحبوط العمل معناه: بطلان ثوابه، كما قال

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٥، وفي الاعتصام ٦٨٧٢، النسائي في آداب القضاة

عز وجل ﴿لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] أي: بطل.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تشعرون بذلك، ولا تعلمون عظم الذنب في رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ وفي الجهر له بالقول، وأنه يحبط العمل.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم» (١).

وهكذا ينبغي عدم رفع الصوت، وعدم الجهر بالقول مع الوالد والعالم والكبير والأمير ونحوهم من ذوي المكانة في الأمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾ بعد ما نهى الله عز وجل المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ وعن الجهر له بالقول؛ أثنى على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، ترغيباً في ذلك وندباً إليه وحثاً عليه.

قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله تعظيماً له وتوقيراً واحتراماً وتقديراً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾ أي: أولئك الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها وجعلها محلاً للنقوى، فغضوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وبخاصة بعد نزول هذه الآية، منهم أبو بكر وعمر وثابت بن قيس رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المؤمنين المتقين بعدهم.

رُوي أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار» (٢).

(١) أخرجه البخاري في الرقاق - حفظ اللسان ٦٤٧٨.

(٢) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٣٤٦/٧ من حديث حصين بن عمر، عن مخارق عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق قال ابن كثير: «حصين بن عمر - هذا ضعيف - لكن روينا من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة بنحو ذلك».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ - فأخبره أنه قال: كذا وكذا، فقال: اذهب فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» (١).

وفي رواية: «فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفته، فقال: بئسما تُعودون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل» (٢).

وفي رواية فقال له النبي ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ» (٣).

ولهذا يشهد لثابت بن قيس - رضي الله عنه بالجنة لأن الرسول ﷺ شهد له بها. قال مجاهد: «كُتِبَ إلى عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية، ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمَّحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾» (٤).

والتكاليف الشرعية كلها امتحان واختبار للقلوب قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة قال ﷺ: «يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه - عز وجل -

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٣، وفي تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٦، ومسلم في الإيمان ١١٩، وأحمد

١٣٧/٣، والطبري في (جامع البيان) ٧٥/٢٦.

(٢) جاءت هذه الزيادة عند أحمد، وبعضها عند مسلم.

(٣) جاءت هذه الزيادة عند الطبري.

(٤) أخرجه أحمد في كتاب الزهد - فيما ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٣٤٨/٧.

حتى يضع عليه كنفه<sup>(١)</sup> فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟، فيقول: أي رب، فيقول الله عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم<sup>(٢)</sup>».

ومنه سمي «المغفر» وهو: البيضة، التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: وثواب عظيم، وقدم المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية والتطهير قبل التحلية والتزيين، وسمي ثوابهم أجراً لأن الله - عز وجل - تكفل به وأوجهه على نفسه، كما أوجب أجرة الأجير على المستأجر، مع أن الله عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه.

وإنما أوجب ذلك على نفسه، تفضلاً منه وكرمًا، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَهَا الَّذِينَ يُنْفِقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله (عظيم) أي: عظيم في كيفيته، وفي كميته، وفي غير ذلك، وإذا كان العظيم سبحانه وصف هذا الأجر بأنه عظيم، فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فاقروا وإن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»<sup>(٣)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا﴾.
- ٢- تشریف المؤمنين وتكريمهم بندايمهم بوصف الإيمان والترغيب بالانصاف بهذا الوصف، وأن امثال ما ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان، وعدم امثاله يعد نقصاً في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

(١) أي: ستره ورحمته: انظر (النهاية) مادة (كنف).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن

- ٣- نهي المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي والجمهور له بالقول، ووجوب غض الصوت عنده، والتأدب معه ﷺ واحترامه في حياته وبعد مماته؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.
- ٤- جواز رفع الناس أصواتهم فيما بينهم وجمهور بعضهم لبعض ما لم يكن في ذلك أذى، أو ما يستنكر قال لقمان لابنه فيما ذكر الله عنه ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَيْرِ﴾ [لقمان: ١٩].
- ٥- أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجمهور له بالقول سبب لحبوط العمل وبطلانه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾.
- ٦- أن عمل الإنسان قد يحبط من حيث لا يشعر مما يوجب الحذر من محبطات الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.
- ٧- ينبغي عدم رفع الصوت والجمهور بالقول مع ذوي المكانة في الأمة كالوالد والعالم والكبير والأمير، ونحوهم.
- ٨- تكريم الله - عز وجل - وتشريفه لنبيه ﷺ ودفاعه عنه.
- ٩- ثناء الله - عز وجل - على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ بأن الله أخلص قلوبهم للتقوى وفي مقدمتهم الصحابة - رضوان الله عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾.
- ١٠- عظم ما أعد الله لمن يغضون أصواتهم عنده ﷺ وخلصت قلوبهم للتقوى من المغفرة الواسعة، والأجر العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
- ١١- أن التخلية تكون قبل التحلية.
- ١٢- تأكيد تكفله - عز وجل - بهذا الجزاء، لهذا سماه أجراً، وأوجه على نفسه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾﴾.

لما نهى المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، أتبع ذلك بدم الذين ينادونه من وراء الحجرات؛ لما في ذلك من رفع الصوت عنده، وعدم مراعاة ظروفه وأحواله.

### سبب النزول:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه: أنه نادى رسول الله ﷺ - فقال: يا محمد، يا محمد، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال النبي ﷺ: «ذاك هو الله». (١)

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد إن حمدي زين، وإن ذمي شين قال النبي ﷺ: «ذاك هو الله عز وجل» (٢).

وعن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب، فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكاً نعش بجناحه، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا. فجاؤوا إلى حجرته، فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: فأخذ رسول الله ﷺ - بأذني فمدها فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد» (٣).

قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ قرأ أبو جعفر «الحجرات» بفتح الجيم، وقرأ الباقر بضمها، أي: إن الذين ينادونك ويدعونك من خلف حجرات أزواجك

(١) أخرجه أحمد ٣/٤٨٨، ٦/٣٩٣ - ٣٩٤.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٦٧، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/٧٧ وقال الترمذي (حديث حسن غريب).

(٣) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/٧٧، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/٣٣٠٢ - الأثر ١٨٦٠٧، وذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/٣٤٩.

بقولهم: يا محمد، يا محمد، أي: اخرج إلينا.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أكثرهم لم ينتفعوا بعقولهم، وذلك بأن تحملهم وتدلهم على الأدب مع رسول الله ﷺ، الذي يجب عليهم احترامه وتوقيره والتأدب معه ﷺ، لما له من المكانة العظيمة عند الله.

ولما لم ينتفعوا بعقولهم نفى عنهم العقل، فكأنهم لا عقول لهم، مع أنهم عندهم العقل الذي هو مناط التكليف قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة النائم حتى يستيقظ والصغير حتى يبلغ والمجنون حتى يفيق»<sup>(١)</sup>.

فالمجنون والمغمي عليه لا تكليف عليهم؛ لأن الله إذا أخذ ما وهب أسقط ما وجب. فالعقل المنفي عن أكثرهم في الآية هو العقل الذي هو مناط المدح والذم كما قال عز وجل ﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فالعقل عقلا ن: عقل هو مناط التكليف، ففاقده لا يكلف، وهو المثبت للكفار والعصاة وغيرهم، ولولاه ما كلفوا.

وعقل هو مناط المدح والذم، وهو الذي يثبته الله عز وجل للمؤمنين كما في قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] لأنهم انتفعوا بعقولهم، فعرفوا بها الحق واتبعوه، ففازوا الفوز العظيم.

وينفيه عن الكافرين والمجرمين، لأنهم لم ينتفعوا بعقولهم فيما يقربهم إلى الله عز وجل ففاتهم النصيب الأوفر، وخسروا الخسران الميين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الواو: عاطفة و«لو»: حرف امتناع لامتناع وهي شرطية غير جازمة.

أي: ولو أن هؤلاء الذين أخذوا ينادونك من وراء الحجرات.

﴿صَبَرُوا﴾ فلم ينادوك ﴿حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ ولم يؤذوك بهذا النداء، أو يلجئوك

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢ - من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

للخروج في وقت أو حال غير مناسب ويشقوا عليك.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان صبرهم وعدم ندائهم لك من وراء الحجرات خيرًا لهم، لأدبهم مع رسول الله ﷺ في عدم رفع الصوت عنده، ومراعاة ظروفه وأحواله وتقدير مكانته القيادية في الأمة، فيكونوا بهذا ممن امتحن الله قلوبهم للتقوى، وأعد لهم المغفرة والأجر العظيم.

وأيضًا يكون خيرًا لهم بأن يخرج إليهم ﷺ وقت خروجه المناسب فيجيئهم على ما عنه يسألون، ويعطيهم ما يطلبون، وبهذا يحصلون على خيري الدنيا والآخرة. وهكذا ينبغي للأمة أن تقدر لأهل المكانة، وذوي المسؤوليات الكبيرة فيها ظروفهم وأحوالهم من العلماء والملوك والرؤساء والأمراء والوزراء ونحوهم. فإن بعض الناس قد ينغص على بعض المسؤولين حياتهم، ويضايقهم في مراجعتهم في بيوتهم، وربما في أوقات نومهم وراحتهم، أو في وقت لا يجبون مقابلة أحد فيه ونحو ذلك.

وعلى ذوي المسؤوليات في الأمة في المقابل أن يخصصوا من وقت دوامهم وعملهم اليومي وقتًا لمقابلة الناس، وقضاء حوائجهم، والإجابة على أسئلتهم، ومعرفة متطلباتهم، واستماع شكواهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب التائبين من عباده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿رَحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة؛ رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالتَّكَاثُرِ لَرَوِّفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥]، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقدم «الغفور» على «الرحيم» لأن التخلية قبل التحلية، وقرن بينهما؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

## الفوائد والأحكام:

- ١- ذم الذين ينادون الرسول ﷺ من وراء الحجرات بنفي العقل عنهم، وأن الخير كل الخير لهم لو صبروا حتى يخرج إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٥﴾.
- ٢- وجوب التأدب مع الرسول ﷺ ومراعاة ظروفه وأحواله، وعدم الجهر في مناداته، وتحاشي أذيته.
- ٣- عناية الله تعالى برسوله ﷺ ودفاعه عنه.
- ٤- أن من لم ينتفع بعقله كمن لا عقل له.
- ٥- ينبغي للأمة تقدير ظروف ذوي المسؤوليات الكبيرة فيها، وعدم التضيق عليهم في بيوتهم.
- ٦- فضيلة الصبر، وأن عقباه خير.
- ٧- إثبات صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾﴾.
- ٨- الإشارة إلى أن التخلية قبل التحلية بتقديم المغفرة على الرحمة، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.
- ٩- في اقتران صفتي المغفرة والرحمة الواسعتين في حقه عز وجل، كمال إلى كمال، وبفوز العبد بهما كمال النعيم.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلِكِهِمْ فَنُصِبُوا عَلَيْكُمْ إِيمَانٌ نَّزِيلٌ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَعْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَا مِن اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِكْمٌ ﴿٨﴾﴾.

### سبب النزول:

عن الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنه قال: «قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته. ويرسل إلي رسول الله ﷺ رسولا لإبان كذا وكذا، ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ - أن يعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأت، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله عز وجل ورسوله، فدعا بسروات قومه (١) فقال لهم: إن رسول الله ﷺ - وقت لي وقتاً يرسل إلي رسول الله ﷺ؛ ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ - الخلف، ولا أرى حبس رسول الله ﷺ إلا من سخطة كانت فانطلقوا فأتى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرَّق، أي: خاف - فرجع فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي.

فضرب (٢) رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعت الزكاة، وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بته، ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة، وأردت قتل رسولي؟» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا

(١) أي: أشرفهم.

(٢) أي: بعث.

حين احتبس عليّ رسول رسول الله ﷺ - خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله ﷺ. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَنِيدِينَ﴾ إلى هذا المكان ﴿فَضَلَّٰ مِن ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ٱللَّهِ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ (١).

قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله عز وجل، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها فتعرضت للفساد.

ويطلق الفسق على الكفر، وعلى ما دونه من المعاصي، والمراد بالفاسق هنا مرتكب المعاصي دون الكفر.

﴿بِنَبَأٍ﴾ النبأ: هو الخبر الهام، الذي له شأن قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِيَّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ [النبأ: ١، ٢].

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف «فتثبتوا» من التثبت، وقرأ الباقون: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ من التبين. ومعنى القراءتين واحد أي: فتبينوا وتثبتوا وتأكدوا.

﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله. أي: خشية أن تصيبوا قوماً بجهالة، أي: أن تقعوا فيهم، بأذيتهم بقول أو بفعل بجهل منكم وعدم علم، وإنما بناءً على أخبار كاذبة وشائعات باطلة، مع براءتهم مما نسب إليهم.

﴿فَتُصِيحُوا﴾ الإصباح في الأصل الدخول في الصباح، وليس مراداً هنا، وإنما المراد ما هو أعم من ذلك، أي: فتصيروا.

﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَنِيدِينَ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فتصيحوا على الذي فعلتم، أو على فعلكم (نادمين) أي: متأسفين متحسرين على ما مضى من فعلكم، مما لا يمكن رده، وليس هو في محله بل هو خطأ وظلم وعدوان، فتندموا ولات حين مندم،

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٧٩، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/٣٣٠٣ - الأثر ١٨٦٠٨، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/٣٥١ وأخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/٧٨ مختصراً - بمعناه - من حديث أم سلمة وابن عباس رضي الله عنهما.

فإذا وقع الفأس بالرأس - كما يقال - لا ينفع الندم، وإذا فات الفوت، ما ينفع الصوت. والله ما أعظم هذه التوجيهات الربانية التي بها سعادة المرء في دنياه وأخراه، والتي تحفظه بإذن الله عز وجل من أسباب الشقاء في الدنيا والآخرة، فإن الظلم والتعدي سبب للشقاء والندم والحسرة والأسى في الدنيا والآخرة. ويؤخذ من الآية وجوب الثبوت في قبول خبر الفاسق، فلا نقبله مطلقاً، ولا نرده مطلقاً، بل نتثبت فيه فإن دل قرينة على صدقه قبلناه، وإن دل قرينة على كذبه رددناه. وإلا توقفنا فيه.

قال ابن القيم رحمه الله<sup>(١)</sup>: «وهنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته. وكثير من الفاسقين يصدقون في رواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات آخر، فمثل هذا لا يردُّ خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله».

وإذا وجب الثبوت في خبر الفاسق في عهد الرسالة فيجب الثبوت والتأكد في قبول خبره في هذا العصر من باب أولى، والذي تعددت وتنوعت فيه وسائل النشر والإعلان مرئية ومسموعة ومقروءة وتسابق الكثيرون ممن زين لهم الشيطان سوء أعمالهم إلى تليفق الأخبار ونشر الإشاعات في هذه الوسائل وبخاصة في شبكة المعلومات الإنترنت، ورسائل الجوال، والقنوات الفضائية التي يمول أكثرها اليهود، والرافضة أخزاهم الله، وخصصت لحرب الإسلام وضرب المسلمين بعضهم ببعض.

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٠.

وكل هذا يوجب علينا تمحيص الأخبار والتثبت فيها والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها، وبخاصة ما ينشر في هذه الوسائل المشبوهة والتي استغلها كثير من ضعاف الإيمان وضعاف النفوس، حتى ممن يحسبون على الإسلام ويالأسف، بل ممن يزعمون ويدعون تبني قضايا الأمة والدفاع عنها، وهم أعظم بلية بليت بها الأمة، ضربوها في أغلى شيء لديها، وهو وحدتها وتضامنها، واجتماع كلمتها، فقدموا أعظم خدمة لأعداء الإسلام بما ينشرون في هذه الوسائل من أخبار كاذبة، وافتراعات باطلة، وإشاعات مغرضة، تحت شعارات مختلفة تارة دينية، وتارة سياسية، وتارة اقتصادية للتفريق بين المسلمين، وإيجاد العداة والضغائن بين الأمة وحكامها وعلماؤها وذوي المسؤوليات فيها، بل بين الأولاد ووالديهم.

ويبدو بعض هؤلاء على هذه الشبكات والقنوات، وكأنه المنقذ للأمة والناصح لها والمدافع عن قضاياها دون غيره وهو - في الحقيقة - من ألد أعدائها.

ويبث بعضهم سمومهم في الخفاء وراء رموز وأسماء مستعارة في السوق السوداء، وفي الحراج العام، لعلمهم أن بضاعتهم مزجاة، وأكثرها سرقات ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

خفافيش أعشاها النهار بضوئه فوافقها من ظلمة الليل غيب<sup>(١)</sup>.

وقد اغتر الكثيرون وانشغلوا بما ينشر في هذه الوسائل من هذه الأخبار الكاذبة، والتحليلات الخاطئة والإشاعات الباطلة فتناقلوها في مجالسهم وكأنها حقائق ومسلّمات. فحذار حذار أخي المسلم من وحل هذه المستنقعات.

وعليك بالاحتياط لدينك، وإمسك اللسان والقلم والبنان عما لا يعني قال ﷺ «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»<sup>(٢)</sup> واعلم أن العافية لا يعدها شيء، وأن السلامة غنيمة.

ويفهم من قوله: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَصَبِّئُوهُ﴾ قبول خبر العدل، لكن لا بد من

(١) البيت لابن مشرف، انظر «ديوانه» ص ٣٢.

(٢) أخرجه النسائي في الأشربة ٥٧١١، والترمذي في صفة القيامة والرقائق ٢٥١٨ وقال: «حديث حسن صحيح».

اكتمال نصاب الشهود حسب الأمر المشهود عليه.

ففي الشهادة على رؤية هلال رمضان يكفي خبر الشاهد الواحد العدل، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما قال: «تراءى الناس الهلال، فرأيته فأخبرت النبي، ﷺ - فصامه وأمر الناس بصيامه»<sup>(١)</sup>.

ولا بد في الشهادة على السرقة والقتل ونحو ذلك من شاهدين لقوله تعالى ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وفي الشهادة على من أصابته جائحة لا بد من ثلاثة شهود؛ لحديث قبيصة: «حتى يشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أن فلاناً قد أصابته جائحة»<sup>(٢)</sup>.

وفي الشهادة على الزنا لا بد من أربعة شهود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ٤]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ لَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣].

قوله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وأطيعوه، ولا تتقدموا بين يديه بقول ولا فعل، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، «لو»: حرف امتناع لامتناع، وهي شرطية غير عاملة، ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ العنت: المشقة.

والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تختارونه لأنفسكم وتطلبونه، لأوقعكم ذلك في المشقة والحرَج.

(١) أخرجه أبو داود في الصوم - شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان ٢٣٤٢، والدارمي في الصوم ١٦٩١.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة - من تحل له المسألة ١٠٤٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٤٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٩١ - من حديث قبيصة بن مخارق - رضي الله عنه.

وفي هذا إشارة إلى ضعف آراء البشر وعدم معرفتهم لوجوه المصالح، ما لم يُربطوا  
بوحى السماء قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ  
آتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ولما قال ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» قام الأقرع بن حابس رضي الله  
عنه فقال: أفي كل سنة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لما  
استطعتم، الحج مرة فما زاد فهو تطوع»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم  
واختلافهم على أنبيائهم»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرماً رجل سأل عن مسألة لم تحرم  
فحرمت من أجل مسألته»<sup>(١)</sup>.

ولهذا أنكر ﷺ على عثمان بن مظعون وأصحابه التبتل والانقطاع للعبادة وقال ﷺ:  
«أما أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(٢)</sup>.  
وكذلك أنكر ﷺ على عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: «لأصومن النهار  
ولأقوم من الليل ما عشت»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنْ﴾ أي: ألقى محبته في قلوبكم، وهذا أمر خاص به عز  
وجل، فلا أحد يستطيع تحبيب الإيثار إلى القلوب ووضعها فيها، ولا هدايتها هداية  
التوفيق والقبول سوى الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ  
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصص: ٥٦].

﴿وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حسَّنه في قلوبكم، بذكر شرف الإيثار وفضله وحسن  
صفات أهله وما وعد الله به المؤمنين من الفوز بالجنات والأجر العظيم.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧ - من حديث  
أنس - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٦، ومسلم في الصيام ١١٥٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٢٧، والنسائي  
في الصيام ٢٣٩١ - من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه.

والقلوب: جمع قلب، وهو الذي عليه مدار صلاح العمل قال ﷺ «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» (١).  
وعن أنس: رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى ههنا، التقوى ههنا» (٢).

وقال ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» (٣).

ومحل القلب هو الصدر كما قال عز وجل ﴿وَلَكِنَّ تَعَمَّى الْقُلُوبَ أَنِّي فِي الْأَصْدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وهو أداة ومحل العقل مع ارتباط ذلك بالمخ.  
﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾، «كُرْهُ إِلَيْكُمْ»: أي جعل ذلك مكروهاً ومبغضاً عندكم.

و«الكفر» في اللغة: الستر، ومنه سمي الزارع كافرًا؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، وسميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون ويغطيه بظلامه، وسمي وعاء طلع النخل كافرًا؛ لأنه يستر الثمر الذي بداخله ويغطيه، إلى غير ذلك.

وهو إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته أو شيء من ذلك، أو الاستكبار عن الانقياد لشرعه، أو الإعراض عنه، والشك فيه، وهو ضد الإيمان.  
والمراد بالكفر هنا: الكفر المخرج من الملة.

وقد يكون الكفر دون المخرج من الملة كما في قوله ﷺ: «اثنان في الناس هما بهم

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ١٣٤/٣-١٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ٢١٦٥، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٣، وأحمد ١٨/١، ٢٦- من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال الترمذي (حسن صحيح غريب). وأخرجه أحمد أيضًا ٤٤٦/٣- من حديث عامر بن ربيعة رضي الله عنه.

كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت<sup>(١)</sup> ومنه كفران النعم.  
والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى وعن الإصلاح إلى الإفساد، ومنه سميت  
الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد.  
والفسق والفسوق قد يطلق على الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِنُهُمُ  
النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقد يطلق على ما دون الكفر كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا  
فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ٩٧].

والمراد به في الآية هنا: الذنوب الكبار خاصة لذكر الكفر قبله، والعصيان بعده.  
والعصيان والمعاصي: عدم الطاعة، والمراد بالعصيان هنا: الذنوب الصغار لذكر  
الكفر والفسوق قبله. وقد يحمل العصيان هنا على ما يشمل الكفر والفسوق وغير ذلك.  
قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي الذنوب الكبار  
والعصيان وهي جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة».

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ﴾ الإشارة لمن حيب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم  
وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.  
وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهاً بعلو منزلتهم ورفع مكانتهم. و«هم»: ضمير  
منفصل للتوكيد.

فأكد هذه الجملة بثلاثة مؤكدات، وهي: كونها جملة اسمية، معرفة الطرفين  
وضمير الفصل؛ لتأكيد أن هؤلاء هم الراشدون حقاً الذين بلغوا من الرشد غايته.  
والرشد: الاهتداء إلى طرق الخير عامة، وهو بالنسبة لكل شيء بحسبه، فالرشد في  
الدين: الاستقامة عليه، والرشد في المال: حسن التصرف فيه، والرشد في الولاية:  
حسن التصرف فيما وُلي عليه، وهكذا. فالمراد بـ «الراشدون» هنا الذين بلغوا من الرشد  
غايته في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم ولهذا جاء في الدعاء في حديث عبيد الله بن عبد

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٦٧، والترمذي في الجنائز ١٠٠١ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (تفسيره) ٣٥٢ / ٧.

الله الزرقي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين» (١).

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾، «فضلاً»: مفعول مطلق، نائب عن المصدر. والفضل: الزيادة والتفضل.

«ونعمة» أي: ونعمة منه عز وجل أي: ما حصل لكم من تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوبكم، وتكره الكفر والفسوق والعصيان إليكم، وجعلكم من الراشدين هو زيادة وتفضل من الله وإنعام منه عليكم، لا باستحقاقكم ذلك، ولا بحولكم وقوتكم. فيا له من فضل ويا لها من نعمة لمن عرف قدر ذلك. نسأل الله التوفيق.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء، الذي يعلم ويدرك الأشياء كلها على ما هي عليه إدراكًا جازمًا في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة:

الحكم الكوني، وهو: كل ما يقع في الكون من حركة أو سكون، ومنه قول أكبر أولاد يعقوب فيما حكى الله عنه أنه قال: ﴿فَلَنْ أَنْبَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، أي: أو يحكم الله لي حكمًا كونيًا.

والحكم الشرعي: هو ما شرعه الله من أحكام شرعية كأحكام الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [المتحنة: ١٠]، أي: حكمه الشرعي.

والحكم الجزائي وهي أحكامه الجزائية في الآخرة، حيث يجازي كلاً بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ويجمع الأحكام الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠] أي: بأقسامه

الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

و﴿حَكِيمٌ﴾ أيضًا، أي: ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية. فالحكمة الغائية: هي الغاية من حدوث حكم ما من الأحكام الكونية، أو من مشروعية حكم من الأحكام الشرعية أو الجزائية.

والحكمة الصورية هي: الحكمة من مجيء الحكم سواء الحكم الكوني أو الشرعي أو الجزائي على هذه الصورة، إذ لكل حكم من الأحكام حكمة غائية وحكمة صورية. فهو عز وجل عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

ويؤخذ من اقتران صفتيه عز وجل: «عليم» و«حكيم» كماله عز وجل، وكمال صفاته؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين هذين الوصفين؛ لأن اجتماعهما - مع كمالهما في حقه عز وجل يزيد كماله إلى كمال.

ولهذا نشاهد - والله المثل الأعلى - أن من توفيق الله للعالم أن يجمع الله له بين العلم والحكمة، فتأتي أحكامه وفتاواه وتوجيهاته بإذن الله وتوفيقه أسد وأصوب، ويكون لها قبول عند الناس لما عرفوا عنه من العلم والحكمة ويحبونه ويشهدون له بذلك وأحسب أن ممن جمع الله له بين هاتين الصفتين في هذا العصر، فأحبه الناس، وشهدوا له بالفضل، ولقيت فتاواه قبولاً عندهم ساحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فأوصي جميع المسلمين بالاستفادة من آثاره العلمية وفتاويه - ولا أزكي على الله أحدًا.

### الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَّأْتِيهَا﴾.
- ٢- تشریف المؤمنين وتكريمهم بندايمهم بوصف الإيمان، والترغيب بهذا الوصف وأن امثال ما بعد هذا النداء من أمر وتوجيهات من مقتضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَّأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

- ٣- وجوب التثبت في خبر الفاسق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِي فَتْيِنَا﴾.

٤- وجوب تمحيص الأخبار والتثبت فيها، والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها وتنزيه الأسماح والأبصار مما تبثه وسائل الإعلام المشبوهة.

٥- التحذير الشديد من أذية الآخرين والوقوع فيهم بقول أو فعل بغير جرم منهم، وإنما بناء على وشايات فيهم وإشاعات كاذبة مغرضة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالِدَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَنِيدِينَ﴾.

٦- التثبت في الأمور وعدم التسرع لئلا يندم الإنسان حين لا ينفع الندم.

٧- حفظ الإسلام لحقوق الآخرين، وحرصه على إبعاد المسلم عما يضره ويندم عليه.

٨- قبول خبر العدل؛ لفهوم قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَيَّنُوا﴾ الآية.

٩- امتنان الله - عز وجل - على المؤمنين بوجود الرسول ﷺ في حياته بينهم يد لهم على

الخير ويحذرهم من الشر، وما يشق عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.

١٠- إثبات رسالته ﷺ.

١١- لو ترك الناس لأنفسهم، أو أطاعهم الرسول ﷺ في كثير من الأمر لشقوا على

أنفسهم، ولما عرفوا مصالحهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

١٢- حرصه ﷺ على أمته وشفقته عليهم ونصحه لهم وعلمه بما يصلحهم.

٣١- فضل الله - عز وجل - ونعمته على المؤمنين حيث حب إليهم الإيثار وزينه في

قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين؛ لقوله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾.

٤١- أن هداية القلوب بيد الله - عز وجل -.

٥١- امتداح الله - عز وجل - للراشدين وثناؤه عليهم، والإشارة لرفعة منزلتهم،

وعلو مكانتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾.

١٦- إثبات أنه - عز وجل - ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلِإِن طَافَيْتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَفَعِلُوا آلَتِي بَيْنَهُمَا حَقَّ تَقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله قد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَلِإِن طَافَيْتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾» (١).

قوله: ﴿وَلِإِن طَافَيْتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا﴾ الطائفة: المجموعة من الناس قليلة كانت أو كثيرة.

﴿أَقْتَلُوا﴾ أي: حصل بينهم اقتتال، والاققتال: ما كان بين طرفين.

وإن مما يحز في قلب كل مسلم ويندى له الجبين أن الاقتتال اليوم بين المسلمين أنفسهم أكثر من الاقتتال مع أعدائهم الكفار، وأن دماء المسلمين التي تراق على أيدي مسلمة أضعاف أضعاف الدماء التي تراق منهم على أيدي الكفار وكما قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه (٢)

نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين، ويجمع كلمتهم على الحق.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي: أصلحوا بين الطائفتين المقتلتين من المؤمنين بالأخذ بالطرق التي يكون بها الصلح، والتوسط للقضاء على أسباب هذا الاقتتال، وما ينتج عنه من الاختلاف، وفساد ذات البين التي لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين كما قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى. قال:

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٩، وأحمد ٣/١٥٧، ٢١٩.

(٢) البيت لعبد الملك الحلاج. انظر: «الإيجاز والإعجاز» ص ١٦١.

«إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»<sup>(١)</sup>.  
قال الترمذي ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ أي: فإن لم تستطيعوا الإصلاح بينهما، أو بغت إحداهما على الأخرى بعد الصلح.

ومعنى «بغت»: تعدت وتناولت على الأخرى وظلمتها. والبغي: العدوان والتناول والظلم.

﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَيْعٍ﴾ أي: فقاتلوا الطائفة الباغية التي تبغي على الأخرى. والأمر للوجوب.

﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع الفئة الباغية إلى أمر الله وحكمه الشرعي فتكف عن البغي والعدوان.

ويؤخذ من الآية قتال الفئة الباغية وفي الحديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قال يا رسول الله هذا أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تكفه عن الظلم، فذاك نصرك إياه»<sup>(٢)</sup>.

﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ أي: فإن رجعت الطائفة الباغية عن البغي ولزمت حكم الله وشرعه.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ فيما تقولون لهما وفيما تطالبون به كلا منهما من التنازل عن شيء من حقه للطائفة الأخرى وغير ذلك.

فالإصلاح الأول لوقف القتال بينهما، والإصلاح الثاني للتسوية بينهما فيما لكل منهما على الأخرى من حقوق أو متلفات.

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٩- من حديث أبي الدرداء- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب- أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥- من حديث أنس رضي الله عنه وأخرجه البخاري أيضاً من حديث جابر رضي الله عنه في المناقب ٣٥١٨، ومسلم في البر والصلوة- نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ٢٥٨٤، والترمذي ٣٣١٥.

﴿وَأَقْسَطُوا﴾: أي: اعدلوا بينهما، وهذا تأكيد لما قبله، واعدلوا أيضًا في جميع أموركم، مأخوذ من «أقسط» الرباعي الذي معناه: عدل وأنصف، واسم الفاعل منه مقسط، وليس من «قسط» الثلاثي الذي معناه: جار وظلم، واسم الفاعل منه «قاسط» ومنه قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

فإن لم يكن الإصلاح بالعدل والقسط بل كان بالجور والظلم فلا يعد ذلك من الإصلاح، بل هو من الإفساد، كما في بعض الإصلاحات بين الأطراف التي لا تقوم على العدل بل على الضغط على أحد الخصمين، أو إماتة القضية حتى يرضى صاحب الحق ببعض حقه ليأسه من وصول حقه إليه، فهذا صلح حرم حلالاً أو أحل حراماً. وفي حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]، أي: الذين يعدلون في أنفسهم وأهلهم وما ولوا، كما جاء في الحديث.

وفي الآية إثبات صفة المحبة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، فهو عز وجل يحب المؤمنين العادلين، وإذا كان عز وجل يحبهم فلا تسأل عما أعد لهم من الفضل. قال ﷺ: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا»<sup>(٢)</sup>.

ويفهم من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، عدم محبته للظالمين الجائرين، كما قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧، ١٤٠].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا كالتعليل لقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ الآية. «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: إنما المؤمنون كلهم إخوة في الدين

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام ١٣٥٢، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٥٣.

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة - فضل الإمام العادل ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة - فضل الحاكم العادل ٥٣٧٩ - من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

تربطهم أخوة الإيمان.

وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»<sup>(١)</sup>.  
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»<sup>(٢)</sup>.

وعن صفوان بن عبد الله عن أم الدرداء رضي الله عنها أنها قالت له: أتريد الحج العام فقلت: نعم: قالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه، قال الملك الموكل: آمين، ولك بمثله، قال صفوان: فخرجت إلى السوق، فلقيت أبا الدرداء، فقال لي مثل ذلك يرويه عن النبي ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»<sup>(٤)</sup>.

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب- الستر على المسلم ٤٩١٠. والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر- فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥ وفي الأدب ٤٩٤٦، والترمذي في الحدود- ما جاء في الستر على المسلم ١٤٢٥، وابن ماجه في المقدمة- فضل العلماء والحث على طلب العلم ٢٢٥ وأحمد ٢/٢٥٢، ٢٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٧٣٣، وأبو داود في الوتر- الدعاء بظهر الغيب ١٥٣٤.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب- رحمة الناس والبهائم ٦٠١١، ومسلم في البر- تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٦، وأحمد ٤/٢٦٨- من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة- تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ٤٨١، ومسلم في البر- تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٥، والنسائي في الزكاة- أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه ٢٥٦٥، والترمذي في البر- ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ١٩٢٨، وأحمد ٤/٤٠٤-٤٠٥ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيثار بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيثار كما يألم الجسد لما في الرأس» (١).

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ﴾ قرأ يعقوب: ﴿بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ﴾ بكسر الهمزة وإسكان الخاء وتاء مكسورة على الجمع، وقرأ الباقون ﴿بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ﴾ بفتح الهمزة والخاء، وباء ساكنة على التثنية.

أي: فأصلحوا بين أخويكم، أي: بين إخوانكم المتقاتلين، والأمر للوجوب، فلا يجوز أن يقف المسلمون من الفئات المتقاتلة من إخوانهم المسلمين موقف المتفرج كما هو حال كثير من المسلمين اليوم، أو ربما يعتمد بعضهم ويعمل على إشعال تلك الفتنة. نسأل الله العافية.

ولا شك أن الاستعمار جنى ثمار تمزيقه للمسلمين وتفريقهم إلى دويلات بل وإيجاده روح العداء بين الدول الإسلامية فأصبح حال المسلمين اليوم كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعاً فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر (٢)

ولكن هذا لا يعفي المسلمين من التبعة والمسؤولية أمام الله - عز وجل - فإنهم - وهم أكثر من مليار ونصف مليار مسلم - لو صدقوا الله لنصرهم الله، ولما استطاع أن ينال منهم العدو مهما كان. نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين في كل مكان.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يرحمكم الله برحمته الواسعة التي بها سعادة الدنيا والآخرة، وهذا وعد من الله، ووعدته حق وصدق، فبالقيام بحقوق المؤمنين والإصلاح بينهم وتقوى الله تحصل لنا الرحمة من الله عز وجل.

ويؤخذ من الآية أن الإيثار والأخوة الإيثارية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من كبائر الذنوب التي هي دون الشرك، وعلى هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للخوارج والمعتزلة.

(١) أخرجه أحمد ٥ / ٣٤٠ وقال ابن كثير في (تفسيره) ٨ / ٣٥٥: «تفرد به، ولا بأس بإسناده».

(٢) انظر: «ديوان الحماسة» ١ / ١٧٦.

ومن هذا قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»<sup>(١)</sup>، أي: كفر دون كفر، وقوله ﷺ: «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت»<sup>(٢)</sup>. قال ابن كثير: «<sup>(٣)</sup> فساهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، ثم ذكر حديث أبي بكر أن رسول الله ﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»<sup>(٤)</sup> فكان كما قال صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة».

### الفوائد والأحكام:

- ١- وجوب الإصلاح بين الطوائف المتقاتلة من المؤمنين ولا يجوز للمسلمين الوقوف منها موقف المتفرج كما هو حال المسلمين اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْئَلْنَا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.
- ٢- أن التقاتل بين المؤمنين لا يخرجهم من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْئَلْنَا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.
- ٣- وجوب قتال الطائفة الباغية حتى ترجع إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- خوف المؤمن أن يمحط عمله وهو لا يشعر ٤٨، ومسلم في الإيمان- قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ٦٤، والنسائي في تحريم الدم ٤١٠٥، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٣، وابن ماجه في المقدمة ٦٩- من حديث عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان- إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ٩٣٤- من حديث أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه.

(٣) في «تفسيره» ٣٥٣/٧.

(٤) أخرجه البخاري في الصلح- باب قول النبي ﷺ للحسن: إن ابني هذا سيد ٢٧٠٤، وأبو داود في السنة ٤٦٦٢ والنسائي في الجمعة ١٤١٠، والترمذي في المناقب ٣٧٧٣.

- ٤- تأكيد أمر الصلح بين المسلمين وأهميته، وأنه يجب كونه بالعدل والقسط؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾.
- ٥- إثبات صفة المحبة لله - عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.
- ٦- فضل المقسطين ويكفيهم شرفاً أن الله يحبهم. ويفهم من ذلك ذم الظالمين وعدم محبة الله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.
- ٧- إثبات الأخوة بين المؤمنين، وأنها لا تزول بالتقاتل بينهم لكن يجب إصلاح ذات بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾. وفي هذا رد على المعتزلة والخوارج، الذين يكفرون مرتكب الكبيرة، أو يقولون: هو بمنزلة بين المنزلتين.
- ٨- وجوب تقوى الله بفعله أو امره واجتناب نواهيه، وأنها سبب لرحمة أرحم الراحمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَابِ بِسَاءِ اللَّسُونِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾.

أمر الله عز وجل في الآيتين السابقتين بالإصلاح بين المؤمنين والمحافظه على الأخوة بينهم ثم نهى عما يكون سبباً في العداوة بينهم من السخرية واللمز والتنايز بالألقاب والظن السيء والتجسس والغيبة في هذه الآية وما بعدها إلى قوله ﴿وَأَنفِقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ السخرية: هي الاستهزاء والازدراء والاحتقار للآخرين واستصغارهم وهو من الإعجاب بالنفس والكبر الذي هو من أعظم الكبائر والمحرمات.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» (١) (٢).

والقوم: هم الجماعة من الناس الذكور والإناث في الأصل، لكن المراد بقوله هنا ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ الرجال خاصة لذكر النساء بعدهم منفردات فالمعنى هنا: لا يسخر رجال من رجال.

﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: عسى أن يكون القوم المسخور منهم خيراً وأفضل من القوم الساخرين بهم - كما هو الواقع غالباً؛ لأن السخرية بالناس تدل على نقص في الساخر فهو بسخريته من الآخرين يريد تكميل ما فيه من نقص، كما تدل على أنه بلغ من الشر نهايته، كما قال ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» (٣).

(١) بَطَرُ الْحَقِّ: رده. وَغَمْطُ النَّاسِ: احتقارهم.

(٢) أخرجه مسلم في الإيذان ٩١، وأبو داود في اللباس ٤٠٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩، وابن ماجه في المقدمة ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٦٤. من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

﴿وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنَهُنَّ﴾ أي: ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون النساء المسخور منهن خيراً وأفضل من النساء الساخرات بهن.

وخص النساء بالذكر بعد قوله: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ والذي إذا أطلق وحده يشمل الجنسين إشارة- والله أعلم- إلى كثرة السخرية بين النساء- كما هو واقع- لضعف عقولهن ودينهن.

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين، وأن المسخور منه حري أن يكون خيراً وأفضل من الساخر؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وعسى من الله واجبة كما قال ابن عباس وغيره. وهذا يؤكد أن المسخور منه خير من الساخر غالباً.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز: هو التنقص للآخرين بالقول. والهمز هو التنقص للآخرين وعييبهم بالفعل بالإشارة باليد والحواجب ونحو ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقال تعالى ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَسِيمٍ﴾ [الفلم: ١١]، أي: همّاز للناس يحقرهم ويزدرهم وينتقصهم بفعله، ومشاء بالنميمة بينهم بقوله.

ومعنى قوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يلمز بعضهم بعضاً. ولمز المؤمن لأخيه المؤمن بمثابة لمزه لنفسه لهذا قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال تعالى ﴿فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، أي ليسلم بعضهم على بعضهم، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، أي: لا يقتل بعضهم بعضاً.

وأيضاً فإن لمز الإنسان لأخيه سبب لأن يلمزه أخوه، كما في الحديث: «لعن الله من لعن والديه. قيل كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه»<sup>(١)</sup>.

واللّمّاز الهمّاز مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، لأن الله توعدّه بالعذاب فقال ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧٣، ومسلم في الإيمان ٩٠، وأبو داود في الأدب ٥١٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٢- من حديث عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما.

واللمز والتنقص إن كان لعيب خلقي فهذا فيه تنقص للخالق سبحانه وتعالى. وإن كان لعيب خلقي فقد يعافيه الله ويتليك. والواجب على المؤمن عون أخيه المؤمن والدفاع عنه ونصحه إذا وقع في مخالفة.

قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» (١).

وقال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» (٢).

وقال ﷺ: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» (٤).

وإذا كان هذا هو واجب المسلم على المسلم بل الواجب عليه ما هو أعظم من ذلك وهو أن يجب له ما يجب لنفسه، الأمر الذي لا يتم إيمان العبد إلا به كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (٥).

فكيف يليق به أن يسخر منه أو يلمزه ويتنقصه؛ ولهذا سمي الله الأخ المسلم نفساً لأخيه المسلم لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هذا حالهم.

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلوة ١٩٣١- من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث حسن».

(٤) سبق تخريجه قريباً.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦- من حديث أنس رضي الله عنه.

فيا لها من مبادئ سامية وآداب عظيمة وأخلاق كريمة- لو أخذنا بها لكان لنا شأن- فالله المستعان.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ التنابز: التداعي والتنادي على وجه يشعر بالكراهة. والألقاب: جمع لقب، واللقب: اسم لما يسمى به المرء غير اسمه الأول- مشعرًا بمدح أو ذم. والمراد به هنا ما أشعر بدم.

والمعنى: لا يُعيَّر أحدكم أخاه ويلقبه بلقب يكرهه ويسوؤه سماعه فهذا محرم ولا يجوز، بل يجب أن يدعو المسلم أخاه بأحب الأسماء إليه.

قيل: إنهم كانوا يقولون لمن أسلم من أهل الكتاب: يا يهودي أو يا نصراني. لكن إن كان اللقب غير مذموم، بل مما يميزه عن غيره ونحو ذلك على سبيل التعريف، لا على سبيل التنقص والاحتقار فهذا لا بأس به كما جاء في ذكر بعض رواة الحديث: «الأعمش» و«الأعرج» ونحو ذلك.

﴿بَسَّ الْأَيْمَنُ الْفُسُوقُ﴾ بس: أي: قبح، والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى بالسخرية بالآخرين ولزهم والتنابز بالألقاب ونحو ذلك.

﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بعد الإيمان الذي حرم عليكم هذه الأشياء، وأوجب عليكم الأخوة في الله.

أي: قبح وساء أن تتقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسق بارتكابكم هذه الأعمال. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ﴾، «من» شرطية، و«لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يتب» فعل الشرط. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: جواب الشرط، واقرن بالفاء؛ لأنه جملة اسمية. أي: ومن لم يتب من تلك الأعمال التي هي من الفسوق ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين بلغوا مبلغًا عظيمًا في الظلم، وأكد هذا المعنى بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والتوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة. قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «والتائب: هو الراجع إلى أمر الله من نبيه، وإلى طاعته من معصيته».

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/١٨١، ١٨٢.

وشروطها خمسة:

الأول: الإخلاص لله عز وجل، فلا تكون خوفاً من الخلق أو طمعاً فيما عندهم.  
الثاني: الإقلاع عن المعصية وتركها فإن كان فيها حق لأدمي رده؛ لأنه لا يُعد مقلعاً عن المعصية في هذه الحال حتى يرد حقوق الأدميين إليهم، إن أمكن ردها، وإن لم يمكن ردها كالسخرية واللمز والتنازع بالألقاب والغيبة والنميمة ونحو ذلك وجب أن يتحللهم منها إن أمكن ذلك بلا ضرر، فإن لم يمكن ذلك أو خيف أن يؤدي ذلك إلى زيادة الشر وبخاصة إذا علم أنهم لم يعلموا بذلك، ونحو ذلك، فإنه يستغفر لهم، ويشي عليهم في المجالس التي اغتابهم فيها، ويدفع عن أعراضهم إذا تكلّم فيهم، فتكون هذه بتلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة، ويتنقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر امرأ مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه، ويتنهك فيه من حرمة، إلا نصره الله في موطن يحب فيها نصرته»<sup>(١)</sup>.

الثالث: الندم على فعل المعصية والتحسر، والحياء من الله - عز وجل.  
الرابع: العزم على عدم العودة إلى المعصية، فإن لم يعزم على تركها لم تصح توبته، وإن عزم على تركها لكنه وقع فيها مرة أخرى فعليه تجديد التوبة.  
الخامس: أن تكون في وقتها، قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم.  
و﴿الظالمون﴾: جمع ظالم. والظلم وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وهو النقص قال تعالى: ﴿كَلْنَا الْجِنِّينَ أَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مَعَهُ شَيْئاً﴾ [الكهف: ٣٣]؛ أي ولم تنقص.

وأظلم الظلم: الشرك بالله، كما قال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

(١) أخرجه أبو داود في الأدب - باب من رد عن مسلم غيبته ٤٨٩٣.

وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله أعظم الحقوق وأوضحها؛ فإنه تعالى خلق ورزق وأنعم على الخلق بسائر النعم وأعظمها نعمة الإسلام.  
أي: ومن لم يتب ويرجع عما اقترفه من المعاصي من ترك واجب أو ارتكاب محرم ومن السخرية بالآخرين ولزهم والتنازع بالألقاب والفسوق بعد الإيمان وغير ذلك فأولئك الذين بلغوا الغاية في الظلم، فالناس قسمان: تائب وظالم.  
قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعبثه وبغيب نفسه وآفات أعماله».

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين ولزهم، وتحريم التنازع بالألقاب، وأنواع الفسوق وأن ذلك من الظلم، ووجوب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»<sup>(٢)</sup> وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما «إني أتوب في اليوم مائة مرة»<sup>(٣)</sup> وكان يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»<sup>(٤)</sup>.

### الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا﴾.
- ٢- مناداة المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وعلى اجتناب ما بعده من نواه؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.
- ٣- تحريم السخرية بين المؤمنين رجالاً ونساءً، وتأكيد ذلك في حق النساء، لكثرة السخرية بينهن؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٨١.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات..- استغفار- النبي ﷺ في اليوم واللييلة ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير

٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان ٧٩٤، ومسلم في الصلاة ٤٨٤، وأبو داود في الصلاة ٨٧٧، والنسائي في

التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٩- من حديث عائشة رضي الله عنها.

٤- أن المسخور منه غالباً خير من الساخر، لأن الساخر لولا نقصه ما سخر بالآخرين، فهو يريد تكميل نقصه بهذه السخرية؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾.

٥- النهي عن تنقص المؤمنين بعضهم بعضاً، وأن تنقص المؤمن لأخيه بمثابة تنقصه لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

٦- تحريم التنازع بالألقاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

٧- التنفير من السخرية بالمؤمنين وتنقصهم ونبز بعضهم بعضاً بالألقاب وتقبيح ذلك وأنه من الفسوق بعد الإيثار؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾.

٨- وجوب شكر نعمة الإيثار والابتعاد عما يشينها ويدنسها.

٩- وجوب التوبة من هذه الأعمال السيئة، ومن جميع الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

١٠- من لم يتب من هذه الذنوب وغيرها فهو الظالم لنفسه ولغيره غاية الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

١١- حرص الدين الإسلامي على صفاء القلوب والتأليف بين المؤمنين، وتجنبيهم كل ما يسبب الفرقة والاختلاف بينهم.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِتٍ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ وَلَا يَحْسَسُوا وَلَا يَفْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

قوله: ﴿أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ : أي: ابتعدوا عن كثير من الظن، وهو الاتهام للآخرين بلا علم ولا دليل، بل بمجرد الظن.

وإذا وجب اجتناب كثير من الظن - مع أن الظن هو الاحتمال الراجح فمن باب أولى يجب الابتعاد عن الشك وهو ما كان متردد الطرفين لا رجحان فيه.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «هو الاتهام والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله».

﴿إِتٍ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ﴾ أي: ذنب محض - وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك. وإذا كان بعض الظن إثمًا فليجتنب كثير منه احتياطًا لئلا يقع المؤمن في هذا البعض الذي هو إثم وذنب وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»<sup>(٢)</sup>.

وعن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن». فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»<sup>(٣)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بما يُخرج من ذلك: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»<sup>(٤)</sup>.

(١) في (تفسيره) ٣٥٧/٧.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ ٦٠٦٤ ومسلم في البر - تحريم الظن والتجسس ٢٥٦٣، والترمذي في البر ١٩٨٨.

(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٣٥٧/٧.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا - انظر «الجامع الصغير» ٣٤٦٦.

وقد رُوي: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يعس ومعه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وبينما هما يطوفان في شوارع المدينة وجدا باباً مجافاً على قوم ولهم أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن: «أتدري بيت من هذا؟ قال: قلت: لا. قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن في شرب فما ترى؟ قال عبد الرحمن: أرى قد أتينا ما نهانا الله عنه؛ نهانا الله فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقد تجسسنا. فانصرف عنهم عمر وتركهم»<sup>(١)</sup>.

فيجب على المؤمن اجتناب كثير من الظن، وهو الظن السيء بمن هم ليسوا محلاً لذلك، فإن سوء الظن بهم من الإثم والذنب، بل يجب حسن الظن بمن هم كذلك من المؤمنين وغيرهم، وحمل ما يصدر منهم على أحسن محمل ما أمكن ذلك.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيراً»<sup>(٢)</sup>.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لا تظنَّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً»<sup>(٣)</sup>.

ويفهم من قوله: ﴿اجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أن ما عدا الكثير منه لا يؤمر باجتنابه، وهو ما لا يكون إثماً بدليل قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. فالبعض الآخر وهو ما عدا الكثير منه ليس بإثم.

فالظن الذي في محله جائز، كأن يوجد له قرائن ودلائل ممن هم أهل لذلك من أهل الشر والسوء، ومن ليسوا محلاً لحسن الظن بهم، احتياطاً واحتراماً منهم ومن

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» ١٠/٢٣١ (١٨٩٤٣)، والبيهقي في «سننه» ٨/٥٨٧ (١٧٦٢٥)، والحاكم في «المستدرک» ٤/٤١٩ (٨١٣٦) وصححه، ووافقه الذهبي، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» ص ١٥٢ (٤٤٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الفتن - حرمة دم المؤمن وماله ٣٩٣٢، قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/٣٥٧: «تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/٣٥٧.

شرورهم.

وإذا كان الحال وصل بالبعض إلى تهريب المخدرات في أحشائهم وفروجهم فليس هناك محل لحسن الظن بمثل هؤلاء، والله المستعان.

(ولا تجسسوا) التجسس غالباً يطلق في الشر، والتجسس في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] وقد يطلق التجسس في الشر كما في الحديث: «لا تجسسوا ولا تحسسوا»<sup>(١)</sup> ومن التجسس: الاستماع إلى حديث قوم وهم له كارهون كأن يستمع على أبوابهم ونحو ذلك.

والتجسس: هو تتبع عورات المسلمين والتنقيب والتفتيش عنها<sup>(٢)</sup>. قال ﷺ: «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»<sup>(٣)</sup>.

فيجب حمل الناس على ما يظهر منهم، والحكم عليهم ومعاملتهم بذلك. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله»<sup>(٤)</sup>.

أما ما خفي من أحوال الناس فلا ينبغي البحث عنه، بل ينبغي التغافل ما أمكن عن زلاتهم التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها»<sup>(٥)</sup>.

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) وقيل التجسس بالجيم أن يطلب العيب بنفسه، والتجسس بالحاء أن يلتمسه من غيره، وقيل التجسس أن يطلبه لغيره، والتجسس أن يطلبه لنفسه. وقيل معناهما واحد. انظر «النهاية» مادة «جسس».

(٣) سيأتي تخريجه قريباً.

(٤) أخرجه الحاكم ٤/٢٤٤، ٣٨٣، والبيهقي ٨/٣٣٠. وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب - النهي عن التجسس ٤٨٨٨.

وعن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معد يكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم» (١).

وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: لا يخبرني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» (٢).

وروي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أتى برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله: «إنما نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به» (٣).

لكن من كان يتعدى ضرره مباشرة إلى الآخرين ويعظم خطره كمروجي المخدرات والمتفجرات فتجب متابعتها والتجسس والتحسس عليه، لأنه من المفسدين في الأرض، بخلاف من يعمل معصية في بيته فيما لا يتعدى ضرره مباشرة إلى غيره فلا يجوز التجسس عليه.

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره.

كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» (٤).

﴿أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتعجب، أي: هل يجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً، والجواب: لا ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: بل أنتم تكرهون ذلك غاية الكراهة، فلا يمكن أن يأكل الإنسان لحم أخيه الميت. والمراد بهذا أن اغتياب المسلم لأخيه بمثابة أكله للحمه ميتاً، فكيف يقع ذلك من

(١) أخرجه أبو داود في الأدب- النهي عن التجسس ٤٨٨٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب- رفع الحديث من المجلس ٤٨٦٠، والترمذي في المناقب- فضل أزواج النبي ﷺ ٣٨٩٦- وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) أخرجه أبو داود في الموضوع السابق ٤٨٩٠.

(٤) أخرجه مسلم في البر ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة- ما جاء في الغيبة

الكثيرين.

وفي قوله (ميتًا) - إضافة إلى دلالته على شدة الكراهة - إشارة إلى أن الذي اغتیب - لكونه غائبًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه - أشبه بالميت فاقد الروح. وقد بلغ القرآن الكريم الغاية في التنفير عن الغيبة بهذا التشبيه، إذ لا يتصور منظر أبشع من أكل المسلم لحوم أخيه الميت.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>: «والغيبة محرمة بالإجماع. وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت» كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما تكرهون هذا طبعًا؛ فاكروهوا ذلك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منها، كما قال ﷺ في العائد في هبته: «ليس لنا مثل السوء، الذي يعود في هبته كالكلب يقيء، ثم يعود في قيئه»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»<sup>(٣)</sup> وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره»<sup>(٤)</sup>.

(١) في (تفسيره) ٧/٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٦٢٢ ومسلم في الهبات ١٦٢٢، والنسائي في الهبة ٣٦٩٨. والترمذي في البيوع ١٢٩٨ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في العلم ٦٧، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣، وأخرجه البخاري أيضًا في الحج ١٧٤١ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٤٣٨، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩، والترمذي في النكاح ١١٣٤، وابن ماجه في التجارات ٢١٧٢، وفي الزهد ٤١٤٣.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ «حسبك من صفة أنها كذا وكذا- تعني أنها قصيرة- فقال ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بهاء البحر لمزجته» (١).  
ومر ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» (٢).

بل إن تتبع عورات المسلمين واغتيابهم من أعظم الدلائل على ضعف الإيمان.  
عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولمّا يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته» (٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» (٤).

ونظر ابن عمر رضي الله عنهما يوماً إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك» (٥).

ولا يستثنى من تحريم الغيبة إلا ما كان لمصلحة، كما إذا كان ذلك لرفع الظلم، قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

كما في قول هند امرأة أبي سفيان: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٧٥، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٢، والطبري في «جامع البيان» ٨٧/٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء ٢١٨، ومسلم في الطهارة، ٢٩٢، وأبو داود في الطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة ٣٤٧- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب- باب في الغيبة ٤٨٨٠، وأخرجه أبو يعلى في مسنده من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. انظر (تفسير ابن كثير) ٧/٣٦٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٢٣٥، وأحمد ٣/٢٢٤.

(٥) أخرجه الترمذي في البر- عظم حرمة المؤمن ٢٠٣٢ وقال: (حسن غريب).

وولدي، فقال لها رسول الله ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»<sup>(١)</sup>.  
وكما إذا كان ذلك لمشورة في زواج أو غير ذلك، كما في قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس  
لما جاءت تستشيريه فيمن تتزوج قال لها ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو  
جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه انكحي أسامة بن زيد»<sup>(٢)</sup>.  
وكما إذا كان ذلك بغرض دراسة الأسانيد والحكم على الأحاديث، كقولهم: فلان  
كذاب، فلان سيء الحفظ، ونحو ذلك.

﴿وَأَقْوَأُ اللَّهِ﴾ أي: بفعل أو امره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ «تواب»: صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة على وزن «فَعَّال» تدل على  
أنه عز وجل ذو التوبة الكثيرة الواسعة بقسميها، وهما:  
توفيقه عز وجل للعبد أن يتوب كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾  
[التوبة: ١١٨] أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

وقبولها منه كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].  
﴿رَّحِيمٌ﴾ على وزن «فَعِيل» يدل على أنه عز وجل ذو الرحمة الواسعة؛ الرحمة  
الذاتية التي هي صفة من صفاته الثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ الْعَفُوْرُ  
ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

والرحمة الفعلية التي يوصلها من شاء من عباده كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ  
وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾  
[البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

(١) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٦٤، ومسلم في الأقضية- قضية هند ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢،  
والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق- المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٨٤، والنسائي في  
النكاح ٣٢٢٢، والترمذي في النكاح ١١٣٥ من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

ومن رحمته عز وجل أن شرع التوبة، ووفق لها من شاء من عباده، وقبلها منهم ممن تتوفر فيهم شروط التوبة.

### الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا﴾.
- ٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً لهم وتكريماً، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وامتنال ما بعده من أوامر ونواه؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.
- ٣- وجوب اجتناب كثير من الظن، لأن بعض الظن إثم، وهو الظن السيء في غير محله؛ لقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّتْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.
- ٤- تحريم الظن السيء بالمؤمنين، ووجوب حسن الظن بهم.
- ٥- تحريم التجسس والتجسس؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.
- ٦- جواز الظن بمن ليسوا محلاً لحسن الظن والاحترام منهم والتجسس عليهم لدرء شرورهم عن المسلمين.
- ٧- تحريم الغيبة بين المؤمنين والتنفير منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعضُكُمْ بعضًا﴾.
- ٨- بلوغ القرآن الغاية في التنفير فيما يراد التنفير منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.
- ٩- حرص الدين الإسلامي على سلامة الصدور بين المؤمنين والحفاظ على أسرارهم وأحوالهم وصيانة أعراضهم.
- ١٠- وجوب تقوى الله، باجتناب ما نهى عنه في الآية، وبفعل أوامره واجتناب نواهيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾.
- ١١- إثبات صفة التوبة لله - عز وجل - وتوفيق عباده لها وقبولها منهم؛ لقوله تعالى: ﴿تَوَابٌ﴾.
- ١٢- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَحِيمٌ﴾؛ صفة ذاتية، وصفة فعلية، عامة وخاصة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة المؤمنين أن يسخر بعضهم من بعض أو يلزم بعضهم بعضاً، وعن التنايز بالألقاب، وأمرهم باجتناز كثير من الظن، ونهاهم عن التجسس وعن أن يغتاب بعضهم بعضاً، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم خلقوا من أصل واحد وأن أكرمهم عند الله أتقاهم.

قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يقال في إعرابه كما قيل في إعراب (يا أيها الذين آمنوا) وقد سبق. والناس: هم بنو آدم الموجودون وقت نزول الآيات، ومن سيوجد إلى قيام الساعة. وعمومات الكتاب والسنة كما يدخل فيها عموم الإنس يدخل فيها أيضاً عموم الجن للإجماع على أنهم مكلفون كما كلف الإنس من حيث أصول الشرائع، أما في الفروع فقد قال بعض أهل العلم: إنه لا يلزم أن يكون الجن مكلفين بما كلف به الإنس في جميع الفروع على حد سواء.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ تكلم عز وجل بضمير الجمع والعظمة (إننا)؛ لأنه العظيم سبحانه الذي له العظمة التامة، كما قال عز وجل عن نفسه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري»<sup>(١)</sup>.

(خلقناكم) أي: أوجدناكم وأنشأناكم، وأصل الخلق التقدير.

كما قال زهير<sup>(٢)</sup>:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـض القوم يخلق ثم لا يفري

فالمتفرد بالخلق هو الله عز وجل الذي له تمام القدرة وتمام العلم، قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد

٤١٧٤، وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٨٦.

قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿ [الطلاق: ١٢].

وقد يطلق الخلق بمعنى تحويل الشيء إلى شيء آخر كتحويل الحديد أو الخشب الذي أوجده الله عز وجل إلى مصنوعات حديدية وخشبية. ولهذا جمع الله كلمة (الخالق) في قوله تعالى: ﴿قَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، إذ لا خالق في الحقيقة إلا الله عز وجل.

﴿مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ أي: من آدم وحواء، أو من جنس ذكر وأنثى أب وأم.

فهم من أصل واحد وجنس واحد مما يوجب على كل منهم أداء حق الآخر عليه ذكورهم وإناثهم، الأزواج، والوالدين والأولاد والإخوة والأخوات وسائر القرابات، ويوجب على كل منهم أداء حقوق إخوانه المسلمين، وكذا أداء حقوق غير المسلمين ممن ليسوا بمحاربين.

وقدم (الذكر)؛ لأنه من حيث العموم أفضل من الأنثى، كما قال عز وجل:

﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

قال ابن القيم<sup>(١)</sup>: «ولأنه هو الأصل فمنه البذر والسقي، والأنثى وعاء ومستودع للولد تربيته في بطنها كما تربيته في حجرها، ولهذا كان الولد للأب حكماً ونسباً، وأما تبعيته للأم في الحرية والرق فلأنه إنما تكوّن وصار ولدًا في بطنها، وغذته بلبانها، مع الجزء الذي فيه منها. وكان الأب أحق بنسبه وتعصيه؛ لأنه أصله ومادته ونسخته، وكان أشرفهما ديناً أولى به، تغليباً لدين الله وشرعه».

على أن التفضيل إنما هو لجنس الرجال على جنس النساء، وإلا فإن من بين النساء من تكون أفضل من زوجها، بل ومن عشرات الرجال، ويكفي النساء أن منهن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون رضي الله عنهن.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ «شعوباً»: جمع شعب، سماوا شعوباً؛ لأنهم تشعبوا عمن

قبلهم، كما يتشعب عنهم من بعدهم كما قال عز وجل: ﴿وَبَيَّتْ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، أي: فرق ونشر وذراً من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساءً.

(١) في (التيبان في أحكام القرآن) ص ٣٥٢-٣٥٣.

و«قبائل»: جمع قبيلة، والقبيلة دون الشعب.  
ويتفرع عن القبائل: الفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.  
﴿لِتَعَارَفُوا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تتعارفوا فيما بينكم، فيُدعى الإنسان باسمه واسم أبيه وجده، فيقال فلان بن فلان بن فلان.  
ولتعرفوا أنسابكم؛ ليؤدي بعضكم حقوق بعض من صلة الأرحام والتوارث وغير ذلك، فمعرفة الأنساب أمرٌ مطلوب شرعاً، لأن الله جعل الناس شعوباً وقبائل لأجل ذلك، لما يلزم عليه من أداء حقوق بعضهم على بعض.  
عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر»<sup>(١)</sup>.  
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ﴾ أي: إنها جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا؛ ليؤدي بعضكم حقوق بعض، لا لتتفاخروا بالأحساب والأنساب وكثرة العدد، فإن أكرمكم عند الله وأرفعكم منزلة عنده ﴿أَتَقَنَكُمْ﴾ لله عز وجل؛ بفعل أو امره واجتناب نواهيهِ.  
وفي الحديث: «فمن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»<sup>(٢)</sup>.  
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»<sup>(٣)</sup>.  
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار إلى صدره.  
وفي رواية: «ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي في البر - ما جاء في تعليم النسب ١٩٧٩ - وقال: (حديث غريب).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٨.

(٤) سبق تخريجه قريباً.

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «انظر فإنك لست بخير من أحر، ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله» (١).

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «ليتتهين قوم يفتخرون بأبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه. إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية» (٢)، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقى وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب» (٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، وليتتهين قوم يفتخرون بأبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان» (٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال فخرج بها إلى بطن المسيل، فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ - خطبهم على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وتعاضمها بأبائها، فالناس رجлан: رجل برتقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب قال الله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) ثم قال: أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم» (٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما أعجب رسول الله ﷺ - شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تقى» (٦).

(١) أخرجه أحمد ١٥٨/٥.

(٢) عبية الجاهلية: أي: تكبرها.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١١٦، والترمذي في المناقب ٣٩٥٥.

(٤) أخرجه البزار في مسنده - فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٣٦٦/٧.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٧، وقال: (حديث غريب). وابن أبي حاتم في (تفسيره) ٣٣٠٦/١٠ -

الأثر ١٨٦٢٢.

(٦) أخرجه أحمد ٦٩/٦.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(١)</sup>: «أعظم الكرامة لزوم الاستقامة».   
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع، المطلع على ظواهر الأمور وجلالها وجللياتها.   
﴿حَيِّرٌ﴾، أي: ذو الخبرة الواسعة، المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها.   
فبعلمه - عز وجل - وخبرته خلق الناس، وجعلهم شعوبًا وقبائل؛ ليتعارفوا،   
وجعل التفاضل بينهم بالتقوى.

فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى، فالناس كلهم   
من آدم وآدم من تراب.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الناس لآدم وحواء، طف   
الصاع<sup>(٢)</sup> لم يملؤوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، إن   
أكرمكم عند الله أتقاكم<sup>(٣)</sup>».

وعن أبي نضرة: «حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق،   
فقال: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على   
عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمري على أسود، ولا أسود على أحمري، إلا بالتقوى،   
أبلغت؟»، قالوا: بلغ رسول الله ﷺ<sup>(٤)</sup>.

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه<sup>(٥)</sup>:

الناس من جهة التمثيل أكفاء      أبـوهمـ آدـمـ والأـمـ حـواء  
فإن يكن لهم من أصلهم نسب      يفاخرون به فالطين والماء

فالفضل إنما هو بالتقوى فمن اتقى الله فهو الأكرم عند الله، ولو كان عبدًا حبشيًّا   
كبلال وسلمان رضي الله عنهما، ومن لم يتق الله فهو الأذل المهان عند الله ولو كان حرًّا   
قرشيًّا كأبي جهل وأبي لهب وغيرهما.

(١) في «مجموع الفتاوى» ٢٩٨/١١.

(٢) طفّ الصاع: أي: قريب بعضهم من بعض ويمتزلة واحدة في النقص والتقصير عن غاية التمام.

(٣) أخرجه أحمد ٤/١٥٨، والطبري في «جامع البيان» ٨٩/٢٦.

(٤) أخرجه أحمد ٥/٤١١.

(٥) انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» ١٠٨/٢.

وقد أحسن القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم (١)

وقد قيل:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فقد رفع الإسلام سلمان فارس  
فلا تترك التقوى اعتماداً على النسب وقد وضع الشرك النسب أباً لهب (٢)  
وقد استدل بهذه الآية على عدم اشتراط الكفاءة في النكاح، قالوا: فلا يشترط  
سوى الدين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾.

### الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب للناس بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

٢- عموم القرآن الكريم والرسالة المحمدية لجميع الناس.

٣- تذكير الناس بأصل خلقهم وأنهم خلقوا من ذكر وأنثى؛ ليؤدي بعضهم حقوق بعض، وليعلموا حاجة بعضهم إلى بعض، ولا يفخر بعضهم على بعض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾.

٤- فضل الذكر على الأنثى؛ لتقديمه في الآية. وهذا من حيث العموم، لا من حيث الأفراد، فكم من امرأة خير من كثير من الرجال.

٥- أن الأولى أن يقدم في الكلام والخطاب الذكر على الأنثى.

٦- أن الحكمة من جعل الناس شعوباً وقبائل: هي أن يتعارفوا بينهم ويعرفوا أنسابهم ليتواصلوا ويتوارثوا، لا ليتفاخروا بالأحساب والأنساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾.

٧- أن معرفة الأنساب أمر مطلوب شرعاً.

٨- أن أكرم الناس عند الله أتقاهم لله - عز وجل -، فلا فضل لعربي على أعجمي،

(١) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» ٣/ ١٣٣.

(٢) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «محاضرات الأدباء» ١/ ٤١٤.

ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

٩- إثبات سعة علمه - عز وجل - وكمال خبرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

\* \* \*

قال الله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ إِيْمَانُ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ .

قوله: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا ﴾ .

قال السعدي رحمه الله (١): «يخبر تعالى عن مقالة بعض الأعراب الذين دخلوا في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة ولا قيام بها يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم مع هذا ادعوا وقالوا: آمنا، أي إيماناً كاملاً مستوفياً لجميع أمورهِ». والأعراب: هم سكان البادية، وهم أقرب إلى الجهل والجفاء كما قال تعالى: ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩٧].

﴿ ءَأَمْنَا ﴾، أي: آمنا الإيمان الكامل المطلق، ظاهراً وباطناً.  
﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾، أي: قل لهم يا محمد لم تؤمنوا بعد، أي: لم تؤمنوا الإيمان المطلق، الذي يحمل صاحبه على الإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ في فعل الواجبات والبعد عن المنهيات، كما قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع إليه فيها الناس أعناقهم وهو مؤمن» (٢).  
وكقوله ﷺ: «و الله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه» (٣).

﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾، أي: دخلنا في الإسلام، بمعنى استسلمنا وانقدنا ظاهراً.

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) ١٣٩/٧.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق. ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٥٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٦- من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

وأمرهم بهذا وعدم وصفهم بالنفاق والكذب، كما وصف الله المنافقين في آيات عدة، وقوله بعد ذلك: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦)، وقوله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ آسَلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

كل هذا وغيره يدل على أن المذكورين ليسوا بمنافقين. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ولما يياثر الإيمان قلوبكم فتذوقوا طعمه وحلاوته وبشاشته، وتسعدوا به ويهون عليكم بذل كل غال ورخيص في سبيله من المال والنفس، والوقت، وغير ذلك. قال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل» (١).

وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾. دون أن يقول: «ولم يدخل» إشارة إلى قرب دخول الإيمان في قلوبهم.

فالإيمان المنفي عنهم هو الإيمان المطلق، والإسلام المثبت لهم هو الإسلام الشرعي ومطلق الإيمان الذي يثابون عليه وبهذا فسر الآية كثير من السلف واختاره جمع من المحققين منهم الطبري، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير وغيرهم. وذهب طائفة من المفسرين من السلف وغيرهم إلى أن المنفي عنهم هو الإيمان الشرعي الصحيح، والمثبت لهم هو الإسلام اللغوي، وهو الاستسلام خوف السبي والقتل، فعل المنافقين، واختار هذا بعض أهل العلم منهم البخاري، والصحيح الأول (٢). قال ابن القيم (٣): ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ نفيًا للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه منها:

أنه أمرهم وأذن لهم أن يقولوا: أسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك.

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/١٨٤.

(٢) انظر (جامع البيان) ٢٦/٨٩ - ٩٠، (فتح الباري) ١/٩٩، (التمهيد) لابن عبد البر ٩/٢٤٨، (الوسيط) للواحدي ٤/١٦٠، (الجامع لأحكام القرآن) ١٦/٣٤٨، (الإيمان) لابن تيمية ص ٢٢٥ - ٢٣٩، (تفسير ابن كثير) ٧/٣٦٨، (تيسير الكريم الرحمن) ٧/١٤٠، (أضواء البيان) ٧/٦٣٧ - ٦٣٩.

(٣) في (بدائع الفوائد) ٤/١٧.

ومنها أن هؤلاء الجفأة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاءً لا نفاقاً وكفرًا.

ومنها أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى عنهم الإيمان.

ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له.

ومنها أنه قال: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون؛ كما كذبهم في قولهم: (نشهد إنك لرسول الله) لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها أنه قال: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُوهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ ولو كانوا منافقين لما منَّ عليهم. ومنها أنه قال: ﴿أَنْ هَدَيْتُمُوهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، ولا ينافي هذا قوله (قل لم تؤمنوا) فإنه نفى الإيمان المطلق، ومنَّ عليهم بهدایتهم للإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها أن النبي ﷺ لما قسم القسم قال له سعد: أعطيت فلانًا، وتركت فلانًا وهو مؤمن. فقال: أو مسلم ثلاث مرات، وأثبت له الإسلام دون الإيمان.

والمقصود الفرق بين الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان. فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها.

ويؤخذ من الآية أن الإيمان أخص من الإسلام فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا. كما أن الإحسان أخص من الإيمان - كما دل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

ويدل عليه أيضًا حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان، والله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أو مسلمًا» فسكت قليلاً، ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لمقاتلي، فقلت: مالك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمنًا فقال: «أو مسلمًا» ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لمقاتلي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: «يا سعد إني

لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه، خشية أن يكبه الله في النار»<sup>(١)</sup>.  
 فقوله ﷺ: «أو مسلماً» يدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.  
 كما يدل أيضاً على أن هذا الرجل ليس بمنافق، بل هو مسلم لأنه ﷺ تركه من  
 العطاء ووكله إلى إسلامه.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>: «فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا  
 بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى  
 مما وصلوا إليه، فادّبوا في ذلك - وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة  
 واختاره ابن جرير<sup>(٣)</sup> - قال: «وإنما قلنا هذا لأن البخاري - رحمه الله - ذهب إلى أن  
 هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك وقد روي عن سعيد بن جبير  
 ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله (ولكن قولوا أسلمنا) أي: استسلمنا خوف القتل  
 والسباء». قال ابن كثير: والصحيح الأول: أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم  
 يحصل لهم بعد، فأدّبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا  
 وفُضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل هؤلاء تأديباً: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ  
 قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد».

والإيمان، في اللغة: التصديق. وفي الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل  
 بالأركان. والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من  
 الشرك. والإسلام والإيمان من الكلمات التي إذا اجتمعت افرقت، وإذا افرقت اجتمعت.  
 فإذا انفرد أحدهما عن الآخر حمل كل منهما على الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا  
 اجتمعا حمل الإسلام على الأعمال الظاهرة، وحمل الإيمان على الأعمال الباطنة كما في هذه  
 الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان - باب إذا لم يكن الإيمان على الحقيقة ٢٧، ومسلم في الإيمان - تألف من يخاف  
 على إيمانه لضعفه ١٥٠، وأبو داود في السنة ٤٦٨٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٢، وأحمد  
 ١٧٦/١.

(٢) في (تفسيره) ٣٦٨/٧.

(٣) انظر (جامع البيان) ٩٠/٢٦.

الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

وكما دل عليه حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، وجعل يديه على فخذه فسأله عن الإسلام، فقال له: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. فقال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإيمان فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإحسان فقال: الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» الحديث (١).

﴿وَأِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الطاعة فعل المأمور واجتناب المحذور أي: وإن تطيعوا الله ورسوله بفعل ما أمركم الله به ورسوله، وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله. وعطف وصف الرسول ﷺ أو اسمه على اسمه عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم؛ لأن هذا في باب التشريع؛ وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ بل هي طاعة لله كما قال عز وجل ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. بخلاف باب المشيئة والإرادة فلا يجوز العطف فيه بالواو. ﴿لَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصكم من أعمالكم وأجورها شيئاً ولو كان مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقْنَاءِ بِهِمْ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦١٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣.

ذَرَيْتَهُمْ وَمَا لَنْتَهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴿[الآية: ٢١].﴾

والمعنى: وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من أعمالكم وثوابها شيئاً، بل ستجدون ثوابها عند الله كاملاً أوفر ما يكون، بل ومضاعفاً الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

كما قال عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْطِئُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[البقرة: ٢٤٥].﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴿أي: ذو المغفرة الواسعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ ﴿[النجم: ٣٢].﴾

﴿رَحِيمٌ ﴿أي: ذو الرحمة الواسعة كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴿[الأعراف: ١٥٦].﴾

فهو عز وجل غفور لمن تاب وأناب إليه يستر ذنبه ويتجاوز عن عقوبته. رحيم به حيث وفقه للتوبة وقبلها منه.

وفي ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿إشارة لقرب مغفرة الله منهم.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿الآية.

«إنما»: أداة حصر - والحصر، معناه: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

فاسم المؤمنين ووصفهم محصور بمن اتصفوا بهذه الصفات: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿.

والمعنى: إنما المؤمنون الكُمَّل، الذين يستحقون وصف الإيمان المطلق ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ ﴿، أي: آمنوا بالله فشهدوا أن لا إله إلا الله، فأمنوا بوجوده وبربو بيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

﴿وَرَسُولِهِ ﴿، أي: آمنوا برسوله أي: صدقوا برسوله محمد ﷺ، فشهدوا أن محمداً رسول الله، فأطاعوه فيما أمر، وصدقوه فيما أخبر، واجتنبوا ما عنه نهي وزجر، ولم يعبدوا الله إلا بما شرع. فلا يتم الإيمان إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ومن لازم الإيمان بالله ورسوله الإيمان بكل ما جاء عن الله ورسوله من الأوامر

والنواهي وغير ذلك كبقية أركان الإيمان الستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره وغير ذلك، فهذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، «ثم» للترتيب والتراخي والمهلة.

والريب: الشك، أي: ثم استمروا على الإيمان مع طول المدة، ولم يحصل عندهم ريب ولا شك في إيمانهم بالله ورسوله، وما جاءهم عن الله ورسوله، بل عندهم اليقين والتصديق الجازم في ذلك مع الثبات عليه.

كما قال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِآمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَجَاهِدُوا﴾ الجهاد: بذل الجهد وما يستطيعه الإنسان.

﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ الأموال كل ما يتمول من النقود والأثاث والمراكب وغير ذلك.

﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: بذلوا أنفسهم ومهجهم رخيصة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فبذلوا جهدهم بالمال والنفس والنفيس في سبيل الله لإعلاء كلمة الله عز وجل قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (١).

وقدّم الجهاد بالأموال لأهميته؛ لأن الجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالمال لتمويل المجاهدين بالغذاء والمراكب والسلاح وغير ذلك.

ولأن الجهاد بالمال يسبق الجهاد بالنفس إذ لا بد من تهيئة المجاهدين وإعدادهم وإمدادهم قبل دخول المعركة؛ ولأن المجاهد بالمال قد يجهز عدداً كبيراً من المجاهدين إلى غير ذلك.

لهذا نجد القرآن الكريم يقدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس في جميع

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمامة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣ - من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

المواضع التي ورد فيها عدا قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [الآية: ١١١].

وجعل عز وجل كلا من بذل المال والنفس في سبيل الله جهاداً؛ ليأخذ كل نصيبه من الجهاد، فهناك من يستطيع الجهادين، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالنفس لكنه يستطيع الجهاد بالمال، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالمال ولكنه يستطيع الجهاد بالنفس.

وذكر الجهاد بالأموال والأنفس - بعد الإيمان بالله ورسوله، لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام كما قال ﷺ في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»<sup>(١)</sup>.

فالقيام بالجهاد، من أعظم الأدلة على قوة الإيمان؛ فإن من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه فجهاده لنفسه من باب أولى وأحرى.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم، الذي صدقوا مقالهم بفعالهم فجمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به رسوله كما قال عز وجل ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

كما قال الحسن رحمه الله: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»<sup>(٢)</sup>.

فتجد الكثير من الناس يهتم ويحوقل، ويقول: يا الله التوبة، وهو غارق في المعاصي مفرط في جنب الله، ومقصر في حقوق الخلق، وإذا سمعت كلامه قلت ما شاء الله هذا من صفوة الأخيار لكن إذا سبرت أحواله في تعامله سواء في القيام بحقوق الله أو حقوق الخلق زهدت فيه.

وما أكثر هؤلاء. وقد قيل:

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٤.

وكل يدعي وصلاً بليلي      وليلى لا تقر لهم بذاكا(١)  
وقيل:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها      بينات أبنائها أديعاء  
وقيل أيضاً:

لولا المشقة ساد الناس كلهم      الجود يفقر والإقدام قتال(٢)

قوله: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الآية، الأمر للنبي ﷺ - وهذا في معرض الرد على الأعراب في دعواهم وقولهم آمنا، وعلى غيرهم ممن يحدو حدوهم في مثل هذه المقالة، أي: أتعلمون الله وتجبرونه بما في قلوبكم وما تنطوي عليه ضمائرهم. والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار.

ويؤخذ من هذا الإنكار على من ينطق بالنية، فيقول: اللهم إني أريد أن أتوضأ، اللهم إني أريد أن أصلي، اللهم إني أريد أن أصوم ونحو ذلك.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ العلم هو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً و (ما) موصولة - تفيد العموم، أي: يعلم الذي في السموات والذي في الأرض ولهذا قال بعده توكيداً:

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء قل أو كثر، صغر أو كبر، خفي أو ظهر، بما في ذلك ما تنطوي عليه القلوب والضمائر كما قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقال عز وجل ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ لَا يُعْرَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٣].

(١) البيت ينسب لمجنون ليلي. انظر: «مجموع الفتاوى» ٧١ / ٤.

(٢) البيت للممتبي. انظر «ديوانه» ص ٥٣١.

قوله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

### سبب النزول:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال «قدم وفد بني أسد على رسول الله ﷺ، فتكلموا، فقالوا: قاتلتك مضر ولم نقاتلك ولسنا بأقلمهم عدداً، ولا أكلهم شوكة، وصلنا رحمك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما: أتقولان هكذا؟ فقالا: لا. قال: «إن فقه هؤلاء قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم». قال عطاء في حديثه: فأنزل الله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ (١).

قوله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: يمن عليك يا محمد هؤلاء الأعراب ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ويعترون بذلك ويدلُّون به.

«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: يمنون عليك بأن أسلموا، أي: يمنون عليك بإسلامهم ويدلُّون به. ومعنى ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾، أي: أن دخلوا في الإسلام ظاهراً.

لأن قولهم: ﴿إِمَانًا﴾: إما من باب التعليم لله، وهذا سوء أدب مع الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالهم وغيرها.

وإما من باب الإدلال على الله بذلك، والمنة بذلك، وأنهم كذا وكذا: تكثراً بما ليس فيهم، وذلك مذموم؛ لأن المنة تبطل وتفسد الصنعة وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَمَنََّنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ [المدثر: ٦].

﴿قُلْ﴾ يا محمد ردّاً عليهم في دعواهم: ﴿لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾.

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

أي: بل المنة والفضل لله عز وجل عليكم بذلك أن هداكم للإيمان الذي هو أعظم

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» في التفسير - قوله تعالى: (يمنون عليك أن أسلموا) ٦/٤٦٧ رقم

١١٥١٩، وأبو يعلى في مسنده ٤/٢٥٠ رقم ٢٣٦٣، والضياء المقدسي في «المختارة» ١٠/٣٤٥ رقم

٣٧٣، والطبراني في «الأوسط» ٧/١٩٦ (٧٢٥٦).

نعمة وأكبر منة منه عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦١﴾﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلْمًا ﴿[النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم الإيـان. والله بذلك أعلم سبحانه.

كما قال النبي ﷺ للأنصار: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن» (١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الغيب في الأصل ما غاب عن الأعين، ولم تدركه الحواس. والله عز وجل لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فكل ما غاب في السموات والأرض عن الخلق هو عنده سبحانه ظاهر معلوم، لأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير: «يعملون» بالغيب، وقرأ الباقون بالخطاب:

﴿تَعْمَلُونَ﴾.

(ما): مصدرية، أو موصولة، أي: بصير بعملكم، أو بالذي تعملون.

أي: والله بصير بأعمالكم، مطلع عليها يحصيها عليكم، ويجازيكم عليها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذا فيه وعيد وتهديد لمن خالف أمر الله عز وجل، ووعد لمن امتثل أمر الله وأطاعه.

### الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على هؤلاء الأعراب ونفي ما ادعوه لأنفسهم من الإيمان كأنهم يعلمون الله بدينهم وليس معهم في الحقيقة إلا الإسلام الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

(١) أخرجه البخاري في المغازي - غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة - إعطاء المؤلفلة قلوبهم ١٠٦١، وأحمد ٤/٤٢ من حديث زيد بن عاصم رضي الله عنه.

- ٢- أن الأعراب سكان البادية هم أقرب إلى الجفاء والجهل.
- ٣- أن الإيمان أحص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، وأن الإيمان في البواطن والقلوب والإسلام علانية.
- ٤- أن الحقائق لا تثبت بالدعاوى والأمانى.
- ٥- أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا منافقين، إذ لو كانوا منافقين لما أثبت لهم الإسلام ولنفاه عنهم، كما نفى عنهم الإيمان.
- ٦- أن هؤلاء الأعراب لم يدخل الإيمان في قلوبهم ولم يتمكن منها وقت نزول هذه الآيات وإن كان قارب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.
- ٧- الترغيب في طاعة الله ورسوله، وأن من أطاع الله ورسوله سيوقى أجره تاماً لا ينقص منه شيء وفاءً منه - عز وجل - وعدلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾.
- ٨- وجوب طاعة الرسول ﷺ، وأنها من طاعة الله - عز وجل.
- ٩- إثبات أنه عز وجل ذو المغفرة وذو الرحمة الواسعتين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ١٠- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدّم صفة المغفرة؛ لأن بها زوال المهروب، ثم أتبعها بصفة الرحمة التي بها حصول المطلوب.
- ١١- أن المؤمنين الصادقين حقاً هم الذين آمنوا بالله ورسوله من غير شك، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.
- وفي هذا وصف لهم وثناء من الله - عز وجل - عليهم، كما أن فيه إشارة لبعده هؤلاء الأعراب عن منزلتهم.
- ١٢- تلازم الإيمان بالله ورسوله، فلا يصح الإيمان بالله دون الإيمان بالرسول، ولا الإيمان بالرسول دون الإيمان بالله؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- ١٣- التحذير من الارتياب والشك في الدين، وأنه منافٍ للإيمان بالله ورسوله؛

لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾.

١٤- عظمة مكانة الجهاد بالأموال والأنفس في الإسلام، لأن الله خصه هنا

بالذكر من بين أعمال الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٥١- أهمية الجهاد بالأموال، لأن الله قدمه على الجهاد بالأنفس؛ لقوله تعالى:

﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

١٦- أن المعتبر من الجهاد ما كان في سبيل الله، أي: خالصاً لله تعالى؛ لإعلاء كلمته،

وموافقاً لشرعه.

١٧- الإنكار على هؤلاء الأعراب تعليمهم الله بدينهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَمَلِكُمُ

اللَّهُ بِدِينِكُمْ﴾.

١٨- علم الله- عز وجل- المحيط بما في السموات والأرض وبكل شيء؛ لقوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٩- منة هؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم جهلاً منهم؛ لقوله تعالى:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾.

٢٠- تشريفه عز وجل للنبي ﷺ بخطابه له؛ لقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾.

٢١- وجوب الأدب مع الله- عز وجل- ومع رسوله ﷺ وتحريم المنة والإدلال

بالعمل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ﴾.

٢٢- لا منة هؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم بل المنة لله- عز وجل

عليهم وعلى الخلق كلهم، وعلى المؤمنين خاصة بهدايتهم للإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ

يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ﴾.

٢٣- أن الهداية للإيمان والتوفيق إليه، بيد الله تعالى وحده، يهدي من يشاء بفضله،

ويضل من يشاء بعدله.

٢٤- إثبات إحاطة علمه عز وجل بغيب السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٢٥- بصره عز وجل واطلاعه على العباد وأعمالهم، وإحصاؤه إياها ومجازاتهم عليها.

وفي هذا وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِرِّيمَا تَعْمَلُونَ﴾،  
وهذا يوجب مراقبة الله تعالى على الدوام في جميع الأحوال والأعمال.

\* \* \*



## فهرس الموضوعات

- تفسیر سورة الزخرف..... ٥
- المقدمة ..... ٧
- أ- اسم السورة:..... ٧
- ب- مكان نزولها:..... ٧
- ج - موضوعاتها:..... ٧
- تفسیر قوله تعالى: ﴿ حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ... ﴾ الآيات [١-١٤]..... ١١
- تفسیر قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ الآيات [١٥-٢٥]..... ٢٣
- تفسیر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ الآيات [٢٦-٣٥]..... ٣٤
- تفسیر قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ الآيات [٣٦-٤٥]..... ٤٦
- تفسیر قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ الآيات [٤٦-٥٦]..... ٥٦
- تفسیر قوله تعالى: ﴿ ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ الآيات [٥٧-٦٥]..... ٦٣
- تفسیر قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ الآيات [٦٦-٨٠]..... ٧١
- تفسیر قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الآيات [٨١-٨٩]..... ٨٠
- تفسیر سورة الدخان..... ٨٥
- المقدمة ..... ٨٧
- أ- اسم السورة:..... ٨٧
- ب- مكان نزولها:..... ٨٧

- ج - موضوعاتها: ..... ٨٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾... ﴿الآيات [١٦-١] ..... ٩٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿ \* وَلَقَدْ فَتَنَّا فَجَاهَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ... ﴾  
الآيات [٣٣-١٧] ..... ١٠١
- تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ٢٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ  
بِمُنشَرِينَ ... ﴿الآيات [٤٢-٣٤] ..... ١١١
- تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ... ﴾ ﴿الآيات [٥٩-٤٣] ..... ١١٦
- تفسير سورة الجاثية ..... ١٢٥
- المقدمة ..... ١٢٧
- أ- اسم السورة: ..... ١٢٧
- ب- مكان نزولها: ..... ١٢٧
- ج - موضوعاتها: ..... ١٢٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿ حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ... ﴿الآيات [١١-١] ..... ١٣٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ... ﴾ ﴿الآيات  
[٢٠-١٢] ..... ١٣٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ... ﴾ ﴿الآيات [٢٦-٢١] ..... ١٤٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ ﴿الآيات [٣٧-٢٧] ..... ١٥٧
- تفسير سورة الأحقاف ..... ١٦٧
- المقدمة ..... ١٦٩
- أ- اسم السورة: ..... ١٦٩
- ب- مكان نزولها: ..... ١٦٩
- ج- موضوعاتها: ..... ١٦٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ... ﴿الآيات [٩-١] ..... ١٧٢

- تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ... ﴾ الآيات [١٠-٢٠] ١٨٢ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ... ﴾ الآيات [٢١-٢٨] ٢٠٠ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... ﴾ الآيات [٢٩-٣٥] ٢٠٩ .....
- تفسير سورة محمد ﷺ ٢٢١ .....
- المقدمة ٢٢٣ .....
- أ- اسم السورة: ٢٢٣ .....
- ب- مكان نزولها: ٢٢٣ .....
- ج - موضوعاتها: ٢٢٣ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ... ﴾ الآيات [١-٩] ٢٢٦ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ... ﴾ الآيات [١٠-١٩] ٢٣٦ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ... ﴾ الآيات [٢٠-٢٨] ٢٥١ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْرٌ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَانَهُمْ... ﴾ الآيات [٢٩-٣٨] ٢٦١ .....
- تفسير سورة الفتح ٢٧٣ .....
- المقدمة ٢٧٥ .....
- أ- اسم السورة: ٢٧٥ .....
- ب- مكان نزولها: ٢٧٥ .....
- ج - فضلها: ٢٧٥ .....
- د- موضوعاتها: ٢٧٥ .....
- تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا... ﴾ الآيات [١-١٠] ٢٧٨ .....

- تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا...﴾ الآيات [١١-١٩]..... ٢٩٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَدَّكَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا...﴾ الآيات [٢٠-٢٩]. ٣٠٥
- تفسير سورة الحجرات..... ٣٢٣
- المقدمة ..... ٣٢٥
- أ- اسم السورة:..... ٣٢٥
- ب- مكان نزولها:..... ٣٢٥
- ج- موضوعاتها:..... ٣٢٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُفَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ الآية [١] ٣٢٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...﴾ الآيتان [٢، ٣]..... ٣٣٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ...﴾ الآيتان [٤، ٥]..... ٣٣٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا...﴾ الآيات [٦-٨]..... ٣٤٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَافِيفَانٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْبَلْتُمَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...﴾ الآيتان [٩، ١٠]..... ٣٥٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ...﴾ الآية [١١]..... ٣٦٠
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ...﴾ الآية [١٢]..... ٣٦٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾ الآية [١٣]..... ٣٧٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا...﴾ الآيات [١٤-١٨]..... ٣٨٢
- فهرس الموضوعات ..... ٣٩٧